خلف الأسلاك الشائكة



كويتي 15 عام في سجون أمريكا

ياسر البحري

الطبعة الثالثة

ياسر البحري

خلف الأسلاك الشائكة

كويتي 15 عام في سجون أمريكا

- خلف الأسلاك الشائكة
- ياسر البحري
- الطبعة الثالثة 2020

رقم الإيداع: 1951-2016

الردمك: 978-99966-1-454-5

الفهــرس

إهداء

إلى عبدالله البحري... طب قلبي ودوائه

-

الشكر والعرفان

الشكر لله سبحانه وتعالى على نعمه الإسلام وعلى نعمه الأخرى التي لاتعد ولا تحصى....

والشكر كل الشكر والتقدير إلى زوجتي المحبه أسماء البحري على وقوفها بجانبي دائما على الحلوه والمره ..... والصبر علي !

والشكر الجزيل إلى كل من أختي فاطمة وأختي إيمان لمراجعة الكتاب وتصحيحه....

والشكر والعرفان لأهلي جميعا لدعمهم لي نفسياً ومعنوياً ومادياً....

والشكر لكل من رفع يديه للخالق عز وجل بالدعاء لي بالتوفيق... فما بي من نعمه هو بفضل دعواتهم الصادقة .

اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا

(سورة الاسراء :14)

(1)

إقتحام

اعتدت على الذهاب إلى محلي الجديد، كافيه شيشة، أو "القهوة"— كما نطلق عليها نحن العرب— كل يوم في فترة الصباح، مصطحباً معي وجبة الغداء وجهاز الحاسوب المحمول. فالمقهى لا يفتح أبوابه للزبائن قبل الساعة الرابعة عصراً من كل يوم وذلك لأن أغلبية زبائنه هم طلاب جامعة ولاية فلوريدا في مدينة تالاهاسي عاصمة ولاية فلوريدا، حيث إعتاد الطلبة على "الزحف" إلى القهوة مساءاً بعد أن يحل الظلام، حيث يتاح لي عند خلو القهوه من الزبائن صباحاً الهدوء للدراسة، والتحضير لرسالة الدكتوراه. فالقهوة، بالنسبة لي، بيتي الثاني، أو إذا صح التعبير مملكتي التي أشعر فيها بالراحة والاسترخاء، وأقضي فيها معظم أوقاتي، من الصباح وحتى الساعة الرابعة عصراً. فالقهوة لي .. لي أنا وحدي .

وفي يوم من الأيام، ذهبت كعادتي إلى القهوة في تمام الساعة الحادية عشرة صباحا، وبينما كنت أقوم بركن سيارتي في الموقف الأمامي المباشر للقهوة، وجدت فتاة لا يربو عمرها عن العشرين ربيعاً، تجلس على عتبة الباب الرئيسي للمحل. كانت بيضاء، شقراء، ممشوقة القوام. لم تكن بالجميلة جدا، لكنها إستعاضت عن ذلك بوجه مطلى بالكثير من المساحيق، ترتدي تنورة بالغة القصر تكشف عن ثيابها الداخلية بكل جرأة، وهو أمر لا تلجأ له الفتيات في تلك البلاد في النهار عادة. ذهلت كثيرا من زيها المغري الفاضح، والذي يكشف أكثر مما يستر. فقلت لنفسي، "لابد وأنها قد أخطأت في العنوان؛ لا بد وأنها هنا لزيارة المحل المجاور"، وهو بالمناسبة صالون نسائي تقصده الفتيات الصغيرات للتبرج والتزين، والذي عادة ما يفتح في الصباح الباكر .

نزلت من سيارتي متوجهاً نحو المقهى وما إن دخلت إلى الداخل، حتى لحقت بي الفتاة محاولة الدخول على الرغم أنه مغلق للزبائن! فقلت محدثاً نفسي "لعلها تعتقد أن المقهى مفتوح للزبائن!"، فقلت لها بالانجليزية :

–"المحل مغلق".

فابتسمت قائلة:

– "أعلم بأن المحل يفتح في الرابعة مساء، ولكنني أريد أن أقدم طلبا للحصول على وظيفة للعمل هنا!"

فقلت في نفسي "تعلمين بأننا نفتح في الساعة الرابعة مساءً، وتقومين بإنتظاري منذ الصباح الباكر للتقديم على الوظيفة؟!"

فقمت بدعوتها— بعد تردد— للدخول والتقديم على الوظيفه. وبينما أنا أسير متوجها إلى الإستقبال، أخذت الفتاة تسارع في الخطى وتسير أمامي بكل جرأة!

فتحت الدرج حيث توجد الاستمارات وأخرجت لها إستمارة طلب الوظيفة، فاخذتها وهي تبتسم تلك الابتسامة البلهاء، ثم طلبت قلماً، فناولتها واحدا. أخذته ومشت قليلا بإتجاه الطاولة، وأخذت بتعبئة الاستمارة . ماهي إلا دقائق معدودة حتى انتهت من تعبأة استمارة طلب الوظيفه. ناولتني الاستمارة ثم توجهت إلى خارج المحل مختالة في مشيتها وهي تردد بكل ثقه: "اسمي ميمي؛ أنتظر منك مكالمة..." وخرجت من المقهى واختفت. إكتفيت بالنظر إليها في صمت وهي تغادر المكان، وقد تملكنى شعور بالريبة من تصرفاتها .

جلست على الكرسي خلف الطاوله حيث أجلس عادة، وأخذت أفكر بهذه الفتاة الغريبة الأطوار، وبجرأتها، والتوقيت الغريب الذي أتت فيه للمقهى. فهل ياتراني بالغت بخوفي وريبتي من تصرفاتها ؟ لا أعلم ..... تناولت إستمارة طلب الوظيفة، وأخذت أقرأ الإسم من جديد "ميمي" وقمت بالاتصال بالمديرة الليلية للمحل وتُدعى توفا، وأعطيتها رقم هاتف ميمي طالباً منها الاتصال بها لمقابلتها، فأنا عادة لا أقابل الموظفات، وقد كلفت المديرة الليلية توفا بتولي تلك المهام نظرا لخبرتها السابقة في مجال التوظيف، الذي أكسبها الحس العالي والمقدرة على التعرف على مدى جدية الفتاة الراغبة بالعمل. وقدرتها على أداء المهام على الشكل المطلوب، وخصوصا في ظل إنشغالي في التحضير لرسالة الدكتوراه .

لحظه .... لحظه .... لقد استرسلت في الموضوع دون أن أعرفكم بنفسي .

أنا .... أنا من أنا ؟ ......

(2)

من أنا ؟

أنا شاب كويتي من منطقة تدعى الصباحية وهي تقع جنوب دولة الكويت، منطقة يعرفها "أهل الديرة" فقط لأنها تقع على الخط السريع المؤدي بهم إلى الخيران، منطقة شاليهاتهم ليس أكثر. نشأت وترعرعت في أسرة متواضعة من ذوي الدخل المحدود. تنحدر أصول أبي رحمه الله من عرب نجد، وأمي— أطال الله بعمرها— من مواليد البحرين. أبواي كلاهما أميان لايعرفان القراءة والكتابة. وبعد العمل بوظائف عديدة إنتهى المطاف بأبي العمل كسائق لسيارة أجرة ذات اللون البرتقالي المعروف لأهل الكويت قبل الغزو العراقي الغاشم على دولة الكويت، والتي إنقرضت حاليا وأستبدلت باللون الأبيض!

لي سبعة من الأشقاء، وخمسة من الشقيقات، أغلبهم يشغلون وظائف مرموقة في المجتمع، فمنهم الدكتور، ومنهم الصيدلاني، ومنهم المهندس، ومنهم من يعمل في الدفاع الجوي! أما أنا.... فأنا أعتبر نفسي محظوظاً للغاية منذ الصغر. يقال أنه في يوم ميلادي، ظهر أعلى السماء قوسان من قوس المطر (قوس قزح) فوق بيتنا حيث أقطن بالصباحية، وهي ظاهرة كونيه لم تقع إلا مرتان في عالمنا: يوم ميلادي، ويوم ميلاد كيم جون أونج رئيس دولة كوريا الشمالية! أتريدون دليلا آخر على لعبة الحظ ودورها الغريب في حياتي إليكم قصة أخرى ... عندما كنت في السابعة من عمري وبينما أنا في سباق الدراجات الهوائية متحديا أصدقائي، وقعت عيناي على ورقة نقدية من فئة العشرة دنانير ملقاة على الأرض، فقفزت من أعلى دراجتي كالسنجاب وإنقضضت عليها مؤمنا بأنها فال خير ومؤشر لتميزي وحظي الموفق في الحياة!

وعندما كنت في العاشرة من عمري، تم اختياري أن ألعب كلاعب أساسي في نادي الشباب الرياضي لكرة القدم، حيث أحرزت هدفين ضد نادي اليرموك في أول مباراة لي، هدفان غيرا مجرى حياتي الرياضية، حيث تم إختياري كلاعب أساسي في منتخب الكويت الشبابي لكرة القدم! ولم يعوق إحترافي لكرة القدم سوى غزو صدام للكويت. وحتى في ظل محن الغزو وأهواله أعتبر نفسي محظوظاً لأنني الوحيد من بين أخوتي الذي لم يتم القبض عليه من قبل قوات صدام الغازية! على الرغم من إنخراطي بالعمل في المجال التطوعى لخدمة المجتمع، كعملي كخباز في مخبز الأحمدي الآلي لضمان توفير الخبز لأهالي المنطقة، وعملي كزبال في شوارع الصباحية، أزيل القمامة وأحمي البيئة التي دمرتها الهمجية الصدامية بشكل شبه كامل، إلى جانب العمل كممرض في مستشفى العدان لاسعاف ضحايا الحرب! قمت بكل ذلك في سن صغيرة، حيث لم أبلغ بعد الخامسة عشرة من العمر، ومن دون حدوث أي إشتباك أو صدام مع زبانية صّدام وزمرته! وتلك على فكره مسألة تُعد نادرة حقاً .

أما في فترة المراهقة وذلك بعد إنقضاء فترة الغزو بكل آلامه وتبعاته، وما تبعه من رخاء، تعلمت العزف على الالات الوترية كالعود والكمنجة، وضبط الإيقاع قليلاً، كما تعلمت العزف على البيانو والجيتار الكلاسيكي! وعندما بلغت الثانية والعشرين من العمر قمت بتلحين أغنية وطنية

شهيرة تُدعى "يا شيخنا ويا سعدنا" من غناء الفنان الكويتي علي بن علي وكان ذلك في العام 1997 بمناسبة رجوع الشيخ سعد العبدالله رحمه الله من فترة العلاج .

كما إنني كنت محظوظاً في التجارة. فمنذ صغري قمت بإستثمار ماورثته عن أبي في البورصة الكويتية وشراء الأسهم والاكتتاب في عدة شركات مثل الكويت للبتروكيماويات والهواتف المتنقلة، مما جلب لي أرباحاً مضاعفة في بضع سنين! كما كنت موفقا بشكل كبير في حياتي الجامعية. فهل يا ترى كنت ذكيا! أم محظوظا! أم الاثنين معا! و كنت أستبدل سيارة بأخرى في كل فصل من فصول السنة، موستنج بمرسيدس، هوندا بتويوتا، وكمارو بكاديلاك وهكذا. وكان لدي العشرات من الأصدقاء في كل مكان. وبما أنني كنت أجيد العزف، فحياتي كانت مليئة بالصخب كعادة الشباب في مثل سني، فقد كنت أدعى لحضور الكثير من الحفلات، أو مانسميها في الكويت بـ "السمرات"!

وعندما كنت طالباً في قسم الفلسفه، ربحت الجائزة العلمية على مستوى كلية الآداب بأكملها في سنة 1997. بالإضافة إلى ذلك كان لي عموداً لمقالاتي الفلسفيه في مجلة فلسفية تحت عنوان "ببساطة!" والتي كانت تحت إشراف الدكتورة عاليه شعيب. فهل من مزيد؟ نعم ... فعندما أنهيت دراستي الجامعية بنجاح تم إختياري شخصياً من قبل رئيس قسم الفلسفه لإستكمال الدراسات العليا في أمريكا والحصول على الماجستير والدكتوراه عن طريق بعثه دراسيه، تتكفل جامعة الكويت بكافة مصاريفها الدراسية ونفقاتها الشهرية!

وعند وصولي لأمريكا، كان حظي أكثر سعادة، فقد كان في إنتظاري كل من أخي طارق وأختي فاطمة، اللذان قاما بتوفير كل مقومات الحياة الكريمة لي في الولايات المتحدة، حيث قاما بإستقبالي في المطار، وتوجيهي، ومساعدتي منذ اليوم الأول من رحلتي، وتعريفي بكل صغيره وكبيره تتعلق بالدراسه، واللغه الإنجليزيه، وطبيعة الحياة في الغربة. كما قاما بتوفير وسيلة التنقل من مكان إلى آخر، والكثير من المساعدات التي يسرت لي حياتي الدراسية هناك. فمنذ البداية لم أشعر بأية مشقة أو تعب أو خوف. لم يكن هناك سوى الحب والتقدير. وفي أقل من سنتين، حصلت على شهادة الماجستير من كلية بوسطن "بتميز"، وأصبحت مرشحاً للدكتوراه في جامعة فلوريدا.

ومما زاد من حسن طالعي إرتباطي بفتاة أحلامي، وتم الزواج في حفل عائلي محفوف من أجمل وأرق وأطيب إنسانه في الوجود، وهي بالمناسبه ابنة عمي وليد البحري أشهر مدرب للشرطة في أكاديمية الشرطة في دولة الكويت. نعم إن كرم الله معي لم يكن بالقليل وحظي من النجاح والإنجازات أحسد عليه: فلقد رزقني الله سبحانه بإبنتين هما قرتا عين لي.

أنا...أنا من رزقه الله بأعز أخ، وخير صديق ورفيق. كان شريكي في كل شيء، فقد تشاركنا الأفكار والطموحات، والأمنيات والأحلام، كما كنا شركاء في جميع أعمالنا التجاريه. إنه أخي الأصغر عبدالله فعلى الرغم من تخبطنا في عالم التجارة في باديء الأمر، كحال سعد وحسين في المسلسل الكويتي القديم، "درب الزلق"، إلا أننا— وبتوفيق من الله— نجحنا بعمل مشروع تجاري

صغير كبر مع الأيام حتى ذاع صيته وحقق أرباحاً غير متوقعه، حيث قمنا باستيراد الشموع والزيوت العطرية من أمريكا والصين.

وقمنا كذلك بتصنيع عطورات محليه، "مرشات البحري"، ولاقى المشروع رواجاً كبيراً في الكويت و جمعياتها التعاونية أنذاك، وحظيت منتجاتنا على ثقة الجمعيات التعاونية حتى تم تخصيص رف لنا في معظمها! وأنا الآن هنا في الولايات المتحدة الأمريكية، صاحب أكبر وأشهر كوفي شوب، على الطراز العربي في فلوريدا، "كافيه شيشة"، كافيه يقدم الشيشة والقهوة التركيه والمشروبات العربية الأخرى، والذي كان مدخوله اليومي ما يقارب الـ2000 دولارا ! كل ذلك حدث لي ولم أبلغ سن الثلاثين من العمر! نعم فهل من مثلي مثل ؟ بالسعادة، والحظ والذكاء؟

(3)

حسن الطالع

مهلا فإنجازاتي لم تتوقف بعد...

دعوني أحدثكم عن مملكتي التي قمت ببنائها في ولاية فلوريدا. فبعد حصولي على درجة الماجستير من كلية بوسطن في ولاية ماساشوتش في سنة 2001، اتجهت إلى ولاية فلوريدا بغرض إستكمال دراستي العليا، والحصول على شهادة الدكتوراه من جامعة ولاية فلوريدا، من عاصمة الولاية تالاهاسي على وجه التحديد. فبعد سنة أو سنتين من وصولي إلى هناك، طرأت على بالي فكرة كانت من وجهة نظر أمي جنونية، أما انا فقد اعتبرتها فكرة ريادية، واستكمال لمشوار الحظ السعيد، وحسن الطالع الذي لازمني طوال فترة حياتي! حيث راودتني فكرة إفتتاح قهوة عربية وشيشة في مكان قريب من الحرم الجامعي، وتلك صورة من صور "العولمه". فكما يقوم الأمريكيون بجلب فكرة "الكوفي شوب" مثل ستار بكس وكوستا وغيره إلى بلاد العرب— حتى في قلب مكة المكرمة— يقوم العرب بفتح القهاوي وبيع الأراجيل، والشيشة في قلب عواصم الولايات المتحدة الأمريكية! فهل ياترى طموحي مشروع؟ أم تراني أسرفت في خيالي، وشطحت بعيداً في آمالي؟

أخيراً وبعد البحث الطويل، وجدت مكاناً مناسباً لتنفيذ الفكرة، شارع تينيسي الذي يقع مباشرة مقابل الحرم الجامعي، وينتصف أربعة مساكن طلابيه، وتحوم حوله مطاعم شهيرة. وبعد أن قمت بالتوقيع على عقد الإيجار مع إدارة المجمع التجاري، ودفع التأمين، استعنت بزوج أختي طارق لمساعدتي في الإعداد لهذا المشروع. ولضخامة المشروع، قمت بالاستعانة بأخوي شافعي وعبدالله في بناء المكان وإدارته. وبعد أربعة شهور من الجهد والعناء المتواصلين، من وضع للسيراميك، والقيام بالطلاء ووضع الطاولات والكراسي، وحتى بناء شبكة مجاري الصرف الصحي، وامداد الكهرباء، تمكنت من فتح أكبر وأفضل وأجمل محل شيشة (قهوة)، في ولاية فلوريدا بأكملها، حيث بلغت مساحته—من دون مبالغة— 3000 مترا مربعاً. ويسمح بإستضافة 300 شخص في ان واحد، إلى جانب إحتوائه على غرف خاصة أو الـ VIP، والكبائن الخاصة بالحفلات .

لقد كلفت كل تلك العمليه ما يقارب الـ 200 ألف دولار ولكن كان ريع القهوه ما يقارب الـ 2000 دولارا يوميا. ومنذ إفتتاح المحل في شهر يوليو من 2005، بدأت الأرباح بالتزايد يوماً بعد يوم حتى أصبحت أسبح بحمام من النقود! لعلي بالغت هنا... ولكن بدأت الأموال والشهره بالتزايد يوماً بعد يوم، وبشكل مفاجئ ومغري. كانت فرحتي بمملكتي لاتوصف، فقد ذاع صيت القهوة، وأصبحت تنافس وبقوة أشهر الكافيهات الغربية بسبب اختلافها وحداثة فكرتها على المجتمع الغربي آنذاك. أما العرب فكانت تمنحهم الإحساس بالألفة، وتشبع لديهم الشعور بالحنين إلى تراثنا الشرقي الجميل. فكانت مرتعاً للعرب المتواجدين في تالاهاسي، مثل السعوديين والكويتيين والفلسطينيين، وحتى المغاربة. ولم يكن رواد القهوة من العرب فقط، فقد جمعت القهوة بين مختلف الجاليات الشرقية: كالهندية والباكستانية والإيرانية، وحتى الأتراك واليهود! ولكن لا بأس بذلك! فهي بالنسبة لي محل تجاري غرضه الربح، وليس السياسة، وفعلاً كانت الأرباح تفوق كل التوقعات.

وحظيت بشهرة واسعة في فلوريدا كصاحب مقهى عربي، فالموظفين والموظفات طوع أمري وتحت تصرفي يكنون لي مشاعر الإحترام والتوقير من جهة، ومشاعر الرهبة وإبتغاء مرضاتي من جهة أخرى، فسلطتي تخولني أن أوظف وأفصل، وأدخل وأخرج، وأضيف وأمنع ... بإختصار لقد أصبحت "الكل بالكل" والموظفون يحاولون كسب رضاي، وزبائني يتمنون صحبتي. أصبحت كـ "العراب"، او أشد قليلا!

لا أخفيكم أمراً... لقد أجدت لعب الدور حتى أتقنته. فقد كانت تلك عادتي منذ صغري وهي تقمص الشخصيات! أعيشها بكل جوانبها، وأحفظها وأتوحد معها بشكل كبير، ربما أكبر من صاحب الشخصية المقتبسة ذاتها إبتداءاً من جارنا "بدر المجنون" وإنتهاءً بشخصية "شارلي شابلن"، الشخصية التلفزيونية المعروفة! وعندما كنت في سن المراهقة، قمت بتقمص شخصية الفنان الكويتي يوسف المطرف—تغمده المولى بواسع رحمته—لدرجة أنني كنت أحاكي عزفه للعود، وأتكلم مثله، وأبتسم مثل إبتسامته اقتباساً طبق الأصل عمداً وتأثراً! ولا أخفي عليكم أنني عشت حالة من الزهو، والإعتداد بالنفس لذكائي التجاري، وحسن طالعي، وقدرتي على التوفيق بين دراستي وعملي، فالذين درسوا في الولايات المتحدة الأمريكية كثر، ولكن ليس هناك الكثير ممن يضاهيني شهرة وصيتا في الأوساط الجامعيه!

يمكنني القول أنني في مملكتي الجديدة، وخلال إدارتي لعملي التجاري الحر في أمريكا وقعت تحت تأثير إثنين من نجوم هوليود هما، روبرت دينيرو، وآل باتشينو في آن واحد! وحتى يتسنى لكم إستيعاب وتصور ملامح شخصيتي والتعرف عليها بشكل أكبر، فلكم أن تدمجوا في مخيلتكم هذان النجمان، وسيكون الناتج أنا ياسر البحري! المشية ... وطريقة الحديث ... والأسلوب ... وقصة الشعر وتزيينه ... ها أناذا أقوم بعمل ذلك بإحترافية تفوق مخرجي السينما في هوليوود! والنتيجة رجل شبيه برجال المافيا الإيطالية، صاحب أملاك، ومحلات تجارية، وكذلك وجهة نظر في الحياه ...

(4)

ميمي في أول يوم عمل

كانت ديكورات كافيه شيشة مميزة للغاية كونها تعكس ثقافة مختلفة عما اعتاد عليه الأمريكيون حيث صمم المحل على الطريقة الشرقية والجلسات العربية! وقد مُلئت القاعات بالوسائد والمطارح الأرضية ذات الألوان البراقة. والقوارير الزجاجية تزين الأرفف من كل حجم ولون، وقد أضفت الفوانيس المغربية المعلقة والتى تزين مدخل ومخرج المحل على المكان سحراً وجاذبية. وتم تدريب جميع الموظفين بعناية على طريقة تقديم المشروبات العربية الساخنة في الأواني الشرقية المعروفة الفضية منها والذهبية، والمخصصة لتقديم الشاي والقهوة العربية والتركية، إلى جانب الحلويات العربية المختلفة كالبقلاوة، وأنواع التمر المحشية منها و غير المحشيه، والأرجيله بجميع نكهاتها، يا لي ذيك المناظر! حقاً إنه منظر يرتاح له كل خاطر، ويُبشر بنجاح باهر زادني ثقة وزهوا.

في يوم من الأيام، وبينما موظفي المقهى يعملون كالنحل كعادتهم في عطلة نهاية الاسبوع، حيث يعج المحل بالطلبه من الجنسين، وفجأه ودون ترتيب أو إعلام مسبق ... أقبلت ميمي تمشي رويدا، متجهة نحو غرفة المكتب لتضرب بطاقتها في جهاز الحضور اليومي. ميمي تلك الفتاة التي تقدمت لطلب وظيفه في المقهى! لفت إنتباهي جرأتها الغير المعتاده، ووقاحتها في الملبس، وتماديها مع الزبائن، فاراها تتراقص تارة، وتحرك شعرها يميناً وشمالا تارة أخرى، أو تقوم بالإنحناء المغري عند تبديلها لفحم حجر شيشة الزبائن وهي تضحك مصدرة قهقهة عالية تثير حنق بعض الشباب المحافظ من العرب المتواجدين في المكان. فاقتربت منها مستفسراً، "أهذا أول يوم لك؟". فقالت، "نعم". فتركتها وتوجهت إلى توفا مديرة المقهى، وقلت لها، "ما رأيك بالفتاة الجديدة، ميمي؟" فاجابت أنها لا ترى فيها الشخص المناسب للعمل في المقهى، لما لها من شخصيه جريئه غير محببة للبعض، وأنها لم توافق على تعيينها في بادىء الأمر. إلا أن إصرار ميمي ومحاولتها الجاهدة لكسب الوظيفة، كتقديمها لكافة التنازلات من خفض الراتب مثلا أو ماشابهه لكي تحظى بهذه الوظيفة، حملها على الموافقة. بالإضافة الى ذلك، للضرورة أحكام، فالمحل كان بحاجة ماسه للموظفين.

حقيقة لقد أصابني أمر هذه الموظفة بالحيرة، فهي تستميت للحصول على الوظيفة، ولكنها في الوقت ذاته تتصرف بكل رعونه وجرأه غير عابئه بعواقب تصرفاتها! طلبت من توفا تنبيهها بأن ترتدي لباساً أكثر احتشاماً. وإنذارها من التمادي بالحديث والضحك مع الزبائن، فأنا شخص متزوج ولي سمعتي بالمكان، ويشكل المحل وجهة لبعض أفراد أسرتي، سواء زوج أختي أو أخي عبدالله، أو حتى عمي والد زوجتي الذي يتردد على الولايات المتحدة الأمريكية بين الحين والآخر. بالنهاية، هذا كافيه محترم في فلوريدا وليس كبريه في شارع محمد علي في القاهرة!

مرت الساعات ثقيلة في هذا اليوم، وكنت أشعر بالنفور والضيق من المكان، ولكنني لم أدرك سبب ذلك الشعور إلا فيما بعد! حان موعد نهاية الدوام الرسمي ويبدو أن توفا مديرة المقهى

قد أعطت ميمي ملاحظاتي لها، وبينما الجميع يستعد للخروج، أخذت ميمي تلملم حاجياتها استعدادا للرحيل، وقبل مغادرتها للمكان قالت، "آسفه. يبدو أنني لم أقم بواجبي الوظيفي بالشكل المطلوب!". فقلت لها أنني أخبرت توفا ببعض الملاحظات، وعليها الالتزام بها إذا كانت تريد الاحتفاظ بوظيفتها. فشكرتني على منحي لها فرصة ثانية للاستمرار في العمل وغادرت المقهى.

إستطاعت ميمي أخيرا أن تستوعب المطلوب منها، فتخلت عن اللباس الفاضح، والتصرفات غير المبررة من ضحك وميوعة، فبدت أكثر جدية خلال اليوم الثاني وما يليه من أيام خلال الأسبوع حتى جاء يوم الأربعاء!

(5)

كيد النساء !

إنه يوم الأربعاء، ذلك اليوم المشئوم!

لم تكن ميمي على علاقة وطيدة بموظفات المقهى ماعدا تارا والتي تم توظيفها قبل ميمي بأيام معدودة. وعلى مايبدو فالإثنتان على توافق تام. فهما تقومان بقضاء وقت فراغهما بعد خدمتهما للزبائن بالهمس لبعضهما البعض. وأحيانا تختفيان عن الأنظار لدقائق قد تطول لدرجة تدفع الزبائن للتذمر من التأخير وعدم الإسراع في تلبية طلباتهم وإحتياجاتهم! لم أكن أعلم مايخفيه لي القدر، أو ما تخفيانه الفتاتان ميمي وتارا، والذي لم يخطر لي على بال، ولم يكن أبدا بالحسبان. فخبرتي بعالم النساء الأمريكيات وكيدهن لم تكن بالكافية. فماذا يُتوقع أن تكون خبرة شاب كويتي لم يبلغ الثلاثين في التعامل مع فتيات أمريكا ؟

بدأ الزبائن بالدفع والرحيل شيئاً فشيئاً. وبدأ الموظفون بالخروج أيضا ولشدة الإعياء والتعب في تلك الليلة، طلبت من الموظفين بأن يكفوا عن التنظيف اليومي المعتاد، وبأن يذهبوا إلى حال سبيلهم! وبقيت في المقهى وحدي، وليتني لم أفعل! حيث توجهت إلى غرفة الـVIP الخاصة بالإحتفالات للإستلقاء قليلا. وتعد غرفة الـVIP أجمل غرفة بالمقهى على الإطلاق من حيث الديكورات والأثاث والإضاءة، فجلستها على الطراز العربي، ويحيط بحوائطها الحرائر، والأقمشة المزركشة المتدلية من الأعلى إلى الأسفل، وهي مملوءة بالوسادات والفرشة الأرضية الثخينة، التي تم إختيار ألوانها بدقة وعناية فائقتين، لتوفير تجربة فريدة من نوعها من الراحة والاسترخاء، تكاد تكون أكثر راحة من غرفة النوم الخاصة بي في منزلي.

أغمضت عيني قليلا وما هي إلا دقائق معدودة وإذا بي أشعر بوجود آخرين بالمكان. فتحت عيني فوجدت ميمي تقف بالقرب مني. فسألتها، لماذا لم تغادري؟ فلم تجب على سؤالي وتوجهت إلى جهاز التسجيل الذي أستخدمه عادة لسماع الموسيقى وقامت بتشغيله. إستيقظت من نومي، وإعتدلت في جلستي مندهشاً، وما هي إلا ثوان معدودة وإذ بتارا تدخل هي الأخرى، وفي يدها فنجانا من القهوة تقدمه لي، فقالت هامسة وهي تقترب مني بشدة، "لم نستطع أن نغادر ونتركك وحدك، فقد شعرنا أنك تعب وبحاجة إلى صحبه وعناية".

سرى بأوصالي إحساس غريب. فما بال الفتاتان لم تغادرا المقهى وتقتحمان الغرفة وتقطعان علي خلوتي من غير إحم أو دستور؟ إختلطت المشاعر بداخلي ما بين شعوري بالريبة من تواجدهما في هذا التوقيت، وما بين رفضي للإذعان للخوف منهما فهما مجرد فتاتان أولاً وأخيرا! إلا أنني بالفعل كنت بحاجة إلى فنجان من القهوة، وذلك لشعوري بالدوار والتعب والإرهاق الناجمين عن الدراسة والعمل المتواصل. إبتسمت الفتاتان وأشارتا إلي بتناول القهوة، فتناولت فنجان القهوة، ولا أعرف ماذا حصل لي بعد شربه. فجأة... بدأت أشعر بدوار خفيف وزغللة بالعين. إختفت الفتاتان في تلك اللحظة، ثم ظهرتا من جديد وفي يديهما أرجيلة الفراولة وزجاجات كثيرة. ثم بدأت تصبح الرؤية ضبابية شيئا فشيئا، ولم أعد قادرا على تمييز ما يحدث من حولي.

فجأة فتحت عيني، لابد أنني كنت نائما، وها أنا أستيقظ من النوم، وشعرت بقلبي يخفق بشدة، فقدت إحساسي بالزمن وأصبحت عاجزا عن تمييز الوقت، وأخذت أتساءل بيني وبين نفسي، "هل الوقت ليلا أم نهارا؟" فأخذت أبحلق في ساعة يدي ولم أتمكن في بادئ الأمر من قراءة الوقت، إلا أنني تمكنت من ذلك بعد محاولات عدة: إنها الساعة الرابعة صباحاً! فأخذت أنظر من حولي. أين أنا ؟ وبعد هنيهه استوعبت أنني مازلت في المقهى! فنظرت حولي مستغربا مُكثي إلى هذا الوقت المتأخر! وماذا حدث لي بالضبط؟ وأخذت شيئا فشيئا أسترجع أحداث الليلة الماضية والتي خلتها أضغاث أحلام! كان المحل فارغاً. خلا من كل شَيء سوى أصوات الأغاني الصاخبة الصادرة من سماعات المحل المتواجدة في كل مكان والأراجيل اللامعة الملونة.

حاولت الوقوف والخروج من غرفة الـVIP، وبعد عناء طويل تمكنت من ذلك إلا أن الرؤية لم تكن واضحة، فأخذت أسأل نفسي، "ما بال تلك الأراجيل تبدو وكأنها منتفخة ومبللة وتضيء ضياء القمر والنجوم حين المطر؟ أم هي عيناي المنتفختين وتريان كل شيء وكأنه وسط ضباب كثيف؟" حاولت الهروب من المكان لعلي أصحو من هذا الحلم أو"الكابوس المزعج" إن صح التعبير. إلا أنني كنت أسير بخطى غير ثابتة، أتارجح من مكان إلى آخر، وكأني كرة البلياردو السوداء، حتى كدت أن أسقط على الأرض مرة أو مرتين.

ثم عدت إلى غرفة الـVIP محاولا إدراك ما حدث! فرأيت زجاجات الخمر هنا وكؤوس زجاجية هناك، وعصير برتقال مسكوب على الأرض هنا، وأرجيلة ذهبية مرمية هناك. وما "زاد الطين بله"...ها أنا أرى ميمي مستلقية على الوسادة حيث كنت نائما، فجحظت عيني من هول الصدمة وكاد يغمى علي من شدة الخوف. فقلت لها بصوت مبحوح يملؤه الذعر من وجودها في المقهى في هذا التوقيت:

– ميمي! إستيقظي! ماذا تفعلين هنا؟!

– فاجابت: أشعر برغبة شديدة للنوم!

– أرجوك غادري المكان...غادري المكان من فضلك (قلتها والعرق يتصبب مني من شدة الخوف).

– حسناً! (أخذت تستيقظ شيئا فشيئا).

– أسرعي لو سمحت.

– ولم العجلة؟

– أرجوك... ميمي...

– ولكنني لا أملك سيارة ...

– أنا سأقلك ولكن أسرعي لو سمحت...

ذهبت ميمي إلى الحمام. فشعرت فجأة بدوار في رأسي، وقمت بإعداد قهوة تركية سوداء مشبعه بالكافين لعلها تساعدني على التركيز والقيادة! وفي تلك الأثناء وجدت مفاتيح سيارتي ملقاة على الطاوله. تناولت المفاتيح وبدأت بشرب القهوة ولكنني لم أستطع شربها فقد تملكني شعور بالخوف الشديد مما حصل. فبدأت عيناي تذرفان الدموع! حيث تراءت في مخيلتي صور زوجتي وبناتي! حاولت رج رأسي محركاً إياها يمنه ويسرة، وشخصت بناظري في جهات مختلفة لعل الصور تلك تختفي، ولكن دون جدوى. فأخذت أنظر في كل الاتجاهات باحثا عن ميمي التي تأخرت كثيرا، وبدأ صبري ينفذ وبدأت أصرخ مناديا:

- ميمي...أين أنت ؟

توجهت إلى الحمام فوجدتها ممددة على الأرض.

- ميمي! قومي لاخذك إلى مسكنك.

قامت ميمي واعتدلت، ثم قالت معتذرة:

- آسفه على هذه الحالة!

ولشدة ثمالتها إتكأت علي، وأمسكتها جيدا وأوصلتها إلى سيارتي، وقمت بقيادة السيارة بصعوبة. فقد كان الليل سرمداً، فلم أرى سوى عدة نقاط من الأضواء المنتفخة.

- فاين الآن؟ (سألتها).

فقالت:

- إتجه إلى اليمين بعد هذه الإشاره!

وبعد قليل قلت:

- ماذا الآن؟

- ادخل في المنحنى على اليمين، ثم قف عند زاوية الدوار عند ذلك المبنى ففعلت.

وهكذا وبعد عناء ومشقة أوصلتها إلى حيث تسكن، ثم انصرفت متجها إلى مسكني، داعيا الله أن أصل بسلامة ودون أي حوادث مرورية مؤسفة.

(6)

يمه الشرطه عالباب!

يقع مسكني في شرق مدينة تالاهاسي، ويبعد بضع كيلومترات عن محلي، وهو بيت جديد للغاية وقد كلفني 300 ألف دولاراً. إشتريته حديثاً منذ أسابيع قليلة ماضية، كي أفاجئ به زوجتي وبناتي عند التحاقهم بي في أمريكا. لم يعلم أحد موقع أو عنوان بيتي الجديد ولا حتى أعز أصدقائي، ولا حتى العفريت الأزرق! فلم أحول شركة الكهرباء والماء لعنواني الجديد بعد! وبعد وصولي إلى بيتي في تلك الليلة، كنت متعباً تعباً شديداً لدرجة أنني لم أتمكن من تفريش أسناني أو حتى تبديل ملابسي، فاستلقيت على الفراش. ولكن ما حدث بعد ذلك غير مجرى حياتي... وللأبد !

دق جرس المنزل في الساعة السابعة صباحاً، أي بعد ساعات قليلة من الحادثة. ولشدة تعبي لم أفتح الباب. ثم دق الجرس مرة أخرى. أسمعه جيدا ولكني لم أكن قادرا على مغادرة الفراش. أخيراً وبعد إصرار شديد من الطارق، جمعت قواي العضلية أوما تبقى منها، ودلفت أنظر من نافذة الغرفة العلوية المطلة على الشارع الرئيسي، فوجدت رجلاً وامرأة عند باب منزلي. من هما ياترى؟ هل هما فنيا الكيبل التلفزيوني؟ أم عاملان من عمال توصيل الأثاث؟ نظرت من جديد، فرأيت سيارة فورد تورس زرقاء كحلية اللون تقف أمام منزلي. نزلت إلى الطابق الأرضي متوجهاً نحو الباب وعلى جبهتي كانت العصبة (مظلة العيون للمساعدة على النوم)، ويبدو علي التعب والنعاس، ففتحت الباب وبادرتني المرأه بالسؤال:

– ياسر البحري ؟

فأجبت بـ "نعم".

– معك المحققة إليزابيث وهذا معي المحقق باك، هل تسمح لنا بالدخول؟

وهنا شعرت أن الدنيا توقفت لوهلة من الزمن. أفقت وطار النوم من عيني فجاة وكأني قد شربت برميلاً كاملاً من القهوة التركية السادة السوداء. وبإستسلام أجبت بنعم فدخلا. "ويحك يا ياسر! ماذا فعلت لتزورك الشرطة؟" متسائلا في داخلي دون أن أنبس ببنت شفهه. وأخذت أسترجع بذاكرتي كل خطاياي، محاولاً استنتاج سبب تواجد المحققين في منزلي، فقد ارتكبت كما لا بأس به من الأخطاء خلال إقامتي في الولايات المتحدة، فأنا لم أكن شيطاناً رجيماً، ولكنني لم أكن كذلك ملاكا معصوما!

فيا ترى ما سر زيارة المحققين؟ فهل من الممكن أنهم اكتشفوا تهربي من الضرائب؟! أو ربما لأنهم قد اكتشفوا بأني لا أحمل الجنسية الأمريكية، ولم يكن مسموحا لي أن أفتح محلات تجارية في أمريكا والعمل فيها أيضاً؟ أتراهم قد سمعوني أتحدث بالسياسة، وبأني ضد حروبهم في العراق وأفغانستان، أم ماذا؟ لقد إرتعدت فرائصي منتظرا أن يبدأ احدهم بالحديث. فقالت المحققه اليزابيث محدثة المحقق الآخر ومشيرة إلى منزلي:

– ما رأيك يا باك؟ لا بأس بهذه البيوت الجديده!

فاجابها باك:

– نعم... لا بأس فهي أوسع مما تبدو عليه من الخارج.

ثم قامت المحققة بالالتفاف نحوي قائلة،

– ياسيد ياسر... نريد أن نأخذ منك بعض المعلومات عما حصل مؤخراً!

– وماهو؟

– هل تعرف بنتاً تدعى ميمي؟

– نعم أعرفها.... (قلتها دون تردد)

– لقد كنا عندها منذ قليل فهي تقول ... تزعم بانك ... بانك قمت بعمل شيء لها!

– شيئاً مثل ماذا؟

– تقول أنك قمت بالتحرش فيها جنسيا....واغتصبتها ليلة البارحة!

وهنا كانت الصدمة. أحسست فجأة بخوار قواي، وأن ملك الموت قد قدم أخيراً لقبض روحي العزيزة مني، ونشف ريقي، وبح صوتي، وجحظت عيناني من شدة الذهول. ثم بدأت أرجف وكأنني سمكة قد أخرجت من الماء للتو تحاول التنفس! فلا تستطيع. وبصوت يكاد لا يسمع قلت، "ماذا؟"

فتدخل المحقق باك محاولاً لعب دور الشرطي الطيب، قائلاً:

– يا سيد... هي تزعم بأنك قد قمت بإغتصابها... نحن لسنا هنا لإلقاء القبض عليك أو ما شابه ذلك. نحن هنا فقط نود معرفة ما حدث منك.

لم أستطع الرد أو حتى الدفاع عن نفسي، فالصدمة أخرستني تماما كيف لي التحدث ومن أين أبدأ وبماذا أنتهي؟! فبداية القصة كانت طبيعية إلا أن النهاية عليها عدد من الخطوط الحمراء وعلامات الإستفهام الكثيرة. ولكن الشرح سيطول ولا يصدق، خاصة أن المتورط في الموضوع هو... أنا... ياسر... العربي المسلم! لا أعرف ماذا أفعل وأصبحت أشعر بثقل في صدري وضيق في التنفس وكأني أتصعد في السماء. فقال المحقق متداركاً :

– لم لا تشرب القليل من الماء؟

ففعلت ولكن لم تتحسن حالتي! فأجبت المحقق قائلا، "ميمي موظفة تعمل لدي في المقهى، وهي وأنا وبنت أخرى كنا في المحل الليلة الماضيه ..."

فقالت المحققة إليزابيث مقاطعة :

– وقد اغتصبتها عنوة!

– فثرت غاضبا وقلت : لا، لم يحدث ذلك!

يبدو على المحقق باك علامات التصديق، فلقد بدت عليه الرغبة في إنهاء التحقيق والرحيل، ولكن المحققة إليزابيث أصرت على الاستمرار، ودفع الموضوع لمنحى أكثر جدية فقالت:

– لدي هنا فاحص للحمض النووي، DNA(مشيرة إلى ما بيدها). فهل تمانع ان سألتك التطوع بتوفير عينات من أصابعك؟

– أتطوع ؟!

– نعم... فليس لزاماً عليك التطوع ولكنه أمر مهم قبل أن تغسل يديك.

– لا باس... يمكن أخذ أي عينه ترغبين.

بينما قامت بإخراج الفاحص وهو عبارة عن أعواد طويلة تشبه أعواد القطن للأذن، سألتني محاولة إيقاعي بالحديث:

– أي يد كانت إذن يا سيد ياسر؟

فأجبتها مندهشا:

– لا أعلم ماذا تقولين يا سيده ... ولكنني ليس لدي سوى يدين اثنين فيمكنك فحص كليهما!

قامت بلبس الكفوف النايلون وراحت تمسك يدي وتأخذ مسحة من أصابعي الواحد تلو الآخر، ولم تنسى ما تحت الأظافر. وأخذت تجمع كل شيء بواسطة القطن، ثم تضع قطنا بعد الآخر في كيس من النايلون الشفاف لحفظها وارسالها إلى المختبرات. وأنا؟ مسكين أنا، يداي ترتجفان بشكل لافت، لا أستطيع السيطرة عليهما، أو التقليل من حدتهما، مما بعث الشك في قلبي المحققين، فكاد الإثنان يجزمان بأنني مذنب وإلا فلم كل هذا الخوف؟ نعم كنت خائفاً... أعترف بذلك... ولكن ما جعل يداي ترجفان بهذه الشدة ليس الخوف فقط؛ فهما ترجفان بشكل إعتيادي طوال حياتي نتيجة لكثرة تناولي القهوة والسجائر، وهذا ما يعرفه جيدا المقربين مني.

وبعد انتهاء المحققة من أخذ العينات من جميع أصابعي، طلبت طلباً آخر:

– هل من الممكن فتح باب المقهى لنا للنظر؟ تذكر ليس لدينا أي إذن للتفتيش فيا حبذا لوتطوعت.

فأضاف المحقق باك، لاعباً دور الشرطي الطيب قائلاً بهدوء:

– نحن فقط نريد رؤية المحل لنحكم بأنفسنا.

وهنا توقفت السماوات والارض عن الدوران، وازددت إختناقا، فاخذتني ذاكرتي الى منظر غرفة الـVIP وما خلفته الفتاتان من كؤوس وزجاجات وأرجيله، ومشروبات غازيه ووسادات وغيرها من الأشياء المبعثره هنا وهناك.

– ما رأيك يا سيد ياسر؟ راح المحقق باك محاولاً إعادتي للواقع.

– عفوا؟

– ما رأيك ؟ هل تتطوع؟ فإن لم تتطوع سوف نضطر لحجزك والذهاب إلى القاضي لاستخراج مذكرة تفتيش للمحل وجمع الأدلة.

– لا...لا حاجة إلى كل ذلك.

فقال المحقق باك مدركا لمدى سوء حالتي النفسية:

– هل تستطيع القيادة؟

– أعتقد.

فقالت المحققة:

– يمكنك المجيء معنا في سيارتنا إن شئت!

– لا لا... لا داعي... أستطيع القيادة.

– هل أنت متأكد؟

– نعم!

– نراك إذن عند باب المحل.

فتوجهت مباشرة إلى المطبخ، وتناولت قنينة من المياه المعدنية ومفاتيح سيارتي، واتجهت نحو السيارة ونظري معلق طوال الوقت بالمحققين. وبينما كنت أهم، بالركوب، رأيت سيارة المحققين الفورد التورس الزرقاء الكحلية تتحرك متجهة نحو المقهى، فبدأت بتحريك سيارتي قاصداً المكان نفسه حسب الإتفاق.

(7)

المحامي مات ويلارد

بينما كنت في طريقي للمقهى لفتح الباب والسماح للمحققين بالتفتيش وتفقد المكان، طرأت على بالي فكرة: "لم لا أتصل بطارق لطلب المشورة". فأنا في مأزق حقيقي، وفي وضع لا أحسد عليه، وقد وجهت لي تهمة الإعتداء الجنسي على فتاة تعمل لدي، وهي تهمة في غاية الجدية والحساسية وفي دولة ليست بدولتي. طارق هو زوج أختي أميرة، وكلاهما كانا يعيشان في تالاهاسي، حيث أن أميرة كانت تحضر رسالة الدكتوراه في نفس الجامعة ونفس القسم الذي درست فيه!

حاولت جاهداً في مكالمتي الهاتفية أن أشرح له بإيجاز وبثوان معدودة ما حدث لي ليلة البارحة نظراً لضيق الوقت وما يحدق بي من خطر، فكنت أتحدث متلعثماً محاولا الإيضاح بأنها مسألة جادة للغاية، وأنني في طريقي الآن لفتح باب المحل للمحققين لاستكمال التحقيق والقيام باجراءاتهم في هذا الصدد، طالبا المشورة. فقال زوج أختي بأنه سوف يقوم بعمل إتصالاته ثم يعود إلي بنصيحة لما يجب علي فعله، وفعلاً وبعد دقائق بدت لي وكأنها سنين، عاود طارق الإتصال بي قائلاً:

– لا تذهب! ولا تفتح للمحققين الباب!

– ماذا تقول؟

– لقد اتصلت بمحامي الهجرة رامبانا فأشار علي أنه لا يحق للمحققين التفتيش بما أنهما لا يملكان مذكرة تفتيش، وعليه يجب عدم فتح باب المحل لهما، كما طلب مني إخبارك بضرورة عدم الذهاب إلى المقهى نهائيا!

– وماذا يجدر بي فعله إذن؟

– أوقف سيارتك في أقرب مكان للمواقف وانتظرني لآخذك إلى مكان آمن.

وفعلاً، أوقفت سيارتي في مواقف مجمع سكني مقارب إلى مسكني وانتظرت حتى قدم طارق فركبت سيارته، فسألته:

– إلى أين الآن؟

– إلى مكتب محامي يُدعى مات ويلارد، وهو محامي متخصص في القضايا الجنائية، وهو صديق رامبانا، محامي الهجرة. هو من دلني عليه!

عادة، لا يسمح طارق لأحد بالتدخين في سيارته، ولكنه أشفق علي من المصيبة التي حلت بي، فجعله استثناء. ومن شدة توتري أخذت أدخن بشراهة، وأخذ الدخان يتصاعد مني في السماء وكأنني قطار يعلوه الدخان أينما حل أو ارتحل. أدخن السيجارة تلو الأخرى من دون

توقف. وبينما نحن في طريقنا إلى وسط البلد، متجهين إلى مكتب المحامي مات ويلارد، كلما مررنا بجانب سيارة شرطة، تجدني أنحني إلى الأسفل محاولاً الاختباء، ومتخوفاً من صدور تعميم عام بحقي لاعتقالي بتهمة الاعتداء الجنسي! ومتوهما بتأهب جميع شرطة المدينة لملاحقتي والقبض علي! وبعد بضع دقائق، وصلنا إلى مكتب المحامي مات ويلارد وكانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحاً تقريباً. استقبلتنا سكرتيرته الخاصة قائلة:

– هل يمكنني مساعدتكم يا سادة؟

فأجاب طارق:

– نحن هنا لرؤية السيد مات ويلارد فلدينا موعد معه

– تفضلا بالجلوس وسوف أخبره حالاً!

– شكراً !

وانتظرنا ما يقارب العشرة دقائق في الخارج، وكنت متحمساً لرؤيته والألم يعتصرني والأمل هو ما تبقى لي، وكأني مصاب بآلام في أسناني، وكل همي أن يقوم الطبيب بخلعه والتخلص من الوجع. ولكن يبدو أن المحامي مات ويلارد لم يكن مشغولاً البتة، فإنما هي حيلة—كما علمت لاحقاً—يقوم المحامون بأدائها، للإيحاء لموكليهم بأنهم محامين " مهمين " للغاية.

وأخيراً دخلنا إلى داخل مكتب المحامي، وكان مكتباً شاسعاً شرحاً ونظيفاً، وفيه طاولة اجتماعات سوداء مستطيلة الشكل، وحولها كراسي جلد فخمة، وإذا به محام مبتدئ صغير في السن، يرتدي بنطال أسود، وقميص أبيض نظيف جداً، وناصع البياض وربطة عنق حمراء مخططة بخطوط سوداء، مشمراً ذراعيه وكأنه منهمك في العمل، وهي حيلة أخرى يقوم بها المحامون لإعطاء انطباع بأنهم مشغولون. فقال المحامي مات ويلارد:

– تفضلا يا سادة!

– شكراً!

– معكم مات ويلارد. أنا محامي مختص في الجرائم والقضايا الجنائية ومرخص من قبل ولاية فلوريدا لممارسة المحاماة فيها.

جلسنا، ثم أردف المحامي مات ويلارد قائلا:

– لقد حدثني صديقي المحامي رامبانا عن الموضوع، ولكني أريد معرفة الموضوع منك أنت (مشيرا الي).

ثم نظر إلي قائلا:

– هلا قصصت علي ما حدث؟

وقبل أن أفتح فمي رن جرس الهاتف الموجود على مكتبه وكأنه كان مؤقتاً لهذه اللحظة. فقال المحامي،

- اسمحوا لي

فراح يكلم الطرف الآخر على الهاتف:

- نعم ... معك مات ويلارد .. أهلاً أهلاً ! ... نعم نعم! أنت تعلم يا سيدي أنها أعز الكلمات عليّ عندما يقول لي القاضي، "شبيك لبيك القاضي بين يديك!"

يبدو أنه يتحدث عن قضية قد ربحها للتو، وهي أيضاً حيلة يقوم بفعلها جميع المحامين لرسم صورة لموكليهم بأنهم ناجحين. فأضاف:

- نعم يا سيدي... وكما تعلم... أنا لم أخسر أي قضية بعد ولا أنوي أن أخسر أي واحدة في المستقبل.

على الرغم من أنها إحدى حيل المحامين في أمريكا، إلا أنها قد أدخلت السرور والطمأنينة إلى قلبي ولو لوهلة. أحسست بالأمان التام والهدوء وكأن وجع الأسنان قد ولى وراح!

ثم أغلق الهاتف قائلاً:

- عفوا يا سادة!

- لا بأس.

ثم رفع سماعة الهاتف قائلاً لسكرتيرته:

- لا تحولي إلي أي مكالمة أخرى في خلال الساعة القادمة.

هي الأخرى حيلة يقوم بفعلها وكأنما السكرتيرة هي سبب المقاطعة، ثم قال:

- آسف مرة أخرى يا سيد البحري!

- لا بأس.

- قل لي إذن ماذا حدث بالأمس؟

فشرحت له ما حصل معي ليلة البارحة من الألف إلى الياء.

- ثم ماذا حصل؟

- في صباح اليوم التالي، جاء محققان إلى مسكني، وأخبراني بأني متهم باغتصاب أحد الفتاتين.

- مفهوم! ثم ماذا حدث؟

- قلت لهم أني لم أغتصب أحدا.

- لم إذن تدعي الفتاة ذلك؟

- لا أعلم.

- ثم ماذا حدث؟

- طلبت مني المحققة التطوع لأخذ عينات الأحماض النووية من أصابعي

- ولكنك رفضت أليس كذلك؟ (متأملاً أن أجيب بنعم)

- لا... لم أرفض.

فنظر إلي نظرة تعجب كادت تقول: "يا أيها الغبي الأحمق! ولم تتطوع؟ هل أنت أحمق إلى هذه الدرجة!؟"

ثم أردف قائلا:

- يا سيد ياسر. كان عليك عدم الإستجابة لمطالبهما، فهما لا يحملان إذن وموافقة بعمل ماقاما به. لم تجعل وظيفتهما سهلة؟ فقد كان عليهما الذهاب إلى القاضي أولا وإقناعه بأن هناك قضية تستحق الرفع، وبوجود إنتهاك ما للقانون من طرفك. هل تفهمني يا سيد البحري؟

- نعم (قلتها وشعور بالغباء قد إنتابني).

- على أي حال. ماذا حصل بعد أن قاما بفحص أصابع يديك؟

- طلبا مني أن أفتح باب المقهى لكي يتمكنوا من رؤية المكان من الداخل لاستكمال الإجراءات.

- ولكنك لم تفعل ذلك، أليس كذلك؟

- لا، لم أفعل ذلك.

وهنا بدأ المحامي مات ويلارد بالصمت قليلا، والنظر إلى الأعلى ويبدو عليه التفكير العميق بما قلته وماذا يجب علينا فعله الآن، ثم قال:

- يمكنني الدفاع عنك. ولكنها ليست بالقضية السهلة، بل تحتاج منا إلى إعداد الكثير. ولكني أعتقد أننا يمكننا الفوز بها، وأريدك أن تعلم أيضاً أنني لم أخسر أي قضية حتى الآن، ولا أنوي خسارة أي واحدة في المستقبل. أعطني عشرة الاف دولاراً تحت الحساب للبدء مباشرة، فليس لدينا وقت للإنتظار!

- لا بأس!

فقام طارق بكتابة شيك بالمبلغ وقام بإعطائه للمحامي. فقام المحامي بالعمل مباشرة في القضية، فسألني:

- وما هو اسم الفتاة المدعية عليك؟

- ميمي.

- وما اسم الفتاة الأخرى؟

- تارا.

- وهل يمكنك الحصول على أرقام هواتفهن؟

فقمت بالاتصال بتوفا، مديرة المحل، والحصول على الأرقام. فقام المحامي بالاتصال بميمي ولكنها لم ترد، ثم قام بالاتصال بتارا:

- مرحباً! الآنسة تارا؟ ... معك مات ويلارد. أنا محامي السيد ياسر البحري وأود سؤالك بعض الأسئلة ... ماذا ؟ ... طيب ... مفهوم".

ثم أغلق الهاتف ونظر نحوي رافعاً حاجبه للأعلى ومتنفساً بنفس عميق ثم قال:

- أخبار غير سارة البتة!

- ماذا حصل؟

- ستسبب لك تارا مشكلة كبيرة! وشهادتها سوف تضرك جداً!

وهنا بدأت معدتي بالتقلب، وأحسست أني أريد الذهاب إلى الحمام، فلم تكن أمعائي قادرة على مسك ما فيها؟ ثم بدأ العرق يتصبب منى وكأني في منتصف شهر أغسطس في الكويت، فقلت خائفاً:

- ماذا تقول؟

- تقول أنك كنت ثملاً ومخموراً للغاية وأنك قمت بالتحرش بها وبصديقتها. الأمر الذي أغضبها بشدة وجعلها تترك المكان وترحل.

وهنا تجمدت في مكاني! فلم أستطع الحديث أو التفوه ولو بكلمة واحدة، فرحت مفكراً بما قالته؟ هذه ليست الحقيقة!

صرخت غاضباً: "أنا لست بمغتصب ولست بحيوان".

ثم أضاف المحامي مات ويلارد قائلا:

– وتقول أيضاً بأن شرطة المدينة قد إتصلوا بها لأخذ أقوالها، وحذروها من التحدث معك أو مع أي شخص من طرفك.

ثم أضاف بأنه يعتقد أن المحققين يحاولون الآن إستخراج مذكرة تفتيش، وربما مذكرة إعتقال ضدي. فطلب مني أن يكلم توفا، فقمت بالاتصال بها وناولته الهاتف، فقال:

– توفا! مرحباً! أنا مات ويلارد محامي ياسر. أود أن أطلب منك خدمة ... أود منك الذهاب إلى المقهى وإخباري إذا كان هناك ثمة شيء غريب حاصل ... هل من الممكن ذلك؟ .. طيب شكراً.

ثم قام بالتوضيح لي ولطارق زوج أختي، بأنه يجب على أحد ما الدخول إلى المحل والقيام بتنظيفه على قدر المستطاع، مثل إخفاء زجاجات الخمرة والكؤوس، وتنظيف الأرضية من مخلفات الليلة الماضية، حتى لا يبقى أي شيء يتيح للمحققين الإنتفاع به في قضيتهم. وليتني لم أسمح للمحامي بعمل ذلك. فأنا لم أكن أعلم لحظتها بأنما يقترحه المحامي يعد أمرا غير قانونيا أصلاً، ويعاقب عليه القانون بالحبس خمسة سنوات! فإستجابت توفا لطلب المحامي، وتوجهت إلى المقهى. وما هي إلا دقائق معدودات وإذا بها تتصل، وتخبرني بأن ثمة هناك شرطيين إثنين يحرسان أبواب المقهى الأمامية والخلفية وأنه لا يمكنها الدخول، والسبب هو أنهم قد أعلنوا بأن المحل يعتبر "مسرح الجريمة".

فقال المحامي أنه يجب علي الذهاب إلى مسكن طارق، والابتعاد عن منزلي والمحل في الوقت الحالي—أي ان أختفي عن الأنظار حتى إشعار آخر.

(8)

النجدة! النجدة!

خرجنا أنا وطارق زوج أختي من مكتب المحامي مات ويلارد متوجهين نحو السيارة. فتفاجأنا بوجود شرطيين يسرعان باتجاهنا. يالسرعة الأحداث! هاهما قادمان للقبض علي بتهمة لم أقترفها ولسبب لا أعرفه وبسرعة مذهولة. قلت لنفسي مستسلما، "ويحك يا البحري! ها أنت يقبض عليك! وها هي النهاية"، نهاية رجل محظوظ للغاية. إستسلمت للأمر الواقع وإرتعدت أوصالي، وشلت رجلي ولم أستطع السير. أما قلبي فراح يخفق بسرعة 240 كيلومتراً بالساعة! وراح الشرطيان يقتربان منى شيئاً فشيئاً، فأغلقت عيني ومددت يداي للأمام وللأعلى، وعلى أهبة الإستعداد لوضع الأساور الفضية اللامعة عليها. ولكن الشرطيان تجاوزاني، أحدهما من الجانب الأيمن والآخر من جانبي الأيسر، وظلا يسيران بسرعة متجهان نحو هدفهما الأصلي حتى أصبحا خلفي. وعندما التفت برأسي للنظر إلى الوراء، رأيتهما يبتعدان شيئاً فشيئاً مواصلين السير في حال سبيلهما! والله لقد شعرت وكأن ساقاي قد أصيبتا بشلل الأطفال، أو أصبحتا لينتين، وكأنهما خيوط السباغتي من الصعب إستقامتهما!

نظر زوج أختي إلي مبتسماً وقال:"لا تخف!". ثم أردف، "أين تود الذهاب الآن؟" فطلبت منه أخذي إلى مطعم أصدقائي الألبان المسلمين سامي وآدم، الواقع في الطرف الآخر من المدينة، حتى أستطيع التفكير والتشاور معهما، لربما نجد حلاً لهذه الطامة الكبرى! أعلم أني في أمريكا ولست في بلاد العرب للإستنجاد بأهلي وناسي، أو حتى البحث عن "الواسطة" لفكي من بين براثن هذا الإبتلاء، فليس لي سوى آدم وابن أخيه سامي الألبانيان!

آدم، واسمه الحقيقي عبدالله، أمريكي الجنسية من أصول ألبانية؛ أما سامي، واسمه الحقيقي عبدالصمد، فهو ابن أخ آدم ولكنه لا يحمل الجنسية الأمريكية بعد، وكلاهما قد هاجرا إلى أمريكا منذ زمن بعيد. ومع الوقت تمكنا من فتح مطاعم للبيتزا في تالاهاسي. وعلى الرغم من صداقتي لكليهما، إلا أن سامي يعد الأقرب لقلبي نظراً لتقارب السن والهوايات. وعند وصولنا إلى المطعم ويُدعى" قرية البيتزا "، وجدناه وقد ملئ بالزبائن على بكرة أبيه فقد كان وقت الغداء. فدخلت من الباب الخلفي، فما زلت خائفاً من مواجهة رجال الشرطة، على الرغم من عدم وجود أي تعميم عام للقبض علي أو أي شيء من هذا القبيل، ولكنها حلاوة الروح! فقمت بمناداة سامي من خلف المحل وبصوت خافض:

- سامي... سامي...

فظهر سامي وقد بدا أثر الزحام على وجهه، وقال لي:

- شكيتاباه؟ (وهي كلمة ألبانية تعني كيف حالك؟)

فأجبت:

– مير فالامانديرشم! (طيب شكراً) وأضفت: سامي! أنا في ورطة.

وبدأت أقص عليه ما حدث من "طأطأ ... إلى السلام عليكم". ولكنه حاول أن يهدئ من روعى بأنها مجرد أزمة وسوف تنتهي بخير. فقلت له:

– لا أعتقد بأنها سوف تنتهي بسلام يا سامي! فحاول سامي تهدأتي وأنه سوف يقوم بالإتصال بآدم لكي يحضر ويشير علي بمايجب علي فعله.

– ولماذا آدم؟ (سألت سامي)

– لقد وقع آدم في شيء مثل هذا القبيل سابقاً!

فراح مضيفاً:

– لا تخف هذه أمريكا! وكل شيء له ثمن فيها.

فخرجت من الباب الخلفي، وجلست على الرصيف. وبينما أنا أنتظر وصول آدم لعلني أجد عنده حلاً، قمت بالإتصال بأخي عبدالله في الكويت، راجياً سماع صوت أحد أفراد أسرتي ولو بعدت المسافات، ومحاولاً الإستنجاد به! فقد ضاقت بي السبل.

– عبدالله... إسمعني! هذا موضوع في غاية الجدية.

وقمت أسرد له ما حصل، وطلبت منه إبلاغ أخوتي بالمصيبة التي حلت على رأسي بأسرع وقت ممكن، لأنه لا علم لى بما سوف يحل بي. فأخي عبدالله هو أحد أشقائي السبعة—فقد رزق أبواي بسبعة من البنين، وخمس من البنات—وعلى الرغم من علاقتي الطيبة بجميع أخوتي، إلا أن علاقتي بعبدالله كانت الأوثق. فهو أشبهني خلقا وخلقا.

قال لي عبدالله:

– سوف أخبر الجميع بمشكلتك، وسوف نقوم بعمل المستحيل لانقاذك. لا تخف فنحن معك ... والله معك.

ثم أضاف بأنه سوف يحضر إلى أمريكا لمؤازرتي في هذه المحنة. وبالفعل ماهي إلا أيام معدودة وإذا بأخي عبدالله في تالاهاسي جالباً معه عشرات الآلاف من الدولارات، تبرع بها أخوتي لدفع تكاليف المحامين. على أي حال، كنت لا أزال على الرصيف الخلفي لمطعم آدم جالساً منتظراً الفرج سواء بحضور آدم، أو تلقي إتصال هاتفي من زوج أختي طارق، أو حتى الحصول على أي معلومات من المحامي مات ويلارد. وأخيراً وصل آدم، ونزل من سيارته وتوجه إلي مسرعا وقال لي متسائلا:

– ماذا حدث؟

فقمت بشرح الموضوع، والتهمة المنسوبة لي. فقام هو الآخر بمحاولة تهدأتي، ولكن دون جدوى. ثم بدأ بسرد تجربته الشخصية، والتي تشبه إلى حد ما ما حدث لي:

– لا تخف! حدث لي موضوع مشابه مع موظفة عندي في المطعم، ولكن بالنهاية لا يصح إلا الصحيح. رفضت الشرطة رفع القضية لأن ما حدث كان بكل بساطة برضاها.

– ولكن يا آدم أنا لم أعتدي عليهما أصلا.

– لا تخف يا ياسر... لدي محامي يعتبر الأفضل في ولاية فلوريدا.

– ولكني قد عينت محامياً!

– لا بأس. دعنا نذهب إلى المحامي، وإستمع له ثم قرر. فقط نود السماع وأخذ المشورة.

– حسنا.

فركبنا في سيارته البورش الجديدة واتجهنا نحو وسط البلد من جديد قاصدين مكتب صديقه المحامي، ومازلت أحاول الإختباء في تلك السيارة الصغيرة. ياله من منظر!

(9)

لا تخف، أنت بأيدي أمينة!

وبينما نحن في طريقنا إلى مكتب المحامي في وسط البلد، قال آدم:

– لم لا تهرب؟ وتعود إلى الكويت؟

– أهرب!؟ ولم الهروب!؟ أنا لم أفعل شيئاً يعاقب عليه القانون!

فكرة الهروب لم تطرأ على بالي أبدا، فأنا لم أفعل شيئا. وإذا هربت ماذا سيكون حال المقهى، والذي كلفني الكثير؟ ورسالة الدكتوراه! ماذا سيحدث لرسالة الدكتوراه التي لم يتبقى منها إلا الشيء القليل؟ ومنزلي الجديد الثمين! كيف أتركه؟ أنا لدي الكثير من الإلتزامات التي لم أنهيها بعد.

– قلت: لا...لن أهرب... أبداً! لا يا آدم!

– لا تخف على أي حال، فهذا المحامي رجل داهية، وله 30 سنة خبرة، ويعرف الكثير من الناس.

– وكيف تعرفت عليه؟

– صدق أو لا تصدق، كما قلت لك، لقد حصلت لي قصة مشابهة لقصتك.

– حقاً ؟

– نعم. لقد كانت تعمل لدي في المطعم فتاة في أوائل العشرينات بيضاء شقراء حسناء.

– وماذا حصل؟

– في إحدى عطلات نهاية الأسبوع، اتفقنا أنا وهي على الذهاب إلى شواطئ مدينة بنما المشهورة. وعند وصولنا إحتفلنا ثم حجزت غرفة في فندق، وفي صباح اليوم التالي ذهبت الفتاة إلى قسم الشرطة تشتكي بأني قد اعتديت عليها جنسياً!

– وماذا حصل بعد ذلك؟

– إتصلت بالمحامي روبرت هاربر، وذهبنا إلى قسم الشرطة معاً. ثم شرح لهم بأننا من تالاهاسي، وبأننا قد إتفقنا على القدوم إلى الشاطئ معاً للاحتفال، وأن ما حدث في الفندق كان برضاها.

– وماذا قال المحققين؟

– لا شيء. لقد صدقوا ما قلته. ولم يقوموا برفع أي قضية. أما بالنسبة للفتاة، فقد طردتها من المحل بعد ادعائها علي. لا تخف يا ياسر! هذا المحامي هاربر داهية. دعنا نستمع لما يقوله، ثم احكم بنفسك.

– حسنا.

وصلنا أخيراً إلى مكتب المحامي هاربر، وهو عبارة عن مبنى كبير أحمر اللون وله مواقفه الخاصة به. نزلنا من السيارة متجهين نحو الباب الرئيسي للدخول، وإذا بشخص في أوائل الثلاثينيات ببدلة رجال الأعمال قد إتجه نحونا. ثم قام بمصافحة آدم وثم مد يده لمصافحتي، فقال له آدم:

– نحن هنا لرؤية السيد هاربر، هذا صديقي ياسر، لديه مشكلة ويريد حلاً.

نظر نحوي مبتسما فقال لي الشخص المهذب:

– لا تخف فإنك في أيدي أمينة!

علمت لاحقاً بأن هذه العبارة تقال في بادئ الأمر لجميع الأشخاص الذين يودون تعيين محامي للدفاع عنهم، وهي مقولة مشهورة عند المحاميين الأمريكيين، وأن أخينا صاحب البدلة الرسمية هو ابن المحامي هاربر، وهو أيضاً قد تخرج للتو من كلية القانون فأصبح شريك لأبيه في مكتبه. دخلنا إلى داخل المكتب، فقامت سكرتيرة المحامي بإدخالنا إلى داخل مكتب المحامي هاربر، وإذا به رجل في أواخر العقد السادس من العمر، يرتدي بنطالاً رمادياً وقميصاً أبيض اللون، وربطة عنق سوداء، مشمراً أكمام قميصه، حتى بدا لي وكأنه تجسيد لشخصية الكولونيل ساندز في روايات مطاعم دجاج الكنتاكي.

في بادئ الأمر، لم يتحدث المحامي عن موضوعي أبداً، بل دار الحوار بينه وبين صديقي آدم عن كرة القدم الأمريكية، ورحلات الصيد، وأموراً عشوائية، وقليل من الذكريات. ثم طلب آدم مني أن أشرح قضيتي للمحامي ففعلت. ثم أضفت بأن هناك حالياً شرطة تحرس المكان، وتمنع الآخرين من دخول المقهى، لأنه يُعتبر "مسرح الجريمة "، وأنهم بإنتظار مذكرة تفتيش من القاضي، ليقوموا بالدخول لجمع الأدلة الجنائية. فسألني:

– هل هناك مذكرة اعتقال لك؟

– لا. على حد علمي ووفقا لما قاله المحقيقين لي، ليس بعد!

فراح يتأمل قليلاً كما تأمل المحامي مات ويلارد من قبل، ثم قال:

– يا سيد البحري... لقد بدأت ممارسة مهنة المحاماة منذ 30 سنة، وفي خلال تلك السنين العديدة، لا أتذكر أني خسرت الكثير من القضايا. إن قضيتك ليست بالسهلة، ولكني على استعداد للدفاع عنك حتى النهاية.

فتدخل آدم قائلاً:

- يا سيد هاربر، إن النقود ليست بمشكلة. كل ما نريده هو عودة المياه لمجاريها لكي يستطيع ياسر العودة إلى أهله ودراسته وتجارته.

- مفهوم!

وأضفت قائلاً، بأني سأحاول إيجاد المبلغ المطلوب، " فكم تريد كمقدم؟ ". فأجاب هاربر:

- 50 ألف دولاراً تحت الحساب لكي أبدأ بالعمل مباشرة.

50 ألف دولار! أي ما يعادل 15 ألف دينار كويتي، ولكن ليس بوسعي أن أرفض أو أن أقول أي شئ فأنا في ورطة حقيقية، وفي بلد ليس ببلدي ماذا بوسعي أن أفعل؟ كيف عساي أن أنقذ حياتي ومستقبلي وحريتي وتجارتي وسمعتي! فقلت:

- لا بأس.

- فبمجرد أن وقعت على بعض الأوراق الرسمية، رفع المحامي هاربر سماعة الهاتف وراح يتصل بقسم الشرطة بينما ينتظر الرد. سألني:

- هل تعلم أسماء المحققين الذين قاموا بزيارتك صباح اليوم؟

- نعم...المحققة إليزابيث والمحقق باك.

- شكراً

ثم بدأ بالحديث في الهاتف:

- مرحباً، معك المحامي هاربر. هل بإمكاني التحدث مع المحققة إليزابيث أو المحقق باك ؟ ... ماذا ؟ طيب لحظة ...؟

وراح ينقل أرقام هواتف المحققين على ورقة بيضاء على مكتبه، ثم حاول الإتصال بهما ولكن دون جدوى. ثم قال:

- بما أنهم إستطاعوا الحصول على مذكرة تفتيش من القاضي، وهم الآن في المقهى يجمعون بعض الأدلة الجنائية، سوف أذهب إلى المحل للتحدث مع المحققين.

فقلت له: هل يجب علي الذهاب معك؟

- لا، ليس الآن. إنهم الآن في المحل يقومون بجمع الأدلة!

لقد وقع علي الخبر كالصاعقة، وهزني بشدة وكأني قد رُميت بالرصاص، فعلقت واحدة في حنجرتي، فلم أستطع التنفس أو حتى بلع ريقي من شدة التوتر والخوف.

فخرجنا أنا وآدم متجهين نحو السيارة، فقال آدم:

- ماذا تعتقد؟ هل أنت مرتاح له؟

- نعم... كلامه طيب !

وماذا إذن كان يتوقع مني أن أقول؟ أنا رجل غارق يحاول الإمساك بأي قشة لإنقاذ نفسه. فراح آدم مقترحاً:

- يجب علينا إستشارة محام آخر!

- ماذا تقول؟ لدي إثنان الآن!

- نعم، نعم. ولكنها مجرد استشارة.

- ومن هو؟

- هناك محامي فهلوي يُدعى ستيفن، وهو على دراية بكل الحيل والألاعيب، ويمكنه مساعدتنا! نحتاج إلى محامي فهلوي يلعب بالبيضة والحجر!

- محام آخر ذو حيل ويلعب بالبيضة والحجر!؟

تداخلت كل الأفكار في رأسي، وإشتدت حيرتى في أمري. لم نحتاج إلى كل هؤلاء المحامين وأنا لم أقترف ذنبا؟ ولكن إصرار صاحبي آدم جعلني أسلم له. أجبت، "دعنا نرى ما بحوزته إذن". فقام آدم بالاتصال في المحامي وكان الوعد بعد ساعتين في نفس اليوم وفي مطعم آدم.

(10)

خذ هذا الكلينكس كسند قبض!

إنتظرت وحيدا في داخل مخزن مطعم البيتزا، بعيداً عن أعين الناس، وعن أعين الشرطة خاصة. لقد ظننت بأن الدنيا مقلوبة رأساً على عقب بحثاً عني! كان المخزن عبارة عن 3 × 3 × 3 متراً، وفيه أرفف كثيرة معلقة على جميع الحوائط، وعليها علباً كثيرة من معجون الطماطم وصناديق البيتزا. أخذت أدخن سيجارة تلو الأخرى من دون توقف، والأفكار تذهب بي يمينا ويسارا. وأخيراً وصل المحامي ستيفن إلى المطعم، فقام آدم بإدخاله إلى غرفة المخزن. المحامي أبيضاً طويل القامة، ذوبطن كبير وشعراً أبيضاً كثيفاً، وقد بدت عليه علامات الخبث. سحب الكرسي المجاور لي ثم جلس وقال:

– مرحباً!

– أهلاً !

– معك المحامي ستيفن.

ثم نظر إلى آدم قائلاً له:

– الرجاء ادخل وأغلق الباب وراءك!

ثم نظر نحوي قائلاً:

– هل لديك مانع من حضور آدم وسماعه كل شيء؟

– كلا.

– حسناً إذن. قل لي ماذا حدث بالضبط؟

فقمت بشرح القصة من أولها إلى آخرها، ولابد أنها المرة العاشرة أقوم بشرح القصة في ذلك اليوم! دون أي تناقضات والله أعلم! فسألني المحامي ستيفن:

– قل لي رجاء بأنها ليست بأقل من عمر الثمانية عشر!

– لا، هي فوق الثامنة عشر. أنا متأكد من ذلك. فكيف إذن تعمل موظفة في الـ كافيه ان كانت دون الثمانية عشر؟ في تلك الحالة، تحتاج الى موافقة خطية من الأبوين.

– الشكر للرب على ذلك!

علمت لاحقاً بأن قوانين أمريكا لا تسمح لك بمعاشرة أي فتاة دون سن الثامنة عشرة، وسوف تعاقب لذلك وإن كانت المعاشرة قد تتمت برضاها! فمسألة "الرضا" بينك وبين بنت السابعة عشر، على سبيل المثال، ليس بعذراً تقبله المحاكم الأمريكية، لأنها تُعد قاصر لا تملك إتخاذ

القرار إلا بموافقة والديها. أما إذا كانت تبلغ من العمر ثمانية عشراً ويوماً، فهي بذلك تملك حريتها في الممارسة الجنسية، دون موافقة أبويها. لذلك فإن مسألة الرضا تعد ذات أهمية قصوى في الموضوع، وإن لم يكن هناك قبول ورضا، تُعتبر المعاشرة اغتصاباً، حتى وإن لم يكن هناك إكراه أو قوة. فيكفيها القول: "لم أرض!"، وأنت تروح بشربة مية!

قال آدم للمحامي ستيفن بأن لدي محاميان إثنان هما السيد هاربر وآخر يدعى مات ويلارد، صغير في السن نوعاً ما. فقال أنه يحترم كلاهما ولكنه سيفعل ما لا يستطيع الاثنان فعله. فهدفه سيكون إسقاط القضية قبل أن تصل إلى المحاكم، وإنهاء المشكلة بأي طريقة كانت، وبأي ثمن، وذلك من واقع خبرته وحنكته ودهائه في هذا المجال. فقلت له:

– حسناً جداً، وهذا ما أتمناه أن ينتهي كل شئ دون قضايا ومحاكم.

فقال ستيفن:

– حسناً، أعطني 50 ألفاً تحت الحساب، لكي أباشر العمل الآن وأقوم بإتصالاتي.

فسألني آدم:

– هل بحوزتك هذا المبلغ الآن؟

– جزءاً منه.

فقال آدم أنه سوف يتكفل بدفع الباقي نقداً في الحال. فقال المحامي بعد أخذ المبلغ بأكمله: "خذ هذا الكلينكس كسند قبض". فراح بشخبطة إسمه والمبلغ كتابة على ورقة الكلينكس، "هذه ورقة سند قبض تشهد بأن المحامي ستيفن قد قبض مبلغ وقدره 50 ألف دولاراً نقداً من السيد ياسر البحري في تاريخه كعربوناً للدفاع عنه". ثم قال:

– هذا هو العقد بيني وبينك.

ثم توجه نحو آدم قائلاً:

– ما هو العشاء؟

– ما لذ وطاب يا سيد ستيفن!

– حسناً. دعني أجرب الدجاج الفاداتشيني ألفريدو!

– حسناً!

ثم التفت نحوي المحامي ستيفن بينما يقوم بإجراء مكالمة على هاتفه النقال لفريقه من المخبرين والمحققين الخاصين قائلاً:

– هذا أفضل مطعم إيطالي في تالاهاسي؛ يجب عليك تذوق دجاج البارماجان!

أخذ المحامي يتحدث عن أصناف الطعام، وبدأت معدتي تؤلمني بشدة، وشعرت بتقلصات شديدة وكأنني تحت العلاج الكيماوي. لا أريد الطعام! كل ما أريده هو التخلص من هذه القضية، وكل ما أرادته أعصابي هو السجائر والنيكوتين والكثير منه. أما رئتاي، فكم أرأف لحالهما، فهما لم تتنفسا هواءً نقياً منذ فترة طويلة، ولم تتلقيا سوى الدخان، ثم الدخان، ثم المزيد منه.

ولكن لم كل هؤلاء المحامين؟ وما غرض آدم من وراء تعيين هذين الإثنين؟ لقد ظننت في بادئ الأمر بأن آدم قد فقد عقله، ولكن بعد التفكير القليل، توصلت إلى عبقريته فاكتشفتها. فبينما يقوم المحامي هاربر بدراسة قضيتي من الناحية القانونية ويعمل اللازم للإعداد لها، يقوم المحامي ستيفن، ذلك الفهلوي اللاعب بالبيضة والحجر، بمحاولة اسقاطها تماماً قبل وصولها إلى المحاكم عن طريق التحدث للمشتكية ومحاولة إغرائها بالنقود للتنازل. وإذا لم تقبل بالنقود، لربما كانت هناك فضائح يمكن جمعها وإستعمالها ضدها، وإبتزازها لإرغامها للتنازل! ليست بالفكرة السيئة على الإطلاق على الرغم من التكاليف، فها أنا قد دفعت فوق الـ 100 ألف دولاراً في خلال ساعات فقط! بدأ المحامي ستيفن عمله وطلب مني الحضور إلى مكتبه غدا لإطلاعي على آخر الأخبار. أما الآن فيجب علي الإختباء في بيت أختي، والتواري بعيداً عن أنظار الناس. ففعلت.

(11)

المحققة إليزابيث

بينما كنت "أتسوق" باحثا ًعن المحامين من مكتب إلى آخر، إستطاع المحققين أخيراً الحصول على مذكرة للتفتيش وجمع الأدلة من المقهى. دخل فريق جامعي الأدلة الجنائية الـ كافيه وقاموا بمنع الموظفين والزبائن من الدخول لكي لا يقوموا بالتدخل وعرقلة سير العمل. فوقفت مديرة المحل توفا في خارج القهوة، ترقب مايحدث عن كثب وعيونها تذرف الدمع. كانت توفا تبلغ عشرون عاما من العمر حينئذ، وهي حسناء بيضاء البشرة ذات شعر أسود طويل، من مواليد ولاية وسكانسن. وبعد مرورها بأزمات كثيرة في تلك الولاية—على الرغم من صغر سنها— قرر والدها الإنتقال إلى ولاية فلوريدا لتبدأ حياة جديدة. وفي أحد الأيام قام والدها بإصطحابها إلى كافيه شيشة للترفيه.

كان كلاهما جالس على الكراسي الطويلة إلى جانب الكاونتر، وبينما كنت أقوم بمساعدة الموظفين في إعداد الأراجيل خلف الكاونتر، سألني والدها أن أوفر لإبنته وظيفة، فوافقت على توظيفها في المقهى، وبعد موافقتي قال لي أنه من مواليد العراق من بغداد. فقلت له، "أنتم أبناء العمومة فالعراق والكويت أهل وعفى الله عما سلف". فقال ضاحكا، "أنا يهودي!". فقلت مبتسماً: وأنتم أيضاً أبناء العمومة! فأب العرب إسماعيل، وأب اليهود إسحاق عليهما السلام... كانا أخوين. ومنذ ذلك اليوم عملت توفا لدي كمديرة للمقهى، وكانت مثالا للأمانة والإخلاص والجد والتفاني. وكان من ضمن مهامها مقابلة الفتيات الراغبات بالعمل، وإختيار الجديرات بالعمل منهن.

بينما كانت توفا تقف في خارج المقهى تنظر عن قرب لمجريات الأحداث، لاحظت المحققة إليزابيث وجودها فسألتها عن سبب تواجدها في المقهى، فأجابت توفا بأنها مديرة المحل، وأن من مهامها الوظيفية التواجد حتى الإنتهاء لكي تتمكن من تنظيف المكان وفتحه للزبائن بعد أن يفرغ المحققين. فقالت لها المحققة:

– إن رئيسك مغتصب وسوف يذهب إلى السجن عما قريب.

وراحت تقترح عليها أن تبحث عن وظيفة أخرى، لأنهم سوف يغلقون المحل للأبد! فقالت لها توفا مدافعة:

– ياسر رجل طيب، وهو أفضل رئيس لي في حياتي، مؤكد أن في الأمر خطأ ما. لابد أن إحداهن قامت بإستغلال طيبته والإيقاع به، ولكن كما كنت معه في السراء، فسأكون معه في الضراء!

لم يعجب المحققة ما قالته توفا. وبعد قليل وصل المحامي هاربر إلى المقهى، فحاول التحدث لبعض المحققين الموجودين بالمكان، ولكنهم رفضوا قائلين له أنه يجب عليه التحدث للمحققة إليزابيث شخصيا. وعندما عثر عليها سألها، "ألديكم مذكرة تفتيش؟"

المحققة إليزابيث:

- ومن أنت؟

- معك المحامي هاربر.

- أعلم من أنت ولكن ما هو موقعك من الإعراب هنا؟

- أنا محامي السيد ياسر البحري.

ثم ضحكت قائلة:

- وكم محامي لدى هذا الشاب؟ اثنان؟ أربعة؟ خمسة؟

وراحت مضيفة بأنه قد قام أحد المحامين الآخرين بالاتصال بها منذ قليل:

- لابد وأن موكلك مذنب يا سيد هاربر! فلم كل هؤلاء المحامين؟

- وهل لديكم مذكرة إعتقال بإسم موكلي؟

- لا، ليس بعد! ولكنا نود التحدث معه قريباً.

فشرح لها المحامي بأني رهن الإشارة ومستعد لتسليم نفسي إذا طلب مني ذلك:

- نحن على استعداد لتسليم ياسر نفسه إلى قسم الشرطة إذا كانت هناك مذكرة اعتقال في حقه، فهو لا ينوي الهرب بل ينوي مواجهة تلك الادعاءات الكاذبة في حقه.

عادة ما يقول المحامين كلاماً كهذا، لكي يسهل على موكلهم دفع الكفالة المالية والخروج من الحجز بعد إلقاء القبض عليه، فأجابت المحققة:

- لا بأس، ولكن في الوقت الحالي فقط نود التحدث معه لمعرفة ما حدث ولكن ليس هناك مذكرة إعتقال في حقة.

لم تنتهي تلك الليلة المشئومة قبل أن تزداد سوءاً وتعقيداً، فقد قام أحد المحققين بالإتصال بالقناة التلفزيونية المحلية لتذيع خبر "الإغتصاب". لقد كانت فكرة المحققة إليزابيث، وغرضها من ذلك إثارة الرأي العام في تلك المدينة الصغيرة ضد العبد لله الفقير! وفعلاً من خلال البرنامج الإخباري للقنوات المحلية، وضعت صورة لي وصورة لواجهة المقهى مع إذاعة الخبر على النحو التالي:

"صاحب محل تجاري، "كافيه شيشة"، مطلوب للعدالة، ومتهم بالإعتداء الجنسي على أحد زبائنه، وذلك بعد وضعه الحبوب المخدرة في شرابها. تقول الشرطة بأنه لربما تلك الفتاة ليست بالضحية الوحيدة لهذا المغتصب، ويُدعى ياسر البحري، وهو من الشرق الأوسط، ويُعتقد بأنه مسلح وخطر، لذلك وجب الحذر". (إنتهى الخبر)

وبالفعل، نجح المحققون في تشويه سمعتي، وسمعة المحل أيضاً في جميع أنحاء المنطقة، فها أنا "مذنب" قبل أن تتم محاكمتي، وقبل أن تثبت إدانتي. فأين ما يردد دائما على ألسن القانونيين وساسة أمريكا وإعلامييهم: "المتهم بريء حتى تثبت إدانته"! اكتشفت متأخرا أنها مجرد شعارات "صنع في هوليوود" وترهات خاصة وإذا كان في الموضوع عربي ومسلم! ولكن كانت هناك ميزة واحدة لذلك الخبر المسموم: ففي اليوم التالي بعد نشر الخبر مباشرة، إزدحم المحل إزدحاما لا مثيل له، فكانت الزبائن تقف خارج المحل منتظرين دورهم في الدخول، أما بالنسبة إلى أرباح ذلك اليوم والأيام التي تلته فلقد تضاعفت ما يقارب العشرة أضعاف، والفضل كل الفضل يعود إلى ذلك الخبر التلفازي الذي أذيع، وفضول الأمريكين بالطبع!

إخلـــع!

إختبأت مؤقتا في منزل أختي أميرة، وراح الجميع في سبات عميق ما عداي. فقد ظللت مستيقظا أفكر في مصيبتي. وأخيرا، إتصل بي آدم الألباني ليخبرني بأنه تم الاتفاق بين المحاميين هاربر وستيفن للإجتماع كي يتباحثا بأمور القضية، ويتفقا فيما بينهما على تحديد مهام كل منهما، وبالتالي تقسيم وتنسيق المهمات! ظاهر الكلام جميل ولكنه في الواقع يخفي رغبة مسعورة من قبل المحاميين في تقسيمي أنا شخصيا. فأنا بالنسبة لهما تلك الكعكة الكبيرة التي لا "تُطوف". فسألته، "حسناً! ولكن وماذا عن المحامي مات ويلارد؟"

قال لي آدم أنه لا حاجة لنا به لأنه صغير، وليست لديه الخبرة الكافية، وبأني الآن محاط بفطاحلة القانون. كان آدم مؤمنا بالفعل بالمحاميين، ولم يدرك وقتها أن ما أراداه حقا هذان الفطحلان هو تقسيم تلك الكيكة بالنصف، وهذا ما وقع بالضبط، وهي لعبة تسمى بأمريكا، "لعبة قطع الأعناق!" حيث يقوم كل من المحامين بقطع رزق المحامي الآخر! حتى يتفرد بالأتعاب. ولكني رفضت ما قاله آدم جملة وتفصيلا، وأصريت على موقفي، فقد دفعت المال لمات ويلارد، لذلك يجب إشراكه في فريق المحامين للدفاع عني. تردد المحاميان كثيراً في قبول الفكرة في بادئ الأمر، إلا أنهم وافقا أخيراً على إشراكه في الأمر.

وفي اليوم التالي لتلك الليلة المشئومة، عند الساعة السادسة مساءً، دخلنا أنا وطارق زوج أختي في مكتب المحامي ستيفن، الواقع على شارع مونرو ليس بعيداً عن وسط البلد. وكانت هناك صورة كبيرة لجد المحامي ستيفن—وهو قاضي سابق واسع الشهرة في منطقة تالاهاسي—معلقة على الحائط الرئيسي خلف مكتبه، وقد عُلق إلى جانبها صوراً أصغر حجماً تمثل الميزان الأمريكي الذي يدل على العدل، وتمثال الحرية، وأيضاً تلك المرأة المعصوبة العينين "إشارة إلى العدالة العمياء، التي لاتفرق بين الناس بناء على العرق، أو اللون أوالجنس"، وكلمات أخرى مثل "الحرية، والعدل والمساواة للجميع"، وهي بالنهاية كلمات... مجرد كلمات لا فائدة منها سوى تزيين الحائط! لقد كان المحاميان ستيفن وهاربر في إنتظارنا هناك، وبصحبة آدم، وكذلك المحامي مات ويلارد الذي كان متواجدا بالطبع، وبصحبته رجل آخر لم أتعرف عليه عند بدء الإجتماع، ثم عرفت لاحقاً أنه السيد هستلر مخبراً خاصاً تحت الأجرة.

بدأ الاجتماع، وإحتدم النقاش، وأدلى كل محام منهم بدلوه ماعدا المحامي الشاب مات ويلارد، الذي بدا في الاجتماع وكأنه أطرش في الزفة! فقد تعمد المحامي ستيفن والمحامي هاربر تهميشه، فلم يشركوه الحديث، ولم يُؤخذ رأيه في أي سؤال، ولم تُعطى له الفرصة للمشاركة أصلا في الحديث! وإنتهى الإجتماع ولم توكل إليه أية مهمة! فبدى عليه الشعور بالضيق والإحراج، وفي منتصف الاجتماع، قام آدم فقال لطارق زوج أختي، "قولوا له إخلع! " فهو ليس له أي موقع من الإعراب. وفعلا، قال طارق زوج أختي للمحامي مات ويلارد، "إخلع! " ولكن بشكل لطيف طبعاً. فخلع المحامي مات ويلارد وقد أدرك بأن المحامين الآخرين ستيفن وهاربر قد قاما

بالتآمر عليه للاستيلاء على هذا الزبون العربي، معتقدين بأنهما أمام بئر نفطي متحرك! ثم ختم الاجتماع بالاتفاق على ما يلي:

1- أن يقوم المحامي هاربر بدراسة القضية من الناحية القانونية، والتواصل مع الشرطة والمحققين محاولاً كسب الوقت.

2- أن يبعث المحامي ستيفن مخبره الخاص إلى المدعية ميمي، محاولين التفاهم معها لربما تقوم بالتنازل عن القضية.

3- أن أقوم بالذهاب إلى عيادة تحليل وفحص خاص يمتلكها صاحب المحامي ستيفن لعمل التحاليل اللازمة، لإثبات خلوي من الأمراض الخطيرة المعدية، مثل الإيدز، وغيره من الأمراض التناسلية، وعدم إدماني على الهيروين!

ثم قال لي المحامي ستيفن: "لا تخف يا سيد ياسر البحري. لن أدعك تدفع الكثير من المال لهذه المشتكية؛ لن أدعك تدفع أكثر مما يدفعه عادة سود كوينزي (مشيراً إلى منطقة كوينزي، المنطقة الريفية الفقيرة المليئة بالسود الفقراء). علمت لاحقاً بأنه كان هناك إتفاقاً بين المحامي ستيفن وصديقه الدكتور صاحب عيادة التحاليل والفحوصات لمصلحة الطرفين، حيث يقوم موكلي المحامي ستيفن بدفع تكاليف باهظة للتحاليل تصل إلى 3000 آلاف دولاراً للتحليل الواحد (والذي يكلف فعليا 300 دولار فقط في العيادات الأخرى!) وفي المقابل تقوم العيادة بإخفاء أو حتى تغيير أي نتيجة غير مرغوب بها: مثل إحتوائها على الأمراض الجنسية، أو المخدرات، أو حتى نسبة الكحول بالدم!

ولعل مادفع المحامي ستيفن لعمل ذلك هو إعتياده على الدفاع عن المشبوهين المتورطين والمذنبين، وأنه لم يؤمن ببراءتي أصلا وأنه كان يعتقد بأنني قمت بالفعل بإغتصاب تلك الفتاة. فلم إذن يبعثني إلى تلك العيادة المشبوهة، والتى غرضها تغيير النتائج؟ حقا أنا لم أكن بحاجة لمثل تلك العيادات المشبوهة، فلست مصاباً بأي مرض، والأهم من ذلك أنا لم أقم بمعاشرة تلك الفتاة أصلا! وفعلاً ظهرت النتيجة:

- فقد كنت خال من الأمراض المعدية.

- وجود شوائب مادة تُدعى "الروفي"، "أروفينال" في دمي.

وما تلك المادة يا ترى؟ هذا ما كنت لا أعرفه، وتلك كانت الصدمة الكبيرة التي لم يتوقعها أحداً البتة وخصوصا أنا. لقد وُجد في دمي شوائب مادة اسمها الـ "روفي " أو "أروفينال "، وهي مادة تصنع منها الحبوب المخدرة! وهي المادة المفضلة لدى المجرمين، والتى يستعملونها عادة لتخدير ضحاياهم وتنويمهم قبل الإعتداء عليهم أو سرقتهم! حديثا، يقوم بعض طلبة الجامعات الشباب بوضع تلك الحبة في مشروب الآنسة الزميلة بينما في الحفلات الليلية، عادة مخلوط في كأس الخمرة، ليسهل النوم معها دون إعتراض. تسمى تلك الفعلة الشنيعة بـ Spike the drink. ويطلق على الحدث بـ Date Rape.

ولكن كيف وصلت هذه المادة إلى جسدي أنا؟ معضلة لم تُفك طلاسمها إلا بعد فوات الأوان!

(13)

بيت وسيارة، وسفر والتبرع بالباقي!

وفقاً للإتفاق الذي توصل إليه المحاميان، يقوم المحامي ستيفن بإرسال مخبرين ومحققين خاصين للقاء المدعية ميمي، ومحاولة إقناعها بالتنازل عن القضية. وقد قام المحامي بإرسال محققان تحت الأجرة. هما المحقق هستلر والمحققة مونيكا (زوجة شرطي متقاعد). واتجه المحققان المأجوران تجاه مسكن طلبة الجامعة لعلهم يتمكنون من الحديث مع المدعية ميمي وإقناعها. تسكن ميمي في مساكن الجامعة وهي مساكن معدة للطلبة من الجنسين، وبعد ساعات من الإنتظار، إستطاع المخبران أخيراً من رؤية ميمي. بينما تنزل من المبنى، نادتها المحققة الخاصة مونيكا:

– آنسة ميمي؟

– نعم.

– مرحباً. أنا اسمي مونيكا وهذا زميلي هستلر

– أوكي!

– نحن نعمل لدى المحامي ستيفن، محامي السيد ياسر رئيسك في العمل.

– رئيسي السابق تقصدين! فإني لا أعمل لديه بعد ذلك اليوم.

– لا بأس. ولكن هل من الممكن التحدث معك عن تلك الليلة؟

وقبل أن تفتح ميمي فمها، أضافت المحققة مونيكا معقبة:

– أود إخبارك بأنك لست ملزمة للتحدث معنا، فنحن نتفهم ونقدر.

وهذه جملة عادة تقال من قبل المخبرين الخاصين والمحاميين لكي لا يقعوا في أي مشاكل قانونية، كالضغط على المشتكية أو إبتزازها. فأجابت ميمي:

– في الواقع، لقد حذرتني المحققة إليزابيث عن التحدث عن ذلك اليوم مع أي شخص، وخاصة أناس من طرف ياسر البحري.

– مفهوم!

– ولكن لا بأس. يمكنكم التحدث معي.

فطلبت المحققة مونيكا من ميمي الجلوس معهما على كراسي الإنتظار الخارجية التابعة لسكن الطلاب. ومن دون علم ميمي، قامت المحققة بتسجيل الحوار بأكمله على شريط كاسيت

عن طريق مسجلة صغيرة، كانت قد وضعتها في جيب قميصها الأعلى، ثم قام المحقق هستلر بفتح مفكرته لتدوين النقاط المهمة. فبدأت المحققة مونيكا بالسؤال:

– هل يمكنك إخباري ما اسمك؟ ومن أين أنت؟

– إسمي ميمي وأنا من ولاية كارولاينا الشمالية.

– وما هو تخصصك؟

– بيولوجيا.

– عظيم! لدينا عامل مشترك إذن (محاولة تلطيف الأجواء) ثم سألتها:

– هل يمكنك أن تقولي لي ماذا حصل في تلك الليلة؟

راحت ميمي تسرد قصة تختلف جملة وتفصيلا عماحدث فعلاً في تلك الليلة، على سبيل المثال، قامت بالإدعاء بأني قد أرغمتها على شرب الخمرة متعمداً حتى الثملان ليسهل عليّ الاعتداء عليها؟ وأني قمت بمعاشرتها عنوة بينما كانت هي نائمة أو فاقدة للوعي! فسألتها المحققة مونيكاً:

– وهل تمت المعاشرة ؟

– أعتقد... لا أتذكر تماماً لأني كنت فاقدة الوعي في معظم الوقت، أصحى تارة وأغيب عن الوعي تارة أخرى.

– فكيف عرفت إذن بأنه قام باغتصابك؟

فلم تجب الفتاة، فتدخل المحقق هستلر محاولاً اللعب بعواطف الفتاة أو حتى إغرائها لقبول بعض المال. فقال:

– يا ابنتي! وهل يعقل أن يذهب ياسر البحري إلى السجن لثلاثين عام لأجل شيء أنت غير متأكدة منه؟

– لا، لا أريد له الذهاب إلى السجن لثلاثين عام ولكنني ... "

المحقق هستلر(مقاطعا): ولكن ماذا؟

فراحت المحققة مونيكا تلطف الأجواء قائلة: "أظن أن صديقي وزميلي هنا يقصد بأن ياسر البحري رجل متزوج وله أبناء، ومرشح للدكتوراه وعلى وشك التخرج، ولديه محلات تجارية عديدة، فلم لا تتنازلي عن القضية وينتهي كل شيء".

فأخذ المحقق هستلر بتقديم عرضا غاية في الغباء، مما زاد الأمور تعقيداً وجعلني أظهر بمظهر المذنب الذي يتخبط في أفعاله، وذلك عندما قال لها: إن لدى ياسر البحري الإستعداد

لتعويضك لكي تبدئي حياتك من جديد معززة مكرمة!

ميمي: حقاً؟

المحقق هستلر: "نعم، حقاً! ما هي أحلامك على فكرة؟ ألا تودين سيارة جديدة ونقوداً في البنك؟

ميمي: بالطبع!

وهنا بدأت ميمي مسايرة المحقق هستلر لرؤية ما يلوح إليه فقالت له:

– طبعاً! ومن لا يريد ذلك؟ وفي الواقع أكثر من ذلك مثل سيارة، بيتا، وحساباً في البنك, وسفر، والتبرع بما تبقى!

فقال لها هستلر مستغرباً لما قالته: وكم من المال تودين؟

ميمي: مليوناً أو اثنين ما رأيك؟ هل ذلك بكاف؟

من أنا حتى تطلب مني ميمي أن أعوضها بكل تلك المبالغ ؟ كوبي براين، لاعب كرة السلة الأمريكي أم مايكل جاكسون؟ أو حتى مايك تايسون الملاكم الأسود؟ فجميعهم قد دفعوا التعويضات للمشتكين للتنازل عن القضايا. فراح المحقق هستلر يفقد أعصابه وأخذ يصرخ بوجهها مهدداً:

– ألا تعلمين بأن ياسر البحري ليس بأمريكي، وأنه من الشرق الأوسط وأنه في أمريكا فقط للدراسة وعند الإنتهاء سوف يعود إلى وطنه؟ ألا تعلمين أنه يمكنه السفر إلى وطنه اليوم فلن تأخذي لاحق ولا باطل منه؟ نصيحتي لك هي إذن يا آنسة هو أن تأخذي العشرة أو العشرين ألفاً لتتنازلي عن القضية!

فقالت ميمي: دعني أفكر بالأمر.

لعمرك! قد كلفني كلام ذلك المحقق المعتوه حياتي كلها وما فيها. أنا شخصياً لم أتفوه بتلك الخطط ولم تكن هي فكرتي أصلاً، ولم أخوله لتقديم ذلك العرض. حقاً! إن ما تفوه به ذلك الأخرق قد غير مسار القضية إلى الأسوء، وما قام به عمل كله خسة ودناءة ما زلت أعاني من تبعاته إلى يومنا هذا. والغريب في الموضوع أنه تقاضى بسبب ترهاته 10 آلاف دولار أتعاب عن عبقريته وإنجازاته وحسن صنيعه في ذلك اليوم! يا له من أحمق!

(14)

يا غافل، لك الله!

وبعد الانتهاء مباشرة من الحديث مع المحققين الخاصين المعينين من قبل المحامي ستيفن، قامت الشابة ميمي بالاتصال بالمحققة إليزابيث وإخبارها بالعرض الغبي الذي قدمه المحقق لها، محذرة إياها من احتمال هروبي من الولايات المتحدة. إلى تلك اللحظة، لم يكن هناك مذكرة إعتقال صادرة بحقي. لم يكن هناك سوى شكوك وزعم، ولم تكن هناك قضية أو محكمة والسبب هو عدم وجود أي أدلة لدى المحققين لإقناع القاضي بأني قد اخترقت القوانين الجنائية، فهم بحاجة إلى شيئاً أكثر من مجرد "فلان قال ..." و "فلانة قالت .... "

في الواقع أن ما بحوزتهم حتى الآن هو مجرد إدعاء مكتوب بخط اليد، أما بالنسبة إلى العينات التى تم أخذها في المستشفى بعد ساعات من تلك الليلة المزعومة، مثل الأحماض النووية والشعر المأخوذ من أماكن متفرقة من جسدها، فسوف تستغرق فحصها ثلاثة شهور في مختبرات الولاية قبل أن تعود النتيجة إلى المحققين. أما بالنسبة إلى العينات التي تم جمعها من المقهى، "مسرح الجريمة"، مثل زجاجات وكؤوس الخمر، فهي كذلك تحتاج لثلاثة شهور للفحص ومعرفة النتيجة. ولكن ما تقدم به المحقق هستلر من عرض إتسم بالحماقة والغباء أدانني بشكل كبير وبهذا يكون قدم للشرطة ما يودونه على طبق من ذهب، وأصبحت لديهم حجة قويه لضرورة إصدار مذكرة اعتقال بحقي خوفاً من هروبي من الولايات المتحدة الأمريكية:

"يا حضرة القاضي، ينوي المتهم الهروب من البلد والعودة إلى وطنه! وهذا أكبر دليل على أنه مذنب فلم الهرب إذن! وبناء عليه يجب إعتقال المتهم لحين وصول نتيجة العينات والقانون يأخذ مجراه".

بناء عليه قام القاضي بإصدار ما يلي:

أولاً : إصدار مذكرة اعتقال بحق المتهم ياسر البحري .

ثانياً : إصدار منع سفر في حالة محاولة المتهم الهروب فلا يستطيع.

بينما يقوم المحققين بالتخطيط والتدبير لانهاء حياتي تماما من خلال إحتجازي وراء القضبان الحديدية لسنين عديدة، كنت مختبئا في بيت أختي منتظراً الفرج أو بالأحرى معجزة إلهية لإنقاذي مما أنا فيه، فقد شعرت حينها بأنه قد تآلب علي الذئاب. وفجأة إتصل بي المحامي هاربر طالباً مقابلتي في الحال بسبب وجود بعض التطورات الجديدة في الموضوع، قائلا:

– أخبارا سيئة للغاية، لقد عقد المحقق هستلر موظف المحامي ستيفن الأمور للدرجة القصوى.

فسألته عن الحل. فأجاب:

– التخلص منه ومن رئيسه المحامي ستيفن نفسه. اسمع يا البحري، إن المحامي ستيفن محامي ممتاز ولكن أسلوبه في العمل لا ينفع قضايا كهذه، وإن محاولته لإرسال مخبرين خاصين

للضغط على المدعية كان خطأ فادحا سوف يكلفك الكثير؛ يا ياسر، هذه حياتك وليست بفيلم هوليوود.

– وماذا ترى؟

– أرى أنه قد حان الوقت لأخذ الأمور بجدية أكبر، والتخلص من المحامي ستيفن لكي نستطيع التركيز على القضية ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

لقد نطق المحامي هاربر بكلمة الحق، ولكنه للأسف الشديد حق أُريد به باطل. لم يكن فعلا همه مصلحتي، بقدر رغبته العارمة للإستفراد بالكعكة، وعدم رغبته بمشاركة هذه الكعكة مع أحد! بالعربي الفصيح أراد "التكويش" على كل شيء. لقد إستحوذ هاربر على بئر النفط بأكمله! لقد إستطاع المحامي هاربر إقناعنا لنقول للمحامي ستيفن "إخلع!" هو الآخر، كما قد اقنعنا من قبل لقولها للمحامي مات ويلارد!

اتصل المحامي هاربر بالمحققة اليزابيث محاولاً إنقاذ الموضوع، موضحا أنه لم يكن لدي علم مسبق بالعرض الذي قدمه المخبرين على الفتاة، وأنه فور علمي بما حصل غضبت من المحامي ستيفن "صاحب الفكرة" واستغنيت عن خدماته هو ومخبريه اللذين قاما بابتزاز الفتاة، ثم جدد لها العهد بأني على أتم الاستعداد للحضور إلى قسم الشرطة لتسليم نفسي في حالة وجود مذكرة إلقاء قبض. ولكن على الرغم من حصول المحققة اللئيمة على مذكرة إعتقال بحقي، إلا أنها تعمدت إخفاء المعلومة عن محاميي، وأدخلت النسخة المتواجدة بحوزتها إلى داخل درج المكتب، خوفا من رؤية المحامي المذكرة! انتبه المحامي هاربر لوجود شئ ما تخفيه المحققة، فقال لي مطمئنا:

– أنا أشعر بالريبة من المحققة إليزابيث وأن هناك ما تخفيه عني، ولكن لا تخف إن حصل شئ، فسوف ندفع الكفالة المالية لإخراجك من السجن على ذمة التحقيق بينما تأخذ العدالة مجراها.

(15)

ليلة القبض على ياسر

في اليوم الرابع بعد حدوث الطامة الكبرى، حط أخي عبدالله في مطار تالاهاسي، فذهب طارق زوج أختي لاستقباله. جلسنا جميعا في شقة أختي لفترة، ثم قررت التوجه أنا وأخي عبدالله إلى بيتي للنوم هناك والسبب هو صغر حجم شقة أختي وأنه لا داعي للإستخباء. على الرغم من فرق السن بيني وبين عبدالله، إلا أننا لم نكن مجرد أخوة، بل أصدقاء مقربين، فهو يشبهني في الملامح لحد كبير مما جعلنا نبدو كتوأمين، كما أن اهتماماتنا متقاربة بشكل كبير، فكلانا قد تخرج من الجامعة نفسها، والكلية نفسها، بل والتخصص ذاته (الفلسفة)! وكلانا يحب الموسيقى والعزف على العود وكلانا يستمع للأغاني ذاتها!

ورؤيتي لأخي عبدالله بمثابة البلسم والدواء لكل جروحي النفسية التي سببتها لي الفتاة ميمي بإدعاءاتها وأكاذيبها، إلا أنني على الرغم من ذلك أُصبت بإعياء شديد، وأصبحت طريح الفراش، لا أقوى على الكلام أو حتى الأكل، ولا أريد سوى التدخين وسماع سورة "يس". فوالله لقد كانت هذه السورة الكريمة طب قلبي ودواءه... ولكن رُفعت الأقلام وجفت الصحف! فقال لي عبدالله مواسيًا: لم الإختباء؟ ولم الإنزواء؟ ولم ترهق تفكيرك كثيرا بما سيحصل؟ لابد لك أن تعيش حياتك بشكل طبيعي بعيدا عن التشاؤم، وإن أرادت الشرطة القبض عليك فسوف يقبضون عليك لا محاله! حاول عبدالله اقناعي بأنها مجرد سحابة صيف وسوف تزول:

- لا تخف يا ياسر.. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

- صحيح يا أخي! لكني والله لا أستطيع من كثرة الخوف والقلق.

- لم لا تشغل نفسك بأي شيء آخر وتنسى هذا الموضوع تماما. تفاءلوا بالخير تجدوه، وأضاف محاولاً مساعدتي فقد رثى لحالي وأوجعت قلبه:

- ماذا عن الأطروحة....رسالة الدكتوراه؟

- لقد بعثت برسالة إلكترونية إلى مرشدي طالباً منه التأجيل لـ "ظروف خاصة!"

- لا بأس، ولكن يجب نسيان تلك المشكلة والبدء بالتفكير برسالة الدكتوراه فلم يتبقى إلا القليل! فتوكل على الله، و من توكل على الله ما خاب.

- ونعم بالله !

ولكني ما زلت طريح الفراش كالخرقة البالية، ولا حول لي ولا قوة ولا أريد سوى التخلص من تلك القضية، فقال عبدالله مقترحاً:

- دعنا نذهب إلى المقهى! لم لا ؟ فإن أرادك الأمريكيون، سوف يخرجونك ولو كنت مختبئاً في جحر. أنظر ما فعلوا بصدام حسين (محاولاً مداعبتي) .

وبعد محاولات عديدة من قبل عبدالله، قررت الإستحمام وحلق وجهي، ولبس أحسن الملابس، محاولاً نفض جسدي من تلك المخاوف. ركبنا السيارة فقادها عبدالله متجهين نحو المقهى. عجباً! لقد كان الجو رائعاً ذلك اليوم، السماء صافية والشمس ساطعة والطيور تغرد وجميع إشارات المرور خضراء تسمح بالمرور، فكانت الأمور مبشرة بالخير وكأن شيئا لم يكن، فاعتلت وجهي ابتسامة، فقال عبدالله مبتسماً هو الآخر:

- تفاءل بالخير تجده إنشاء الله!

- إن شاء الله.

فوصلت إلى المحل وكان مزدحماً جداً من الزبائن فلقد كان يوم السبت، عطلة نهاية الأسبوع، ففرحت فرحاً شديداً لازدحامه محدثاً نفسي، "لعلي بالغت بالموضوع قليلاً، فأعطيته أكبر من حجمه". فلم الخوف أصلاً وأنا لم أفعل شيئاً يعاقب عليه القانون؟ عندما رآني موظفوا وموظفات المحل قادما، علت وجوههم الفرحة فراحوا يزعقون:

- أهلا أهلاً .. إنه ياسر!

حقاً إن شوقهم لي قد أدخل الفرحة إلى قلبي وجعلني أتيقن من حبهم لي. قال أحدهم، "سوف أعمل لك قهوتك المفضلة!"؛ وقالت الأخرى، "نحن نفتقدك كثيراً يا ياسر" . فأجبت، "وأنا كذلك". فقال لي عبدالله، "لا تخف يا ياسر إن الله معنا! لن يهينك الله، فإنك محبوب، فلديك الكثير من الأهل والأصدقاء، وحتى من الموظفين الأمريكيين!"

- الحمد لله

جلسنا على طرف الكاونتر أنا وعبدالله نتبادل أطراف الحديث ونشرب القهوة التركية، قهوتنا المفضلة، وطبعاً ندخن السجائر، وكنا ننظر إلى منظر الشوارع والطرقات الجميلة في الخارج. وبينما نحن جالسين على الكاونتر، شعرت بالهدوء والسلام يتسللان إلى داخلي، ياله من شعور نفسي جميل أنساني تماما كل ما من شأنه أن يكدر خاطري، حتى دقت الساعة السابعة وحل الظلام شيئاً فشيئا. وفجأة، إنقلب المنظر بالكامل وتبدلت الأحوال! وإمتلأ المكان بسيارات الشرطة، وقامت القوات الخاصة بالالتفاف حول مبنى المقهى استعداداً لإقتحامه، وملأت الأضواء الزرقاء والحمراء الخاصة بسيارات الشرطة الآفاق، محولة الليل إلى نهار من شدة الإضاءات! هل لك أن تتخيل العشرات من سيارات الشرطة بأضوائها وصفاراتها المزعجة، وسيارات الإسعاف، وحتى عربات الإطفاء تأتي دفعة واحدة، وفي توقيت زمني واحد من أجل إقتحام المقهى والقبض علي؟!

قررت أن أنهي الموضوع فلم يكن أمامي خيار آخر: لا بد أن أسلم نفسي للشرطة حقنا للدماء فلم يكن هناك داعي للاقتحام أو إطلاق نار قد يصاب فيها بريئا، فقلت لأخي عبدالله بينما أقوم بإخراج إغراضي مثل الهاتف ومفاتيح السيارة والسجائر والولاعة:

- عبدالله... هذا ما كنت أخشاه!

فقال عبدالله متعجبا:

– كل تلك الأعداد من سيارات الشرطة، وسيارات الإسعاف والإطفاء، أتت هنا من أجلك ؟ لماذا؟ من أنت؟ أسامة بن لادن؟

فقلت له:

– دعني أخرج لهم في الخارج قبل أن يدخلوا المحل فيقلبوه رأسا على عقب.

وطلبت منه الجلوس وعدم الخروج من المقهى، لكي لا يخطئوا ويعتقدوا بأنه أنا! فأخي كما ذكرت سابقا يشبهني إلى حد كبير! وبينما أنا أمشي في وسط المحل متجهاً نحو الباب الرئيسي للمواقف، كانت هناك أغنية تذاع عبر المذياع، كانت كلماتها معبرة مازلت أتذكرها جيدا، حيث تقول باللغة الإنجليزية:

♫لا بأس ! لا بأس ! وجب عليّ ترك كل شيء ♫

♫لأنني ذاهب بعيداً ! لمدة طويلة! ♫

وكأن الأغنية تحاكي المصير الأسود الذي ينتظرني! وعند وصولي إلى الباب الرئيسي وإمساكي لمقبضه لفتحه، وإذا بالعشرات من أفراد القوات الخاصة المسلحين يوجهون أسلحتهم والليزر على جبهتي وهم يصرخون:

– قف! لا تتحرك... إرفع يديك إلى الأعلى!

فرفعت يداي إلى السماء مغمضاً عيناي قائلاً في صدري: "أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمداً رسول الله"، معتقداً بأنها هذه آخر لحظات حياتي، وبأن نهايتي ستكون هناك على عتبة باب المقهى الذي أحببته وفضلته حتى على أهلي وناسي! وفي لمح البصر، إستعرضت شريط حياتي لقطة بعد لقطة ومشهداً تلو الآخر منذ الطفولة، وما هي إلا لحظات حتى إنقض علي هؤلاء المسلحين كإنقضاض الضباع على الفريسة، فواحد يمسك رجلاً، والآخر يمسك الرجل الأخرى، وأحدهما يمسك ذراعاً والآخر يمسك بالأخرى، وكأنهم يودون صلبي. فقاموا بتقييدي وتكبيلي من رأسي إلى قدماي، وكأني عمر المختار، أسد ليبيا! مع فرق التشبيه فهو كان بالفعل أسدا وأنا لم أكن أكثر من جربوع تلاهاسي... مجرد طالب خانته الظروف، وأصيب بلعنة المقهى العربي في تالاهاسي!

شدني أحدهم من ذراعي وراح يجرني إلى سيارة الشرطة المخصصة لإعتقالي ونقلي، فحاولت الإلتفاف إلى الخلف ورؤية أخي عبدالله للمرة الأخيرة، فرأيته يلوح لي بيده اليمنى، ويمسح باليسرى مجاري المدامع. فتذكرت حينها أبيات من الشعر:

ولي حزن يعقوب ووحشه يونس وآلام أيوب وحسرة آدم

(16)

السجن على ذمة التحقيق

بينما كنت جالسا في المقعد الخلفي لسيارة الشرطة مقيداً ومكبلاً بالسلاسل والأغلال، بدت لي مدينة تالاهاسي رائعة الجمال مليئة بالحياة والحيوية. تمر مركبتنا بجانب ملعب لكرة القدم الخاص بالجامعة فأرى فريقين يتنافسان للحاق بالكرة وإحراز الأهداف. ثم تمر بجانب مطعم ذو جلسات خارجية في الهواء الطلق يعجب الزبائن، والكل يستمتع بتناول الطعام وإطلاق النكات والضحكات. ثم تقف سيارة الشرطة التي تقلني عند الإشارة الحمراء، فأنظر إلى من حولي فأجد بالسيارة التي بجانبنا إمراتين تتبادلان أطراف الحديث فيما بينهما، وتضحكان ضحكة حقيقية تدل على سعادتهما ومرحهما.

إنها الإشارة الخضراء... وهاهي السيارة التي تقلني تسير مجددا فأشعر كلما سارت المركبة مبتعدة عن مدينة تالاهاسي بأنني أترك من خلفي حاضر جميل صنعته بجهدي وتعبي وعرقي... أترك المقهى... وأترك رسالة الدكتوراه.... أترك أحلامي وطموحاتي.... بإختصار أترك حياتي وأتوجه إلى المستقبل المجهول! فنزلت على خدي دمعة إختزلت كل آلامي وأحزاني وحسراتي، وأخذت أصرخ: "لم أنا بالذات؟! "

لم تكن سيارة الشرطة في طريقها نحو سجن المقاطعة كما كنت أتوقع، حيث إنعطفت السيارة ودخلت مواقف سيارات لمبنى مهجور في شمال شارع مونرو، علمت لاحقاً بأنه مبنى بجانب مبنى الـ FBI في تالاهاسي. ثم توقفت سيارة الشرطة، وكأننا بإنتظار أحدهم، وبعد قليل قال الشرطي الذي يقود السيارة موجها نظره إلى الخلف حيث أجلس، "تريد المحققة إليزابيث التحدث معك قبل أن آخذك إلى السجن".

بعد قليل، ظهرت سيارة فورد سوداء في مواقف السيارات ثم نزلت منها تلك المحققة اللئيمة ومعها في المواقف شخص مألوف بالنسبة لي. فقالت المحققة مبتسمة إبتسامة صفراء:

- تتذكرني؟

- نعم!

فراحت تشير نحو ذلك الشخص المألوف قائلة، "هذا المحقق الفيدرالي السيد جيمس يود التحدث معك".

- مرحباً يا ياسر! هل تتذكرني؟ (مبتسماً)

- كلا.

- عندي بعض الأسئلة يمكنك إفادتي.

وقبل أن يكمل حديثه، قاطعته مردداً ما قد قام به المحامي هاربر بتلقيني لإستخدامه في هذه الحالات:

– لا أريد التحدث مطلقاً إلا بوجود المحامي هاربر، وهذه هي بطاقته في الجيب الخلفي لبنطالي، يمكنك الاتصال به.

قلتها على الرغم من اضطرابي الشديد وتلعثمي، إلا أنني قلتها أخيراً.

– حسناً!

فقام المحقق الفيدرالي بمد يده في جيبي الخلفي، وأخرج تلك البطاقة ثم أعطاها إلى المحققة اللئيمة، فقامت بالاتصال به:

– السيد هاربر؟ معك المحققة إليزابيث، وها هو ياسر معنا قد ألقي القبض عليه بتهمة الاغتصاب. لقد حاولنا الحديث معه إلا أنه رفض وأصر على حضورك أولاً! فهل تود الحضور لكي نسأله بعض الأسئلة قبل أخذه إلى السجن؟

يبدو أن جواب المحامي هاربر كان" كلا".

– حسناً!

أغلقت المحققة اللئيمة الهاتف، ثم نظرت نحوي وهي تبتسم إبتسامة خبيثة فيها تشفي، ثم قالت: تمنى أن تكون توفا مديرة ممتازة.

– لماذا؟

– لأنك ستذهب وراء القضبان الحديدية لزمن طويل، ولا كفالة مالية لك!

– لا كفالة مالية؟! ولم لا!؟ (محدثا نفسي)

فأنا لم أعد العدة لهذه الحلقة من ذلك المسلسل السخيف، ولم يقل لي أحداً ما يجب علي فعله في هذه الحالة. لا كفالة مالية يعني الجلوس في سجن المقاطعة إلى أن تنتهي القضية، سنة، إثنتان، ثلاثة. وإن لم تنتهي على خير، هذا يعني أنك ستكون خلف القضبان لسنين عديدة! أُدخلت مجددا إلى سيارة الشرطة، وهذه المرة كنا في طريقنا إلى سجن المقاطعة الموحش المهجور.

ويعتبر سجن المقاطعة الواقع في تالاهاسي جديداً نوعاً ما مقارنة بالسجون الأمريكية الأخرى، فمنها ما بُني قبل الحرب العالمية الأولى والثانية. وأنا ليست لدي أي خبرة بالسجون ولم أكن أعلم إلا القليل عن ذلك السجن، وذلك من خلال زيارتي لصديقي سامي ابن أخ آدم الألباني، عندما سُجن هناك بتهمة الإعتداء على الشرطة بالضرب، إدعاءاً كاذباً من قبل شرطة المدينة، لكي يقوموا بحبسه لعدة شهور، وذلك بعد مشادة كلامية جرت بينه وبينهم في أثناء مباراة لكرة

القدم الأمريكية في إستاد نادي جامعة ولاية فلوريدا. ففي خلال المباراة، إتهمته الشرطة بحذف زجاجة على الشرطة، فأمسكوا به وضربوه، ثم طرحوه أرضاً، فكسروا له أنفه وسناً من أسنانه الأمامية، ثم أخذوه إلى السجن بعد تلفيقهم له تهمة "الإعتداء على الشرطة بالضرب".

وعلى الرغم من زيارتي له مرة أو مرتين في السجن، إلا أني لم أرى شكل السجن من الداخل، ولم يطرأ على بالي أبداً أنه في يوم من الأيام سيكون مصيري إلى نفس السجن. وصلت سيارة الشرطة إلى بوابة السجن الرئيسية، فرُفعت الحواجز، ودخلنا إلى داخل السجن حيث المواقف الداخلية المؤمنة والمحمية، فلا يمكن لأحد الدخول أو الخروج منها إلا بتصريح. وقفت سيارة الشرطة، وقام الشرطي بإطفاء المحرك، ثم نزل وقام بأنزالي من المقعد الخلفي للسيارة، وما زالت الأساور الفضية على يدي وهما وراء ظهري، ثم ظهر حراس السجن ذوي اللباس الأخضر الغامق، مصطحبين معهم قيودهم الخاصة بهم، وأوراق التسليم للتوقيع عليها، أي أوراق تسليم السجين من سلطة شرطة تالاهاسي إلى سلطة حراس سجن المقاطعة.

أدخلني الحراس إلى صالة كبيرة، حيث قاموا بأخذ بصمات أصابعي وصورتي، ووزني وطولي، ثم قاموا بإدخال تلك البيانات في الكمبيوتر، ثم قاموا بعد ذلك بنقلي إلى غرفة أصغر منها، حيث تُقدم للمتهم بدلة السجن الحكومية الزرقاء ومكتوبة عليها، "ملكية سجن المقاطعة"، ثم قال أحد الحراس، "إخلع!" بينما يقوم الآخر بوضع الكفوف النايلون على كفيه. فقلت:

– ما أنا بخالع!

– إخلع جميع ملابسك، أريدك كما ولدتك أمك!

وبعد تردد قمت بنزع ملابسي ولكن أبقيت سروالي الأبيض، مصراً بأنه ذلك هو حد الخلعان!

فقال أحدهم:

– أهلا بك في سجن المقاطعة. هنا يجب عليك خلع ملابسك وحذفها في سلة الملابس وحذف كرامتك معها!

وبالفعل، من اللحظة الأولى لدخولي هذا المكان، خرجت الكرامة من شباك تلك الغرفة ودخلت الإهانة! حيث أنه كُتب عليّ الإنحناء عاريا حتى يتمكن حراس السجن من تفتيش جسدي كاملا للتأكد من خلوه من الأسلحة أو المخدرات. وبعد الإنتهاء من هذه العملية المهينة، أُعطيت لي البدلة الحكومية الزرقاء ثم أدخلت إلى العيادة فسألتني إحدى الممرضات:

– هل تنوي الانتحار؟

ربما كان علي الانتحار بعد كل تلك الإهانات لو كنت يابانياً، ولكن بما أني عربي مسلم فكانت إجابتي بـلا!

ثم سألتني:

- وهل تريد أن تسبب لنفسك الضرر أو للآخرين؟

على الرغم من غرابته تلك الأسئلة، إلا أنها تُسأل عادة في السجون للتأكد من الحالة النفسية للسجين، وبالتالي يتم تصنيفه، حيث تم تقسيم العنابر على أساس مدى الخطورة ومدى الإستقرار النفسي للسجناء. فإن كانت إجابة السجين بـ "نعم"، يتم وضعه في الحبس الإنفرادي، وإعطائه البدلة البيضاء الخاصة بالمجانين! لذلك كانت إجابتي:

- بالطبع لا!

وبعد الإنتهاء من تلك الأسئلة السخيفة، سحبني أحد السجانة من العيادة إلى زنزانة التوقيف المؤقتة، بينما يقررون أي عنبراً يجب وضعي فيه. وقبل إغلاق باب تلك الزنزانة المؤقتة، قام أحدهم بإعطائي كيساً يحتوي على كعكة وبرتقالة، وعلبة صغيرة من الحليب الكامل الدسم، ثم قال ضاحكاً:

- بالهناء!

ثم أغلق باب الزنزانة وراح مختفياً في أروقة السجن المظلمة الموحشة.

زنزانة 5 نجوم

مقارنة بمخفر الصباحية، تعتبر زنزانة التوقيف المؤقت (التي يفترض أن تكون الإقامة فيها لمجرد ساعات وليس أياماً) نظيفة نوعاً ما. فحجمها هو 3 × 3 × 3 متراً، وحوائطها بيضاء ناصعة البياض، وأرضيتها رمادية اللون، وسقفها أبيض بلا خرير أو صراصير تتعلق به. وفي مقابل إحدى الحوائط، يقع كرسي طويل مبني من الطابوق والأسمنت؛ أما في الطرف الآخر، فهناك المرحاض والمغسلة، وهما مصممان كقطعة واحدة من معدن الستيل، تصميم لا بأس فيه!

ولكن الغريب في تلك الزنزانة هو وجود ما يقارب الـ 16 من أنوار النيون البيضاء الساطعة، والمفتوحة ليلاً ونهاراً، ولا تطفأ أبدا. بعد ساعة أو ساعتين، تبدأ عينيك بالزغللة والحرقة من شدة الإضاءة، وكأنك فأر تجارب في أحد المختبرات العلمية! أما بالنسبة للمرحاض، فإنه لا يعمل. فكلما حاولت سحب السيفون إرتفع الماء للأعلى والبراز كذلك، ثم يبدأ بالفيضان فترى البراز سابحاً على أرضية الزنزانة. أما المغسلة، فهي نظيفة جداً والسبب هو أن الحنفية لا تعمل أبداً!

أما بالنسبة إلى التكييف، فهو ولله الحمد فقد كان تكييفاً مركزياً، ولكنه يدفع بهواء بارد يمكنه تجميد قنينة من المشروبات الغازية! حيث أن دفع الهواء لا يتوقف أبداً! وليس هناك ترموستات (معيار الحرارة) للتدخل وإيقاف الهواء حين تنخفض درجة حرارة الزنزانة إلى رقم معين. تخيل أن يتم إحتجازك في زنزانة كهذه وليس على جسدك سوى ثياب رقيقة شبه شفافة، وأنت لاتملك جوارب أو حتى كفوف تدفئ بها يديك. تخيل أيضاً أنك تجلس في هذه الزنزانة ما يقارب اليوم أو اليومين، وذلك بالضبط ما حصل لي. وبعد ساعات من الجلوس والحركة، ثم الجلوس، ثم الحركة من جديد، ذهاباً وإياباً، في تلك الثلاجة البشرية، وقفت قليلاً عند شباك زجاجي موضوع في منتصف باب الزنزانة لأرى أي كائن حي في المكان، فلا أرى سوى أبواباً أخرى في المقابل تشبه باب زنزانتي مما يدل على وجود العديد من غرف الحبس في هذا المكان!

بينما كنت في تلك الزنزانة منتظراً حتفي، "الموت من شدة البرودة"، بدأت الأفكار تأخذني يميناً ويساراً: "شتان بين ما كنت عليه وما صرت إليه". فرحت أفكر قائلاً: "لو أني فعلت كذا وكذا .. لما حدث كذا وكذا"، وقد نسيت مقولة العرب: "يا عايش باللو والليت خسران". فإزدادت الغرفة برودة لدرجة لا تطاق، وأخذ جسدي يرتعد ويرجف بشكل سريع ومتواصل فظننت أنني سألقى حتفي وأنتقل في هذه اللحظة إلى الرفيق الأعلى،"أهذه هي نهايتي في غرفة الفريزر أرتدي ثياباً قد لبسها المئات من قبلي؟" فأين ولت أيام قمصان الـ"مسكينو"!؟ وأين الأحذية الإيطالية وبنطلونات فرساشي؟ كله كان هباءاً منثوراً؟

وبعد أن أصبح زفيري أبيض اللون ضبابياً من شدة البرد، وكدت أن أتثلج في منتصف الزنزانة، سمعت بوقع أقدام قادمة نحوي أخيراً. لم أعلم ما هو الوقت ولكن لابد وأنه في صباح اليوم التالي. فاقتربت نحو الشباك الزجاجي الموجود على باب الزنزانة، وإذا بأحد السجانة متجهاً

نحو إحدى الزنزانات المقابلة لزنزانتي. كان السجان أبيض البشرة، تكاد العنصرية تخرج من أنفه، وراح يضرب باب تلك الزنزانة بيده بشدة قائلاً بصوت عالٍ: "أيها الزنجي الأسود!". وأخذ ذلك الأبيض الضخم يزعق من جديد والحقارة بادية على وجهه، "اصحى من النوم أيها الحيوان القذر!"

وبعد ضربه لباب الزنزانة عدة مرات، إقترب وجه رجل أسود نحو الشباك الزجاجي لباب الزنزانة، وقد علاه الغبار، وكأنه قد قضى في تلك الزنزانة شهورا عديدة! فصرخ السجان من جديد، "سأدفنك هنا، سأدفنك حياً، ولن يستطيع أحداً إنقاذك أيها الزنجي الحقير!". ولكن بدا السجين الأسود وكأنه غير مبالي لما يقوله ذلك السجان الأبيض، وكأنه قد ألف ذلك الزعيق والصراخ. وقام السجان بفتح كوة الطعام الموجودة في أسفل الشباك الزجاجي، ثم جلب صينية الطعام ولكن عوضاً عن إعطائه الطعام، قام السجان بإلقاء الصينية على أرض الزنزانة القذر قائلاً: "إلحس الطعام من على الأرض بلسانك أيها الزنجي الحقير!"

وصدرت عن السجان ضحكة هستيرية وكأنه مصاب بجنون البقر وقال، "وهذه لـ FAN CLUB". وهي ثلاثة أحرف: إف، إيه، إن، إختصار لكلمات بذيئه ضد الشعوب الملونة: Fu@@ All Niggers. ثم وفجأة إلتفت نحوي وكأنه لم يعلم بوجودي في تلك الزنزانة، فلقد كنت جديدا فيها، فإحمر وجهه وإنتفخ عرق جبهته ثم بدأت عينيه بقذف الشرار، ثم قال: "ومن أنت أيها الأخرق؟" فتوقفت الدنيا لوهلة ورحت مفكراً، "ويحك يا ياسر! لم لم تبتعد عن الشباك الزجاجي ووجهه العكر؟!"

فقام بالإقتراب نحو زنزانتي عبوس الوجه، فرجعت القهقري وإبتعدت عن الشباك الزجاجي خطوتين للوراء. فوضع وجهه على الشباك الزجاجي حتى غطاه بأكمله وراح يصرخ: "ومن أنت أيها الأخرق؟ هل أنت مكسيكي أم ماذا؟"

فأجبته همساً من الخوف: "من الكويت".

– ماذا؟ علّي صوتك أيها العاهرة؟

– من الكويت!

– ها.. عراقي؟

تذكر أنه في تلك الأيام، في عام 2007 ، كانت الحرب الأمريكية على العراق على لسان كل أمريكي، وأيضاً الحرب الطائفية بين شيعة وسنة العراق، وأيضاً موت الأمريكيين المارينز في الفلوجة بالعشرات يومياً. فحاولت إفهامه بأني من الكويت، دولة حليفة لأمريكا ولكن دون أي جدوى، فراح قائلاً:

– كويتي .. عراقي.. سعودي...لا فرق فكلكم إرهابيون!

ثم إختفى في أروقة السجن، ومن ثم عاد يحمل معه صينية طعام ليقدمها لي، ففتح كوة الطعام بالباب، وراح يقذفها على أرض الزنزانة القذرة قائلاً:

– إلحس الطعام من على الأرض بلسانك أيها العربي الحقير!

ثم راح يضحك ضحكته الهستيرية، واختفى في أروقة السجن من جديد. ومنذ ذلك اليوم، علمت بأنه قد بدأت رحلتي الشاقة في سجون أمريكا فتذكرت أغنية المغني اليمني أحمد فتحي:

♪♫ ليلة، ما الحال لو كانت سنين؟ ♫♪

عنبر "ب"، زنزانة رقم "3"

بعد أن قضيت ليلتين ويوماً واحداً في ثلاجة اللحوم، تلك الزنزانة المؤقتة، وبعد أن تجمد دمي وجميع سوائل جسدي، تم نقلي إلى الزنزانة المخصصة لي، الزنزانة رقم 3 في العنبر ب، وتم إعطائي "اللفّة"، وهي عبارة عن لفة من الشراشف والبطانية وأغراض تنظيف الأسنان والحلاقة.

يحتوي سجن المقاطعة على 17 عنبراً، من الألف إلى القاف، إثنان منهم قد خصصا للنساء، وإثنان آخران للحبس الانفرادي. أما باقي العنابر فهي عنابر عامة إما مفتوحة كالمهاجع العسكرية سريراً بجانب الآخر، أوغرف حبس، تضم إثنين في كل غرفة. أما العنبر ب، فهو عبارة عن دورين، وهناك 15 زنزانة في أطراف كل دور، وجميعهم يطلون على منتصف العنبر، وكأنه تصميم البيت العربي. أما حجم كل زنزانة فهو 3 × 3 × 3 متراً، أي أصغر حجما من الحمامات في البيوت الكويتية! حوائطها بيضاء وأرضيتها رمادية اللون، وفي أحد جوانب الزنزانة يقع المرحاض والمغسلة كطقم واحد مصنوع من معدن الستيل; أما في الجانب الآخر، ويبعد متراً واحداً عن المرحاض والمغسلة، فهناك سريران يقع أحدهما فوق الآخر، بحيث يتشارك سجينان في الغرفة الواحدة.

أما بالنسبة إلى "اللفة"، فهي تتكون من لحافين رقيقين جدا كورق شفاف الخرائط، والبطانية ممزقة كثيرة الفتحات وكأنها مرتع للفئران. وهناك أيضاً سروالين في داخل اللفة، وهي عبارة عن نوع من السراويل الداخلية القصيرة، والتى يُفترض أن تكون بيضاء اللون، إلا أنها لشدة إتساخها قد إصفرت، فهي مستعملة من قبل العشرات من المساجين من قبلك.

أما بالنسبة للجوارب، فقد كانت ممزقة، وفيها العديد من الفتحات عند أطراف الأصابع، ربما للتهوية والله أعلم! والفانيلة الداخلية لم تكن أحسن حالا، فقد كانت مستعملة شديدة الاتساخ وخصوصا من ناحية الأبط. أما بالنسبة إلى فرشاة الأسنان، فحدث ولا حرج. فإستعمالها يبدو واضحا للعيان، ولكن السؤال هو لأي غرض قد إستعملت؟ هل كانت مستعملة في تفريش أسنان سجين سابق أم تنظيف حذاؤه؟ أما بالنسبة إلى الصابون، فهو الشيء الوحيد الذي يبدو جديدا، ولكنه من النوع النحيف جدا بحيث لا يكفي لإستخدامه لغسلة واحدة!

على أي حال، عند دخولي إلى العنبر ب، أخذ سجان العنبر الجالس على مكتبه الواقع في منتصف العنبر يناديني ضاحكا وباستفزاز، قائلاً: "أيها الإرهابي! بن لادن! تعال إلى هنا!". ففعلت. ثم قام بضرب أصابعه على لوحة التحكم الموجودة على مكتبه، ثم قال إذهب إلى زنزانة رقم 3، سريرك هو العلوي، وقبل أن أذهب قال، "هيا إذهب ولا تفجر نفسك وتفجرنا معك!".

ما أحمقه خفيف الدم. على أي حال، توجهت إلى غرفة 3 ودخلت فيها، فوجدت رجلاً أبيضاً نحيفاً نائماً على السرير السفلي وقد علاه الغبار، وقد بنيت شبكة العنكبوت على بطانيته، وكأنه من أصحاب الكهف قد نام قرناً أو قرنين. وبينما كنت أقوم بترتيب فراشي، ووضع حاجياتي

في الصندوق المخصص لها، نودي إسمي في مكبرات الصوت المنتشرة في أطراف العنبر، "ياسر البحري! زيارة". ففتح السجان باب الزنزانة قائلاً:

– أيها الإرهابي! هناك إرهابي آخر يشبهك يود رؤيتك!

ثم أضاف شارحاً لي كيف أذهب إلى مكان الزيارة:

– إصعد إلى الطابق العلوي، وستجد شبابيك زجاجية، وسماعات هواتف معلقة بها، تمكنك من رؤية الزائر والتحدث معه عن طريق السماعة المعلقة.

ففعلت، وإذا بأخي عبدالله ينظر إلي وعلى خده دمعته لرؤيتي بهذه الحالة المزرية. فقال لي من خلف الزجاج وهو ممسك بسماعة الهاتف:

– السلام عليكم!

– عليكم السلام ! ماذا يقول المحامي؟ (أريد معرفة ما يجري)

– يقول بأنك مسجون على ذمة التحقيق وليس هناك كفالة مالية لإخراجك.

– وماذا يعني ذلك؟

– هذا يعني أنه عندما قام القاضي بكتابة مذكرة الاعتقال، قرر حرمانك من فرصة وضع الكفالة المالية حتى لا تخرج من السجن إلى أن تنتهي القضية.

– ولم لا ؟ (قلتها مندهشا).

– المحققة إليزابيث أقنعت القاضي بأنك تود الهروب ولذلك حرمك من الكفالة المالية.

– وما الذي سيفعله المحامي هاربر؟

– سيحاول طلب عقد جلسة طارئة، تسمى بجلسة تحديد الكفالة من أجل إخراجك من هنا بأسرع وقت ممكن.

– ومتى ذلك ؟

– أسبوعين أو ثلاثة.

– خير إنشاء الله (ولم يروقني ما سمعت).

ثم غير عبدالله الموضوع قائلاً:

– لقد وضعوك في التلفاز بالأمس!

– من جديد؟ وماذا قيل؟

– الكثير من الكذب!

– حقاً؟ مثل ماذا؟

– قالت القناة بأنك كنت تحجز الفتيات في أقفاص في خلف المحل وتقوم بإغتصابهن مراراً ولا تطعمهن سوى الماء والشعير!

– حسبي الله ونعم الوكيل. لابد وأن هذه فكرة المحققة اللئيمة!

– يبدو أنها أخذت قضيتك هذه مسألة شخصية!

– وماذا أيضا؟

– تقول القناة بأن هناك العديد من الفتيات الزاعمات بأنك تكرههن على الشرب ومن ثم تعتدي عليهن!

– عجباً! ما هذا الهراء! أنا من غدر به!

– تقول القناة بأنك لربما كنت تضع حبوباً منومة أو مخدرة في شرابهن ثم تقوم بالإعتداء عليهن جنسياً.

– لا حول ولا قوة إلا بالله

– أتريد المزيد؟

– وهل من مزيد؟

– نعم. تقول القناة أنه هناك شهوداً تشهد بأنك عضو في منظمة إرهابية وبأنك تبيع المخدرات لكي تقوم بتسليح بعض الخلايا الإرهابية النائمة في أمريكا.

– لابد وأنك تمزح! (قلتها غير مصدق لما يقوله أخي عبدالله)

فراح عبدالله يشرح بأنه جاد كل الجدية، فقلت:

– لا حول ولا قوة إلا بالله؛ ربي إني مغلوب فانتصر.

ثم سألت عبدالله:

– وهل تصدق هذا الكلام وما قيل عني؟

– بالطبع لا، ولكني لست أنا المهم هنا؛ المهم هو هل سوف يصدق الأمريكيون تلك الادعاءات؟

– يبدو أنني سوف يقضى علي في هذه السجون.

– لا تخف يا ياسر، إن الله معك، فإدعوه يا ياسر!

– ونعم بالله ! حسبي علمه بحالي.

وهنا رجع السجان ذلك الأبيض ذو الشعر الأشقر ليبلغنا بأن الزيارة قد إنتهت، فقال عبدالله بأنه سيتواجد في جلسة تحديد الكفالة، فقلت له:

– عبدالله، إتصل بزوجتي في الكويت ولكن لا تخبرها بما حصل، فقط أخبرها بأني بخير وأني ذاهب إلى منطقة مجاورة ليس فيها تغطية لهاتفي النقال. هلا فعلت ذلك من أجلي يا عبدالله؟

جلسة تحديد الكفالة المالية

في تمام الساعة الرابعة من صباح يوم الإثنين—والذي يعد أول أيام الأسبوع في الولايات المتحدة الأمريكية—أي بعد أسبوعين من اعتقالي، فُتحت باب زنزانتي، واذا بهذا السجان الأبيض الضخم ينادي بإسمي قائلا أنه علي الاستعداد للذهاب إلى مبنى المحكمة لحضور جلسة تحديد الكفالة المالية. ثم قال:

- سأعود بعد 10 دقائق لأخذك.

جلسة تحديد الكفالة المالية هي أملي الوحيد للخروج من هذا الكابوس المرعب إلى بيتي معززا مكرما بعد تلك الإهانات، حيث سيتسنى لي التمتع بالحرية في إنتظار حكم المحكمة. هذا بالاضافة إلى التمتع بالنظافة والمأكل الصحي والملبس ورؤية الأهل والأصدقاء وعودة الكرامة التي فقدتها في هذه السجون المهينة. سيؤهلني الخروج من هنا من إستكمال رسالة الدكتوراه، وأيضا من إدارة المقهى من جديد، بينما تمضي القضية قدما ويأخذ القانون مجراه ويظهر الحق ويتحقق العدل باذن الله.

سيمكنني خروجي من السجن بكفالة مالية من تقديم أدلة دامغة على براءتي، ومساعدة المحامي في القضية، فقد يطول إنتظاري في السجن لحين إنتهاء المحاكمة، والتي قد تستغرق سنين طويلة. لذلك عوضا عن الجلوس في الغرفة رقم 3 لمدة ثلاثة سنوات أنتظر فيها حكم المحكمة وكسب القضية، يا حبذا لو يُطلق سراحي عن طريق دفع الكفالة المالية وإنتظار الحكم خارج أسوار السجن. إن قرار السماح بدفع كفالة مالية هو بيد القاضي وحده، ولذلك يجب علينا إقناعه بعدم حرماني من خيار دفع الكفالة. وقد استعد المحامي لهذه الجلسة بإحضار الشهود؛ وفي المقابل، قام وكيل النيابة بإعداد العدة وجلب شهوده، لكي لا يُتاح لي ذلك الخيار، وأبقي سجينا طوال الوقت.

حضر السجان إلى الزنزانة بعد عشرة دقائق، وتلني من ذراعي وأخذني إلى زنزانة الانتظار المؤقتة، الواقعة قرب مواقف باصات الشرطة المضادة للرصاص، والمخصصة لنقل المساجين المجرمين الخطرين من وإلى مبنى المحكمة الكائن في وسط البلد لمنطقة تالاهاسي. فدخلت زنزانة الإنتظار، وإذا هي زنزانة كبيرة بيضاء اللون، ذات أرضية رمادية وتحتوي على كرسي طويل مبني من الطابوق والاسمنت، وتنخفض فيها درجة الحرارة حتى يكاد يخيل للجالس فيها أنه في بيت من بيوت البطاريق بالاسكيمو، تلك المبنية من الثلج الأبيض! دخلت المكان فوجدته يعج بالعشرات والعشرات من المساجين: فمنهم السفاح، ومنهم المغتصب (الحقيقي)، ومنهم المختلس، ومنهم المقتحم، ومنهم النصاب، ومنهم طبعاً البرئ كحالي، الكل في إنتظار لقاء حتفه في مبنى المحكمة.

جلست على ذلك الكرسي الصخري البارد منتظراً عودة السجان لبدءعملية النقل، ومرت الساعات طويلة متثاقلة لاتسمع فيها إلا همسا. إنتظرت جالساً، ثم مضطجعاً ثم واقفاً، ثم جالساً

من جديد، وتمر الساعات تلو الساعات، وبعد 7 ساعات من التقلب والجلوس والإضطجاع على أرضية وكراسي تلك الزنزانة، ظهر أخيراً العشرات والعشرات من رجال الشرطة، كلٌ يحمل بيده الأساور الفضية، والسلاسل والأغلال المخصصة للأيدي والجذوع والأرجل والأقدام. فتذكرت مقولة الأمريكيون: "المتهم بريء حتى تثبت إدانته". يبدو أنني قد أُدنت حتى قبل النظر بالأدلة، فلم كل هذا؟ ومن أنا حتى أعاقب هكذا؟ أنا لست المجرم أرييل شارون، أو المجرم بشار الأسد، وهما وجهان لعملة واحدة. فلم كل تلك السلاسل والأغلال؟ ولكن، "صبراً يا آل ياسر!"

قام رجال الشرطة بتقييد كل المساجين الموجودين، أساور لليدين وأساور أخرى للقدمين، وسلاسل للجذوع والأرجل. ولم كل تلك الإجراءات؟ لكي لا نتمكن من الهرب! وكيف يمكننا الهرب؟ وجميعهم مسلحون بالرشاشات؟ تصور شخص مقيد بالسلاسل الحديدية من الرأس إلى القدمين ومن الوراء والأمام، ومن فوق وتحت فكيف له الهروب؟ ثم يُطلب منه بالإضافة إلى ذلك، السير مقيداً بكل تلك السلاسل والأغلال من الزنزانة إلى الباص ذو الباب العالي، ومن ثم الركوب فيه والتوجه إلى المقاعد، ومن ثم النزول من ذلك الباص اللعين خطوة تلو الأخرى، والسير إلى داخل أروقة مبنى المحكمة إلى قاعة الجلسات وهكذا.

وبعد مواجهة الكثير من الصعوبات والعرقلة في المشي محاولا الوصول إلى مقاعد الباص، جلست في الباص ثم وصلت بسلام إلى قاعة المحكمة. ومرة أخرى وبعد العديد من المحاولات والأخطاء تمكنت أخيراً من الوصول إلى قاعة المحكمة، وكانت الساعة تقترب نحو الثانية ظهرا. منذ الساعة الرابعة صباحا وحتى الثانية ظهرا. ولماذا؟ لأجل الوصول إلى قاعة المحكمة، علما أنه في الأحوال العادية لا يستغرق الأمر أكثر من 15 دقيقة! حقا لقد كان وقتا كافيا للسفر من الكويت إلى نيويورك بالطائرة. على أي حال، دخلت إلى المحكمة ماشياً مشية البطريق، يداي مكبلتان بالقرب من بطني والسلاسل من حولي، دخلت ماشيا من الباب الجانبي للقاعة وإلى مقاعد فريق الدفاع، فوجدت المحامي هاربر وإبنه اللذان قاما بمساعدتي للجلوس خلف طاولة الدفاع.

نظرت إلى الخلف فوجدت أخي عبدالله، وقد إرتسم عليه الحزن لرؤيتي بهذه الحالة، وهو يحاول جاهداً أن يخفي حزنه بإبتسامته التى إرتسمت على شفتيه، وتلويحه بيده، ورأيت أيضا طارق زوج أختي ومعه أختي لإعطائي أمل في الفوز بالجلسة، إلا أن عين أختي كانت معبرة وذكرتني ببيت القصيدة:

"والله ما حزنت أخت لفقد أخ   حزني عليه ولا أم على ولد"

فراحت أميرة تسلم علي باليمين، وتمسح باليسرى مجاري المدامع. فقال لي المحامي هاربر، "ياسر نحن هنا لجلسة تحديد الكفالة المالية لكي نخرجك من السجن مؤقتا على ذمة التحقيق". أجبت، "حسناً". كما أن القاعة قد إمتلأت بالأهل والأحبة، وبعض الأصدقاء الملوحين بعلامات النصر بأصابعهم، وكان هناك أيضا بعض من الأعداء، وعلى رأسهم المحققة اليزابيث وبعض من أفراد الشرطة العنصريين. وعند تمام الساعة الثانية ظهرا، دخل أحدهم من الباب الجانبي للقاعة معلنا:

– الرجاء الجلوس والصمت التام (فجلس الجميع).

فدخلت قاضية من الباب الجانبي أيضا، فجلست على كرسي القضاة، ثم قالت:

– ماذا لدينا الآن؟

فقالت سكرتيرة القاعة:

– حان الآن موعد القضية رقم 842، قضية جنائية: ولاية فلوريدا *ضد* ياسر البحري، جلسة استماع لتحديد الكفالة المالية.

وقف وكيل النيابة شارحا للقاضية بأني لا أستحق إعطائي خيار دفع الكفالة المالية للخروج على ذمة التحقيق حتى إنتهاء القضية. فقالت القاضية:

– وما هي الأسباب؟

فقام وكيل النيابة بالشرح:

– أولاً، إنها قضية جادة للغاية: قضية إغتصاب وليست قيادة من دون رخصة. ثانيا، إن ياسر البحري ليس مواطناً أمريكياً، فهو من الكويت، لذلك هناك إحتمال كبير أن يهرب إذا ما سُمح له بالخروج من السجن، ثالثا، في الواقع، قام المتهم ياسر البحري بتهديد الضحية عن طريق مخبرين خاصيين، وعرض عليها مبلغ مالي للتنازل وإلا سوف يعود إلى وطنة ولن يعود أبداً إلى أمريكا. لذلك نطلب منك يا حضرة القاضية أن لا تعطي السيد ياسر البحري الفرصة لدفع الكفالة المالية.

نظرت القاضية تجاه المحامي هاربر تنتظر منه المرافعة، فقال:

– إن موكلي السيد ياسر البحري شخصية معروفة على مستوى منطقة تالاهاسي، فهو يملك ويدير أشهر مقهى ثقافي يمثل الشرق الأوسط، ومن خلاله يحاول موكلي مد جسر التعاون بين كل من الثقافة العربية والغربية، وإيجاد فرص التعايش المبنية على الاحترام والثقة المتبادلة، وذلك يا حضرة القاضية لأمر نبيل وهدف سامي. ببساطة، ياسر البحري عضو فعال في مجتمعنا ومحترم وهناك الكثير من يشهد على ذلك. ثانياً، إنه طالب في جامعة ولاية فلوريدا ومرشحاً للدكتوراه في قسم الفلسفة، فيجب إخراجة لكي تتاح له الفرصة للدفاع عن نفسه، وإستكمال أطروحة الدكتوراه، لكي يتمكن من الحصول على شهادة الدكتوراه وهو الهدف الأساسي من تواجده في الولايات المتحدة. ثالثا، في يدي يا حضرة القاضية جواز سفر ياسر البحري، ها نحن نسلمه إليكم متطوعين للتأكيد على حسن النية، والتزام موكلي بعدم الخروج من أمريكا، حيث لن يستطيع الخروج وإن أراد ذلك. رابعاً، قبل إعتقاله، اتصلت بالسيدة المحققة رئيسة التحقيق في هذه القضية (وها هي جالسة هنا في القاعة اليوم) متطوعين لتسليم ياسر البحري في حال وجود مذكرة إعتقال، إلا أنها وبعد ساعات قليلة فقط قدمت إلى المحل ومعها جيشا من الشرطة وكأن ياسر البحري بن لادن هارب.

فتدخلت القاضية سائلة المحققة ما إذا كان ذلك صحيحا فأجابت بأنها لا تتذكر، محاولة المراوغة طبعا.

فأكمل المحامي هاربر:

– على أي حال، تطوع كل من عبدالله وأخته أميرة وزوج أخته طارق بدفع الكفالة المالية، وهم على استعداد لضمان بقائه في منزلهم في المنطقة هنا وعدم مغادرته المكان أبدا. بالاضافة إلى ذلك، فإن موكلي على أتم الإستعداد لإرتداء جهاز الـ "جي بي اس" في كعب قدميه، لكي تتم مراقبة تحركاته في كل دقيقة وثانية، أو أن يكون تحت حظر تجول من الساعة السابعة إلى الساعة السابعة إلى أن تنتهي القضية. وأخيرا يا حضرة القاضية، إن قانون الولاية 22717 الفقرة، "ب"، وأيضا الدستور الأمريكي، الفقرة الرابعة عشرة ينصان بأنه "يجب إعطاء المتهم فرصة لدفع الكفالة لأنه بريء حتى تثبت إدانتة".

بعد إنتهاء المحامي هاربر من مرافعته، بدأت القاضية بالتفكير قليلا ثم ذكرت بأنه مبدئياً ليس لديها مانع من خروجي من السجن تحت تلك الشروط والملاحظات، ولكن قبل أن تعلن قرارها النهائي في الموضوع، سألت المدعي العام/ وكيل النيابة ما إذا كان لديه أي تعليق أخير. فبدأ وكيل النيابة بإختلاق الأكاذيب صراحة، وراح يقذف بقنبلته اليدوية في القاعة متخوفاً من أن تميل القاضية نحو صفي والموافقة على الخروج بكفالة، قائلا:

– إن هناك فتيات أخريات قد قام المتهم بالإعتداء عليهن جنسيا، وهن في مرحلة رفع القضايا، ولدينا معلومات فيدرالية ليس بإستطاعتنا حاليا إظهارها لسريتها، أن المتهم عضو في منظمة إرهابية، وأنه رئيس خلية إرهابية نائمة في أمريكا، تقوم بجمع الأسلحة والذخيرة في انتظار اللحظة الحاسمة للهجوم. لذلك نحن وبشدة نعارض السماح له بدفع الكفالة المالية والخروج من السجن تحت أي شرط من الشروط.

فسألته القاضية عن مدى جدية تلك الإدعاءات، وبخاصة مسألة الإرهاب والتسليح، فأجاب:

– لقد قامت الـFBI بوضعة في لائحة عدم الطيران (موحيا بأنها مسألة جادة للغاية).

فما كان قرار القاضية إلا رفض إعطائي خيار دفع الكفالة المالية. وهكذا جنى علي الأمريكيون بإدعاداتهم إبتداءا من تلك الفتاة الحمقاء ميمي، ومرورا بالمحققة الخبيثة، وإنتهاءاً بالمدعي العام، فجميعهم قد أضاف كذبة أو كذبتين، مما كلفني البقاء في الزنزانة رقم 3 لمدة تقارب السنتين.

غارة جوية في الزنزانة 3

ها قد إنتهت المرافعة، وها أنا سجين في زنزانة حقيرة قذرة لا يوجد بها إلا أربعة حوائط بيضاء ومرحاض ستيل ملوث، ويشاركني الزنزانة رجل أمريكي أبيض، يغط في نوم عميق. دخلت إلى الزنزانة المخصصة لي فاقداً الأمل بكل شيء، ومفكراً بكل الخسائر التي تكبدتها والتي تراكمت فوق بعضها البعض بسبب هذه المحنة. وبينما أنا أفكر وأفكر، استيقظ أخيرا الرجل الأبيض من نومه فراح ينظر إلي قائلاً:

- إسمح لي.

لم أفهم ما يقصده!

فكررها ثانية:

- إسمح لي أريد استعمال الحمام.

أي حمام؟ ليس هناك أي حمام والباب مغلق بإحكام. فأيقنت أخيرا أنه يريد إستخدام المرحاض المتواجد في زاوية الزنزانة والذي يبعد مترين فقط عن سريري! نحن في زنزانة يبلغ حجمها 3×3×3 متراً، أي حجم حمام من حمامات البيوت في دولة الكويت. فقلت له يائسا، "إصنع ما شئت". فأدرت وجهي إلى الجهة الأخرى كي لا أنظر إليه، بينما يقوم الرجل الأبيض بقضاء حاجته. وفي مجرد ثوان فقط امتلأت الزنزانة بالرائحة الكريهة وكأنها تنبعث من حمار ميت لأسبوع أو أسبوعين! فلم أستطع التحمل، فرحت أغرس أنفي في الوساده محاولاً خنق نفسي، لعلى أنجو من اشتمام تلك الرائحة.

إنتهى أخيرا صاحبنا من غارته الجوية بعد 15 دقيقة أو ما شابه، ثم وقف ولبس سرواله قائلاً، "إسمح لي لا بد وأنه مفعول وجبة الغداء". كان من الممكن التخلص من تلك الرائحة بشكل أسرع إذا كان المرحاض يعمل بصورة عادية، ولكنه للأسف الشديد صنع بطريقة تسمح بجر السيفون فقط مرتين كل ثلاثين دقيقة. وذلك بسبب ما يقوم به المساجين من أعمال تخريبية! حيث يقوم البعض منهم بالعبث بالمرحاض وتخريبه، أو سده بإستخدام الشراشف والملاءات، والضغط على زر السيفون مرات عديدة حتى يفيض المرحاض وتمتلئ الزنزانة بالماء.

ويحك يا ياسر! شتان ما كنت عليه وما أخذوك إليه! بعد حياة الرخاء والجاكوزي والسبا وحمامات السباحة والعطور الفرنسية والملابس الإيطالية، وبعد السيارات الثمينة وإرتياد أغلى وأفخم المحال التجارية، والسفر حول العالم على الدرجة الأولى! وبعد المكانة الإجتماعية الرفيعة، وحب الفن وتذوق الموسيقى، والإحترام والتقدير، ومشروع الدكتوراه... ها أنت الآن قابع في زنزانة تشبه أحد حمامات بيوت الظهر إلى حد كبير، وتنبعث منها الروائح الكريهة المقززة في كل حين، ويشاركك به رجل قذر لا يعرف حتى تنظيف مؤخرته!

وأخيرا فتح السجان الأبيض باب الزنزانة لإخراجي لمقابلة أحدهم، فأنقذني من سموم الرائحة الكريهة التي تركزت في المكان، وقال منقرفاً، "اللعنة! ما هذه الرائحة الكريهة؟". ولكن والله عندما فتح باب الزنزانه شعرت بنفحة هواء نقي فحاولت الإستنشاق منه طويلاً بقدر المستطاع. فقال السجان:

– ياسر البحري، سآخذك للوحدة للقاء شخص مهم!

– من هو! المحامي هاربر؟

– لا، شخص أهم بكثير.

فأخذني من ذراعي إلى الوحدة للقاء ذلك الشخص المهم. وعند وصولي، وإذا بي أرى الرجل نفسة المحقق الفيدرالي، السيد جيمس الذي كان يرافق المحققة الخبيثة في مواقف ذلك المبنى المهجور. ها هو جالس على مكتبه وأمامه ملفا مفتوحاً فظللت واقفا أمامه مقيداً ومكبلاً وكأني عمر المختار عندما كان في مكتب غراتسياني، ذلك الجنرال الإيطالي الجبان الذي رفض جلوس عمر المختار على الكرسي غير عابه لكبر سنه. فقال لي المحقق الفيدرالي:

– يا سيد ياسر البحري، معك المحقق الفيدرالي جيمس، إني هنا لكي أسألك بعض الأسئلة، ولكن قبل أن تبدأ بالإجابة أريدك أن تكون صادقاً معي، لأنك الآن تسأل من قبل الحكومه الفيدرالية. هل تفهم؟

فأجبت بنعم. فبدأت تقلصات المعدة والمغص بالظهور مجددا، وبدأ العرق يتصبب والأرجل ترتعش وتهتز، وأخذت عيناي تعانيان من الشعور بالحرقة. فبدأ المحقق الفيدرالي، "ما إسمك؟" فأجبته. "كم طولك؟". فأجبته. "كم هو وزنك؟" فأجبته. "هل أنت من الكويت؟". نعم. ثم بدأ:

– ماهي كنيتك؟

– عفواً! (قلتها مستغربا).

– هل لديك أسماء أخرى تعرف بها؟!

فسكت لوهلة أتساءل في نفسي، "ما هذا السؤال الغريب؟ ومن أنا؟ رأفت الهجان أو رفعت الجمال؟" أسماء أخرى؟ أسماء دلع؟ أيوه، مثل: ياسر، يسور، ياسروه، يويسر. فراح يسألني السؤال نفسة مرة أخرى، فأجبته أنه ليس لدي أي أسماء أخرى سوى ياسر البحري. فراح يزعق في وجهي غضبا وكأن بيني وبينه ثأر، قائلا:

– اسمع! اسمعني جيداً! أنا محقق فيدرالي فلا تكذب. فإن فعلت، سوف يكلفك ذلك الكثير. نحن نعلم من أنت، وإن لم تتعاون معنا، أعدك أنك لن ترى الحرية أبداً من جديد، لا تكذب!

فعادت رجلي لعادتها القديمه، وبدأت بالذوبان، وأصبحت لينة ليونة خيوط السباغتي. فلم يعد بإستطاعتها حمل جسدي، ولكن بحمد الله إستجمعت شجاعتي وقلت له ما قد علمني إياه

المحامي هاربر لهذه المواقف متلعثما ومتأتئاً:

– لا أريد التحدث مع أحد الآن إلا بحضور المحامي؛ أنا أعرف حقوقي القانونية، سوف أتحدث فقط بوجود المحامي هاربر وهذه بطاقته، يمكنك الإتصال به إن شئت.

فنظر إلي مستهزءا وقال مبتسما ابتسامة صفراء:

– سأعود قريباً! وإن عدت فلن تكون عودتي تحمل أخباراً سارة نهائياً.

وقبل أن يطردني من المكتب قال لي:

– على فكرة! كم عدد قضايا الإغتصاب المرفوعة ضدك؟

– واحدة (أجبت).

– هل أنت متأكداً؟

– نعم... لماذا؟

– فكر في الموضوع، وإن قمت بتغيير رأيك، دعنا نعلم قبل فوات الأوان.

ثم أشار إلى السجان ليأخذني إلى الخارج، فشدني السجان من ذراعي، وراح يأخذني إلى الزنزانة، ولكن ظللت أفكر بما قاله، ماذا يقصد؟ وعن أي موضوع يتحدث؟ كانت كلماته كالطلاسم بالنسبة إلي، ولم أفهم قصده، فأعادني السجان إلى زنزانتي التي حذفت بها لتزيد همومي هما آخر. وبعد تمام الساعة من تلك المقابلة، دُعيت إلى وحدة السجن من جديد، ولكن هذه المرة دعوتي كانت لأخذ بصماتي وتصويري، على الرغم من أنهم قد قاموا سابقا بنفس العملية! فعلمت حينها أنه قد رفعت علي قضايا أخرى غير القضية الأولى التي رفعت ضدي من قبل ميمي، أوجزها على النحو التالي: ثلاثة تهم "إغتصاب"، وثلاثة تهم "محاوله إغتصاب" مقدمة من فتيات أخريات، وستة تهم "توفير الخمرة لقاصرات تحت الواحد والعشرين عاما"، وستة تهم أخرى "إعتداء بالضرب". أي بإجمالي 18 تهمة أعطيت لي خلال خمسة دقائق!

نزل علي الخبر كالصاعقة، فبدأت ركبتي تضرب بالأخرى من شدة الرعشة، فإرتخت مثانتي وبللت سروالي لا إراديا. أجتاحني شعور بالانهيار الكلي، فأصبح عقلي عاجزا عن إستيعاب ما يحدث، فأنا محاط ومحاصر بعدد من القضايا لها أول وليس لها آخر. فإن استطعت أن أبرئ نفسي من التهمة الأولى فكيف لي أن أبرئ نفسي من التهم الثماني عشر الأخريات؟ فنظرت إلى الأعلى ورحت أصرخ بأعلى صوت حتى كاد العِرق الدموي في جبيني أن ينفجر: "مؤامرة".

(21)

مؤامرة للقضاء علي!

وبعد الإنتهاء من أخذ بصماتي وتصويري من جديد، كنت عاجزاً عن الحركة، فسحبني السجان من ذراعي محاولاً مساعدتي على النهوض، فقد إنهارت أعصابي، وخارت قواي تماماً. وأخذني السجان إلى العيادة، وإذا بها تلك الممرضة المبرمجة على سؤال الأسئلة الحمقاء ذاتها:

– هل تود الانتحار؟

– هل تود إيذاء نفسك أو الآخرين؟

– طيب إنتهت المقابلة. خذوه إلى زنزانته فهو بخير!

فسحبوني إلى زنزانتي، ورجلاي تزحفان ورائي زحفا، فوصلت أخيراً إلى الزنزانة، ومن شدة الخوف والقلق، بدأت بإستعمال المرحاض للتبول كل خمس دقائق وكأنني شربت ماء حوض سباحة بأكمله. قال لي شريكي في الغرفة، "لابد وأنك تعاني من مرض السكر". ولكن كان الخوف والقلق من المجهول الذي جعلني أفرغ كل سوائل جسدي في نصف ساعة، حتى أصبحت ناشف وكأنني مكنسة من القش. ها أنا متهم بالعشرات من التهم الخطيرة للغاية، وهناك محقق الـFBI يقول بأنه سوف يقدم المزيد ويحذفني وراء الشمس. تخيل أنك تواجه تهم كفيلة لوضعك في السجن لنصف قرن. وقد يكون هناك المزيد من التهم لا تعلمها بعد. وبعد ساعات فقط ظهرت الشعرات البيضاء على رأسي من شدة الإنفعال واليأس والتفكير: "ويحك يالبحري لقد اشتعل الرأس شيباً!"

بعد أن تبخرت كل سوائل جسدي، قمت بالصعود إلى سريري العلوي وبدأت بالتساؤل، كيف حدث كل ما حدث؟ وهل كل هذا محض الصدفة ؟ كم تمنيت أن يكون ما حدث مجرد حلم مزعج أنساه حينما أستيقظ منه، أو أن يكون مجرد خطأ مطبعي. فماذا حدث؟ أعلم جيدا علم اليقين أنني لم أقترف ذنبا، وأنني لست عضوا بأي منظمة إرهابية (أو سلمية). فلم تكالب علي الذئاب هكذا؟ كيف حدث كل ذلك؟ ومن ورائها؟

فبدأت أرجع بذاكرتي إلى الوراء، وتتضح لي بعض الأمور المريبة التي كانت قد حدثت ولم يكن لها أي تفسير في حينها:

أولا: على الرغم من كتابة ساعات العمل على باب المقهى بشكل واضح، إلا أن تلك الفتاة المدعوة ميمي أتت للقائي في الصباح! وجلست على عتبة الباب قبل وصولي بدقائق! فما أدراها بعادتي للذهاب إلى المقهى في الصباح؟! لابد وأني كنت مراقباً حينها، وأن أحدهم دفعها لفعل ما فعلت.

ثانياً: تصرفاتها الغريبة عند دخولها المحل وجرأتها الزائدة، ومحاولاتها للتقرب مني بشكل سريع ورمي نفسها علي بفضاحة.

ثالثاً: ثم إتهامي بالإعتداء الجنسي والإغتصاب.

رابعاً: كيف عرفت المحققة اللئيمة وزميلها عن مكان منزلي الجديد، على الرغم من أنني لم أقم حتى بتحويل إسمي على فاتوره الكهرباء والماء بعد، ولم يكن هناك أحداً يعلم بشرائي لهذا البيت ولا حتى أهلي ولا العفريت الأزرق! إذن ... لابد أن أحدهم كان يراقبني خلال ذلك الوقت، لا محاله.

خامساً: كيف وجدت شوائب مادة الـ"روفي" في دمي عند عمل التحاليل في عيادة الدكتور، وبعد ساعات فقط من تلك الليله المشئومة؟! لابد وأن الفتاتين، ميمي وتارا، هما من قامتا بتخديري في تلك الليلة. ولكن لماذا؟ لحظة! هناك شيئا قد غاب عن ذهني نهائيا.

ماذا حصل لتلك النقود، عشرات الآلاف من الدولارات، التي كانت موجودة في درج سيارتي قبل أن تاخذ تارا مفاتيح السياره للبحث عن المزيد من السجائر؟ لقد كانت الأحداث متلاحقة لم يسعني حتى مجرد التفكير في النقود، وهي أرباح المقهى، التي كنت أودعها في البنك بين كل يومين عمل، والتي تركتها في درج السيارة في تلك الليلة المشئومة. لقد إختفت النقود!

أنا لا أدرك فعلا سيناريو الأحداث، فهل ياترى تم خداعي من قبل فتيات صغيرات قمن بسرقتي، ولكي لا يفتضح أمرهن قمن بالتجني علي بتهمة الإغتصاب؟ هل يعقل أنما حدث لي من تدبير فتيات لا تزيد أعمارهن عن العشرين عاما؟ هل تصدق هنا المقولة: "ضربني وبكى وسبقني واشتكى"؟ أم هي كما قالها عبدالله الرويشد، الفنان الكويتي، "طفله ولعبت فيني" و "غلطه في ملفاتي"؟ لقد تشتت تفكيري مجددا، فأنا أشعر أن ماحدث لغزاً محيراً لم يحل بعد!

وبعد التفكير العميق، ومحاولة تصفية ذهني ودراسة تسلسل الأحداث، توصلت إلى نتيجه واحدة، ألا وهي: أنه على الرغم من أن الظاهر في ساحة الأحداث تهم موجهة من فتيات صغيرات، إلا أنه لا بد وهناك عقل مدبر وراء هؤلاء الفتيات، هو من قام برسم تفاصيل العملية التي نفذت بإحكام من قبلهن، ولكن من هو ذلك الشخص؟ وما سبب تعمده تدمير حياتي بهذا الشكل؟

(22)

نضال السوري

نضال (فتوح) السوري، هو شاب في أول الثلاثينات من العمر. بعد السلف والدين يمينا ويساراً، إستطاع أن يفتح محل قهوة في تالاهاسي بإسم "ليالي الشيشة"، وكان ذلك في 2003، أي سنتين قبل أن أفتح أنا "كافية شيشة" في نفس المنطقة ولكن في الجانب الآخر منها. حين إذن، كعرب في أمريكا، بدأنا بالتعود على محله، لتدخين الشيشة وشرب الشاي والقهوة. ولكن كان محله صغيراً وضيقا للغاية. وبعد أشهر من إرتياد المقهى، أصبحنا أنا ونضال السوري أعز صديقين، وبعد فترة من الزمن توثقت علاقتي بنضال فقررنا فتح مقهى أكبر، وفي مكان أقرب لطلبة الجامعة، والذين يعتبرون هم زبائن المحل الرئيسيين وفي المقام الأول. ولكن بعد النقاش والتباحث، لم نتفق على الكثير من المحاور الأساسية للمشروع، واحتدم النقاش بيننا بشكل كبير، مما جعلنا نتراجع عن الفكرة وقطع علاقتنا، وتوقفت عن إرتياد المقهى الخاص به تماما.

وبعد فتره من الزمن، قررت فتح محل قهوة وشيشة كبير قريب من الحرم الجامعي لجامعة ولايه فلوريدا. وفعلا تم ذلك في سنة 2005، بعد شحن جميع لوازم المحل وديكوراتة من الكويت. فجن جنون نضال السوري عندما علم بأني بدأت في بنيان المقهى، وراح يحاول إعاقة فتح المكان. فبينما كنا نقوم ببناء المكان من الداخل—كرفع الحوائط، وتمديد الكهرباء، والأدوات الصحية—كان نضال السوري يتصل بمفتش غرفة التجارة مشتكياً بأننا نعمل ونبني دون ترخيص البلدية، وأنه يجب إيقافنا، لدرجة أنه في إحدى المرات قال لي مفتش البلدية، "أنا شخصيا لا يهمني ما تقوم بفعله داخل محلك، ولكن ثمة شخصا ما كان يقوم بالإتصال بشكل يومي والشكوى بإصرار مما دفعني للحضور إلى المحل لأرى بنفسي والتأكد من مدى صحة شكواه وإدعاءاته". ولكن لم تعطى لي أي مخالفات من البلدية على الرغم من تحريضه الدائم، فكنت أعمل بشكل قانوني ورسمي حتى تسنى لي فتح المقهى بعون من الله.

وبعد شهرين من إفتتاح المقهى الخاص بي، تكبد نضال الكثير من الخسائر المادية مما اضطره إلى أن يغلق محله "ليالي الشيشة"، وذلك بسبب قلة الزبائن وعدم المقدرة على دفع إيجارات المحل والموظفين. فاستشاط نضال غضباً وبدأ الشرار يخرج من عينيه: "قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق". ولم أتمنى والله أن أقطع رزق أحد، ولكن هكذا هي الحياة، وخصوصاً في أمريكا: "تأكل السمكة الكبيرة السمكة الصغيرة" و "يوم لك ويوم عليك".

ولكن صاحبنا لم يأخذ الأمر بروح رياضية، حيث قام نضال السوري بإرسال بعض البلطجية السود لتحطيم إعلانات المحل، الواقعة بجانب الطريق المؤدي إلى المقهى، وتلك المعلقة فوق المحل مباشرة. فقلت لا بأس لابد أنه سوف يتوقف بعد حين إذا ما تجاهلته وتجاهلت تصرفاته الطفولية. إلا أنه في الحقيقة لم يتوقف عن ممارساته وتعمده مضايقتي. فقام بإرسال أشخاص يدعون بأنهم زبائن، فيأكلون ويشربون ثم يقومون بالهرب دون دفع الفواتير. فقلت لا بأس، لن أرد عليه، "الحقران يقطع المصران".

ولكن لم يكتفي نضال بما فعله، فبعث بإحدى موظفاته للعمل لدي، وعندما بدأت بمباشرة عملها، قامت بذم محلي ومدح محل نضال وتطفيش الزبائن بإختلاق الأكاذيب كإدعائها بأننا، "نقوم بخلط المعسل بنشارة الخشب". فاعتبرتها محاولات يائسة من شخص "مسكين ضاقت به السبل"، "ويا جبل ما يهزك ريح". ولكن، لم يتوقف نضال عند ذلك الحد، فقد أرسل بلطجية ليقوموا بتخريب حمامات المحل وتكسير الأنابيب الصحية حتى يطفح المحل بالماء. فقلت لا بأس، حالته ميئوس منها، و تذكرت المقوله الشعبية المشهورة، "الحره تجيب العره".

وفي يوم من الأيام، وصلت به المواصيل بأن يضع رسالة في صندوق بريد مسكني، وقد كتب بخط يده وباللغة العربية: "إسمع يا ياسر، وخذ ما أقوله بجدية، وإعتبره تهديدا إن شئت. إلتفت إلى دراستك وأهلك وبناتك، واترك عنك تجاره الشيشة. وإن لم تفعل، فالذنب هو ذنبك، والله لأوديك خلف الشمس، وقد أعذر من أنذر".

فقالت لي زوجتي خائفة أنه علينا الحذر من هذا المجنون المختل عقلياً. فأجبتها:

- لا تخافي، إن صاحبنا يائساً قد ضاقت به السبل!

هذا هو نضال السوري وهذه كانت بعض من حيله، ومواقفه العدائية تجاه نجاح محلي. فهل ياترى هو كان وراء تلك المؤامرة للإيقاع بي؟ علما بأنه قد افتتح قهوة وشيشة أكبر من السابق وأقرب إلى تجمعات الطلبة، وبدأ بتقليد محلي بما فيه وحتى صيغة قائمة المحتويات.

هل ياترى هو وراء تلك المؤامرة؟ أم الـFBI؟

الـ FBI؟

على الرغم من غرابة ما سأسرده عليكم، إلا أنها قصة حقيقية. وكما يقال عند الغرب، "أحيانا، الحقيقة هي أغرب من الخيال". ففي يوم من الأيام، وبعد أيام معدودة من إفتتاح المقهى، بينما كنت في طريقي ذاهباً إلى الحرم الجامعي وبالتحديد في مواقف قسم الفلسفة المخصصة لطلبة الجامعة، وذلك للقاء مرشد رسالة الدكتوراه والنقاش معه، وبينما أنا أخرج من سيارتي في تلك المواقف ذات الأدوار المتعدده، إقترب مني رجلان أبيضان يلبسان ملابس مدنية، ولكن لم تكن ملابس الطلبة العاديين كالشورت والفانيلة الملونة. ويبدو أنهم في الأربعينات من العمر، أي لم يكونا طلبة جامعة!

قال أحدهم:

– ياسر البحري؟

فأجبت:

– نعم.

– معك عميل ال إف بي أي وإسمي شاك، وهذا زميلي العميل جونسون نود الحديث معك.

– عن ماذا؟

– نعلم بأنك قد إفتتحت محلاً عربياً للقهوة والشيشة، وبأنه يعتبر محلا ناجحاً وله الكثير من الزبائن.

– نعم هذا صحيح. وماهي المشكلة؟

– لا، ليست هناك مشكلة معك، ولكن لدينا الإهتمام ببعض الزبائن الذين يرتادون محلك.

فقال الآخر:

– لدينا إهتمام بالجاليات العربية والباكستانية والإيرانية والتركية.

– فهل هناك أحد معين؟

– ليس بعد ولكن نود منك أن تساعدنا في عملنا.

فقال الآخر:

– نحن نقوم بمراقبة بعضهم ونحاول معرفة ما إذا كانوا متورطين في عمليات ما أو حتى يتعاطفون مع جماعات إرهابية.

فقال الأول مضيفا:

– نود معرفة ما إذا كان بعضهم يقوم بجمع الأموال والتبرعات لتقديمها كدعم مالي لمنظمات إرهابية.

تذكر أن هذا اللقاءقد وقع في عام 2006، فالحروب الأمريكية في العراق وأفغانستان و"الحرب على الإرهاب" كانت في أوجها، وأحداث الحادي عشر من سبتمبر لم تكن بالبعيدة، وقد كانت هناك تخوفات من قبل الحكومة الأمريكية بأن بن لادن وجماعته ينوون القيام بهجمات أخرى مما يستدعي من الحكومة اليقظة. وكانت المباحث الفدرالية نشطة بين الجاليات الإسلامية والعربية منها على وجه الخصوص. أحيانا تقوم بإصطياد المتآمرين على أمن أمريكا، وأحيانا تقوم بإختلاقهم!

أجبت بأني لم ألاحظ وجود أي شيء فوق العادة، وأن محلي هو محل عام يدخل فيه كل الناس من مختلف الفئات والأعراق. فقال أحد رجال الـ FBI

– نعلم، ولكنا نريد منك المساعدة.

– وماهي؟

– نريد منك العمل معنا للكشف عن هؤلاء المتعاطفين!

– وكيف؟

– الأمر سهل للغاية. نضع الميكرفونات في المحل وتقوم أنت بإستدراجهم لسحب الكلام منهم عن طريق فتح مواضيع الحروب والإرهاب.

فأضاف الآخر:

– نعلم أن رسالتك للدكتوراه هي عن الفلسفة السياسية، أليس كذلك؟

تبا له! إنه يعلم الكثير عني! فلابد إني قد وضعت تحت المجهر، فقلت الحمد لله على أنهم لم يتصيدوا علي بعض الهفوات أو الآراء التي يمكنها أن تدينني سواء في المحل أو في الجامعة ! فقال أحدهم:

– لا تخف يا سيد ياسر. نحن فقط نحتاج إلى مساعدتك.

فقال الآخر:

– هذا لا يعني بأننا لا نستطيع إدانتك! (راح مبتسماً).

يريدون مني أن أعمل مخبرا لصالح الـFBI ! ومن أنا حتى أفعل ذلك؟ أنا بالنهاية مجرد طالب كويتي مبتعث. فليذهبوا للجحيم بطلبهم هذا. فقلت لهما:

- لا أظن أنني أستطيع فعل ذلك، وإن حاولت فلن أنجح فأنا ممثل فاشل.

فقال أحدهم:

- فقط فكر بالموضوع ولا تستعجل.

ولكن لم أتفوه بأي كلمة. وقبل أن يختفيا بين مواقف السيارات، قال أحدهم عبارة لم أفهمها:

- إن أحداً ما سوف يدخل السجن، لا محالة! من الأفضل أن يكون ذلك الرجل أحدا آخر غيرك.

منذ ذلك اليوم بدأت تحدث لي أمور غريبة لم أستطع تفسيرها حينذاك. وبعد أسبوعين من ظهور رجال الـ FBI، ظهر رجل إدعى بأنه "أردني" الأصل (مدعيا بالطبع) في محلي باحثاً عن مدير المكان فرحبت به ترحيبا وإستضفته في مكتبي خير إستضافة. فبعد الحديث قال مادحاً المحل:

- والله يا زلمة أكثر من هيك عبث!

- شكرا.

فراح يعرض المساعدة:

- والله يا زلمة بدي أساعدك.

- وكيف؟

- لدي في سيارة الفان في الخارج كل أنواع التبغ من معسل إلى سجائر أمريكية ماركات. أريد أن أبيعها لك بسعر رخيص.

- وهل أنت وكيل سجائر مرخص من فلوريدا ولديك شركة أو محل؟

وجب علي الحيطة. لأنه قانونياً، لا يسمح لي بشراء أي نوع من أنواع التبغ إلا من أناس مرخصين في ولاية فلوريدا، بعد أن قاموا بالطبع بدفع الضرائب عليها. فإن إخترقت القانون، علي دفع الغرامة الهائلة ويمكن أن تسحب رخص المحل أو حتى السجن 5 سنوات.

أجابني ذلك "الزلمة" أنه ليس بمرخص وليست لديه أي شركات أو محلات، "بدي أترزق الله". في الواقع، هذا تبغ قد تم تهريبة من الولاية المجاوره لولايه فلوريدا وهي ألاباما، فسكان ولاية آلاباما يدفعون ضرائب قليلة على التبغ، مما يجعل سعر التبغ عشر سعره في فلوريدا، وكان ذلك حافزاً قد دفع بعض العرب والآخرين للتجارة بالتبغ المهرب، عن طريق شرائها من ولاية ألاباما، وثم بيعها في فلوريدا، ولكنها تعتبر جريمة فيدرالية. فقلت له:

- لا شكراً لست بحاجه لها.

ولكنه أصر على إعطائي كل ما في سيارة الفان مجاناً. والسبب؟

- بدي أساعدك يا زلمة.

فصمت لوهلة أتذكر ذلك الرجل الخائن الذي دس السم في أكل المجاهد السعودي ابن الخطاب في أدغال الشيشان في الألفين؛ وذلك الرجل الخائن الذي دل اليهود على مكان خالد مشعل في الأردن في التسعينات لإغتياله؛ وذلك الرجل الذي دل على بن لادن في السودان ليغتاله الأمريكان في التسعينات وكان يعمل للموساد؛ وغيره من هؤلاء المرتزقة الذين يريدون الإيقاع بالشباب العرب والمسلمين في أمريكا من أجل حفنة من الدولارات . فقلت له:

- لا شكراً.

ولكنه أصر لدرجة كبيرة وغريبة. فقام بإنزال البضاعة ووضعها أمام المحل على الرغم من رفضي المستمر، مما إضطرني لفتح الهاتف النقال والقول له محذراً:

- إن لم تأخذ أغراضك وترحل سوف أتصل بالشرطة!

هنا علم صاحبنا بأنه GAME OVER ،"اللعبة إنتهت"، فرحل ولم أراه من جديد.

وبعد تلك الحادثة بشهرين، وبينما كنت أساعد الموظفين في إعداد الشيش والأراجيل ووضع الثلج والماء البارد فيها، فإذا بطالب جامعي في أوائل الثلاثينات من العمر، أسمر اللون عرف عن نفسه بأنه من "المملكة العربية السعودية"، ولكن لهجته لم تكن سعودية على الإطلاق، بل كانت أقرب إلى الشامية. وبعد السلام والترحيب، بدأ الطالب مباشرة بالتحدث عن السياسة، وعن حروب أمريكا والجرائم في حق الإنسانية، وأنه يجب على محكمة العدل الدولية إصدار مذكرة إعتقال لبوش "الإبن"، رئيس أمريكا، وما إلى ذلك محاولاً إيقاعي بالحديث في السياسة وكأنه ينتظر مني زلة.

أنا لا أتحدث في السياسة وخاصة مع الأجانب والأغراب. كانت حياتي مابين الدراسة والبيت، وطموحي التجاري المتمثل في المقهى؛ وجرائم الحرب التي إرتكبها الجنود الأمريكيون في أفغانستان لم تكن ضمن اهتماماتي الشخصية على الرغم من تألمي لما يعاني منه أخواننا في كل مكان. بالإضافة إلى إيماني بأن السياسة ليست لكل من هب ودب، وكل متردي ونطيح وما أكل السبع! إن السياسة لها أهلها وناسها؛ السياسة صنعه لها محترفيها. فبعد سماع هذا "الطالب" لإجاباتي الهادئة مثل، "لا حول ولا قوه إلا بالله"، و "للبيت رب يحميه"، و"الله كريم"، راح يحاول بالضرب على الوتر الحساس قائلاً:

- ها أنت تنعم في رخاء وترف أمريكا تدفع لهم الضرائب بينما تقوم حكومتها بشن الحروب على المسلمين وتقتل أبنائها!

وراح مضيفاً:

- يجب عليك دفع كفارة لكل ذلك.

فقلت:

– وكيف أفعل ذلك؟

وإكتشفت أنه كان يلمح بضرورة التبرع بأموال للمجاهدين، وهو الأمر الذي يُعد تهمة لا تُغتفر، متمثلة بتقديم المساعدة المالية لجماعات إرهابية وعقوبتها 30 سنة. فقلت له مستهزءاً:

– لا ... ليس عندي النقود الكافية.

فقال:

– لماذا لا نقوم بإختطاف شاحنات البنزين بينما تقوم بتعبئة فوهات محطات البنزين والإصطدام بها بالمبنى الفيدرالي في تالاهاسي؟

فقلت له:

– والله إنها لفكرة عظيمة! أخبرني بموعد تنفيذ العملية حتى أقوم بإبلاغ الشرطة عليكم.

ولكنه واصل محاولاته لإيقاعي بالحديث وتوريطي سواء بالتطوع، أو حتى بالتبرع بالمال، ولم يتوقف وييأس من محاولاته حتى صدمته بقولي:

– أعز الله أمريكا حكومة وشعبا.

فرجع صاحبنا بخفي حنين.

وهكذا إستمرت المحاولات، الواحده تلو الأخرى، ولكن دون جدوى، فهل ياترى يأسهم من توريطي في أمور سياسية جعلهم يطبقوا علي أقدم حيلة في التاريخ؟ إستخدام النساء! حقا لا أعلم....

أم كان عناصر من الـATF وراء مصيبتي؟

(24)

الـATF

ATF هي ثلاثه أحرف إنجليزية إختصار لجهة حكومية فيدرالية مسئولة عن مراقبة بيع الخمور والتبغ والأسلحة:

Alcohol, Tobacco, Firearms

أُنشأت هذه الجهه في الأربعينات من القرن العشرين، لمراقبة وتشريع وتقنين القوانين المتعلقة ببيع وصنع وإستعمال وأيضا تهريب الخمور والتبغ والأسلحة. بالإضافة إلى ذلك، لدى هذه الجهة صلاحياتها وقوانينها الخاصة لإلقاء القبض على المخالفين والتحقيق والمراقبة والتحري .

ومن أجل فتح كافية شيشة وبيع التبغ والمعسل، كان يجب علي التقديم على رخص بيع التبغ من تلك الجهة. وعندما ذهبت إلى مبناهم في مدينة تالاهاسي، أُعطي لي رقما للإنتظار في الدور في قاعة الإستراحه الأمامية. وعندما نودي بإسمي ورقم دوري في المكبرات الصوتية، توجهت نحو الباب الرئيسي الذي من خلاله يدخل المراجعون إلى الممر الذي يوصلهم إلى المكاتب العديدة. وعند محاولتي الدخول من ذلك الباب، خرج رجلان في نفس الوقت من الباب ذاته فراح أحدهم بالاصطدام بكتفي وكأنه بشكل متعمد، فسقط الملف الذي يحمله على الأرض، ففتح الملف في المنتصف وإذا بي أرى صور لأشخاص أعرفهم. صورة هشام الفلسطيني وأخيه وليد أبواللبن، وصورة فلسطيني آخر إسمه نضال أبو الحكم، وأيضا صورة صديقي آدم الألباني وآخرين لم أتعرف عليهم.

هشام الفلسطيني هو زير نساء عرف بالترف واقتنائه السيارات الفخمة والساعات الثمينة والبدلات الماركات. قلما يعترف بأنه فلسطيني، وإذا سأله الأمريكيون عن أصلة كان رده هو، "أنا من إسرائيل"، أو "من القدس". ولكن ليس من عرب إسرائيل بل من الضفة الغربية. أما أخوه وليد أبواللبن، فهو رجل مكافح يعمل ليلاً ونهاراً لتطوير ذاته. يملك عدة محطات لتعبئة البنزين وعدداً من البقالات الصغيرة في حارات السود، ويُعد العقل المدبر لكل الأمور التجارية الشرعية منها وغير الشرعية للعائلة، مثل التهرب من الضرائب وتجارة تهريب التبغ، وما إلى ذلك.

أما نضال أبو الحكم، فهو صاحب أكبر خمارة في تالاهاسي، وهو أيضا زير نساء على الرغم من كبر سنه، فهو في العقد الخامس من العمر وكل صاحباته في العشرينات! وخاصة " فلبونه" تلك الألبانية العارضة للأزياء. لأبي الحكم مقولة مشهورة دائما يكررها، وهي:

– ربي فتح علي، ورزقني بهالخمارة؛ الحمدلله!

وهي عبارة متناقضة تنم عن شخصية قمة في التناقض، وعند سؤاله عن تناقض تلك العبارة، تراه يبتسم إبتسامة خبيثة ساخرة. أحيانا يطلق عليه أصدقائه إسم أبو جهل وليس أبو الحكم. وإختصاصه هو غسيل الأموال والتهرب من الضرائب. أما آدم، فهو كما ذكرت لكم سابقا، صاحب

مطاعم إيطالية عديدة في تالاهاسي وعقار هنا وهناك، وهو ألباني الأصل صاحب جنسية أمريكية، ويده أيضا في أمور غير شرعية أحياناً مثل غسيل الأموال والتهرب من الضرائب.

في باديء الأمر ظننت بأن سقوط الأوراق الخاصة بشخصيات معروفة لدي كان محض الصدفة، فتالاهاسي منطقة صغيرة وكأنها قرية. ولكن لاحقاً، علمت بأنها عملية مفتعلة أرادوا بها معرفة ردة فعلي، ولكني لم أظهر أي ردة فعل غريبة، فكل ما فعلته هو الإنحناء بشكل عادي ومساعدة أحدهم في جمع الأوراق مع الاعتذار بأدب، دون أن تتغير ملامح وجهي البته فلا يمكن الإستدلال أو الاستنتاج بمعرفتي بالأشخاص أو أي شيء، Poker Faceعلى مقولة الأمريكان.

ذهبت في طريقي إلى المكتب المعني لإستخراج الرخص اللازمة لممارسة نشاط المحل وهو بيع التبغ والمعسل، مفكرا بما قد جرى للتو. وبعد أن إنتهت المعاملة، خرجت من المبنى متوجها إلى مواقف السيارات، واذا بهذين الرجلين ينتظراني بجانب سيارتي. هنا بدأ قلبي بالخفقان بشدة، وكأني راكب في قطار الموت في مدينة الملاهي. فقال أحدهم:

– السيد ياسر؟

– نعم.

– معك مباحث الـATF وإسمي جون وهذا زميلي زاك. لدينا بعض الأسئلة التي تحتاج إلى إجابة.

فقلت له إنه ليس لدي أي مانع إن كنت أعلم الإجابة طبعا. فراح أحدهم يفتح الملف إلى صفحة صور الفلسطيني والألباني، فقال:

–هل تستطيع أن تتعرف على هؤلاء؟

– نعم... هذا هشام وهذا وليد وهذا نضال وهذا الألباني.

– ما هي علاقتك بهم؟

فأجبت وبصراحة بأني أعرف الثلاثة الأوائل معرفة سطحية في محطات البنزين أو المطاعم وغيرها من الأماكن.

– وما هي علاقتك بآدم؟

– هو صديق قديم ورجل طيب يحب مساعدة الغير.

– وهل قمت بأي عملية تجارية معهم كالشراكة أو البيع والشراء منهم؟

– نعم...أحياناً.

– من دون لف ولا دوران نريد منك خدمة.

- وما هي؟

- سوف نقوم بإعطائك نقود مرقمة، وكل ما عليك فعله هو شراء كمية كبيرة من بضاعة أبوالحكم وكمية من أبواللبن وأخرى من آدم والدفع مستخدما تلك النقود المرقمة التي سوف نعطيك إياها.

إن ما قاموا بعرضه لي هو أن أعمل كطعم لهؤلاء للإطاحة بهم متلبسين بإخفاء النقود والتهرب من الضرائب. ولكن ما دخل عناصر الـATF بهذا وهو عادة عمل الـIRS وهي مصلحة الضرائب؟ إن العلاقة هنا هي أنهم يودون معرفة ما إذا كان هؤلاء الأربعة يقومون بإخفاء النقود المكتسبة عن طريق بيع الخمور.

- كل ما نريده منك هو طلب كميات كبيرة من الخمر من هؤلاء بحجة حاجتك لبيعها في محلك كافية شيشة، ثم الدفع بواسطة تلك النقود المرقمة.

إن ما أراده الرجلان في الواقع اثبات تهمتين: "التهرب من الضرائب" وهي جريمة يعاقب عليها القانون بـ 30 سنة كحد أقصى، "واختلاس نقود الـATF" وهي أيضا جريمة يعاقب عليها القانون بـ 15 سنة كحد أقصى مع سحب كل التراخيص للأبد. يود هؤلاء إرسال أصدقائي العرب والألباني وراء الشمس لمدة طويلة، بحيث أكون أنا الوسيلة لتحقيق ذلك الهدف (خسئت يا هذا!). فقلت:

- لا أستطيع. وبدأت أتعذر بدراستي وأهلي وبيتي وبأني لا حاجة لي بكل ذلك الخمر والجعة،

- لا تخف لن تحتفظ بها؛ سوف نأخذها كأدلة للقضية.

- لا ... آسف لا ... لا أستطيع فعل ذلك.

- حسنا!

فقال الآخر:

- اعتبر أننا لم نرى بعضنا البعض ولم يقع هذا الحديث أبداً.

- مفهوم

ولكن لم أستطع نسيان الموضوع. فبمجرد أن وصلت إلى المقهى، قمت بعمل الإتصالات لتحذير الشباب الواحد تلو الآخر وخصوصا صديقي آدم. وفعلاً قاموا بأخذ الحيطة والحذر، فهل يا ترى قد أغضبتهم بفعلتي ورفضي التعاون معهم وتحذيري الشباب؟ فهل ياترى الـATF وراء هذه المصيبة؟

أم تراه ذلك الرجل... رجل المخدرات الذي إعتديت عليه بالضرب وثم قمت بطرده من المقهى في يوم من الأيام؟

عاد لينتقم؟

في إحدي ليالي كافيه شيشة المزدحمة في أواخر عام 2006، وشهور قليلة فقط قبل ليلة القبض علي، دخلت إلى غرفة المكتب لأخذ إستراحه قصيرة من ذلك اليوم الصاخب. بينما كنت أدخن السيجارة وأشرب القهوة التركية بعيداً عن إزعاج الموسيقى، دخلت مديرة المحل توفا هلعة وقالت:

– هناك من قد دس الماريجوانا في داخل رأس المعسل!

– وما أدراك؟

– رائحتها في كل مكان.

أعلم أن تدخين الماريجوانا والحشيش بكل أنواعه جريمة يعاقب عليها القانون في فلوريدا، لذلك يُعد تدخينها في المقاهي العربية في الولاية جريمة يعاقب عليها القانون بسحب رخص المحل وإغلاقه للأبد وربما حتى سجن صاحب المكان: أنا! فهذه قهوة محترمة وليست غرزة في شبرة الخيمة!

فطلبت من توفا أن تدلني على الطاولة، مصدر إنبعاث تلك الرائحة، ففعلت. وعند وصولي إليها، بدأت بإشتمام الرائحة فرأيت أحد رؤوس الأراجيل قد تم العبث بها وبأن ورقة القصدير التي تغلف التبغ قد رفعت، ثم وضعت على رأس المعسل بشكل عشوائي غير محكم الغلق. يالغبائهم! إما أنهم لم يتمكنوا من إغلاقها جيدا أو أنهم تابعين لجهة الـATF ويريدون الإيقاع بي، ليروا ماذا سوف تكون ردة فعلي؟.

كانت الطاولة تضم شباب صغار في السن، مجموعة من الأولاد والبنات. فقمت بالنداء على بعض الموظفين ممن يتمتعون بأجساد ضخمة بالإضافة إلى إبن عمي وليد البحري، المدرب السابق في كلية الشرطة الكويتية، ووالد زوجتي، وطلبت من أحدهم إحكام إغلاق أبواب المحل على كل الزبائن حتى لا يتمكن أحد من الخروج أو الدخول. بينما نقوم أنا وإبن عمي وبعض الأصدقاء الآخرين بتلقين الأولاد درساً لن ينسوه ابداً: "ده إنت نهارك أسود يا وله!"

فقام وليد البحري بإمساك أحدهما، بينما قام أحد الموظفين الضخام بسحب الآخر من ذراعه، فحاول الأول التملص والهرب. فقال له ابن عمي بالعربية، "تعال يا روح أمك". فسحبه هو الآخر: قبض بيده اليمنى شخصا وباليد اليسرى شخصا آخر ورفعهما إلى أعلى بقبضته القوية واتجهً بهما إلى غرفة المكتب، بينما أخذت الفتيات اللاتي كن بصحبتهم على الطاولة بالصراخ من شدة الخوف، ولكن لم يستطعن التحرك لمغادرة الـ كافيه.

في المكتب، أُدخل الفتيان ثم قمنا بإفراغ كل ما في جيوبهما من مال، ثم قمنا بضربهما وتهزيئهما، ثم أخذناهما على مرأى ومسمع من أصدقاؤهم والزبائن إلى الباب الرئيسي، نسوقهم

كما تساق الماعز من قرونها، ثم ألقينا بهم خارجاً، كما يُفعل في أفلام هوليود الأمريكية. وبينما كنا نقوم بذلك، أخذ أحد الفتيان يصرخ بعبارات مثل:

- ألا تعلم من أنا؟

- سوف تدفع الثمن غاليا!

- سوف تندم!

ثم عدت إلى باقي الشلة والذين بدت عليهم الصدمة فقلت لهم، "اخرجوا ولا تعودا إلى هذا المكان أبداً، لمصلحتكم".

وبينما هم يهمون بالخروج، سمعت بعض الزبائن يهمسون قائلين بأنه ما كان ينبغي على صاحب المحل فعل ذلك فهذا "شينو" هو أكبر زعماء عصابة مخدرات في الحرم الجامعي في تالاهاسي؛ بينما يقول الآخرون: لابد أنه سوف يعود وينتقم. فهل يا ترى شينو هو من بعث الفتاتين للإيقاع بي؟ هل كان شينو سبب تعاستي وما أنا عليه اليوم؟ أم كانت منظمة "هلال" اليهودية وراء مصيبتي؟

المغضوب عليهم

لقد تعلمنا في مدارسنا منذ الصغر على عدم الثقة باليهود فهم، "المغضوب عليهم" المذكورون في القرآن، وهم من سلبوا أرض فلسطين من أهلها، وهم وراء كل متاعب العالم بأسره. أما في خطب المساجد، فكانت العبارة المفضلة لدى الخطباء هي، "لعن الله اليهود والنصارى". ولم تقف الأمور عند ذلك الحد، فقد صوروا لنا اليهودي على أنه طويل الأنف، أحدب الظهر، عكر الوجه، ذا شكل مقرف وخبيث، وأيضا بخيل ومكار وداهية.

من الطبيعي إذن أن تشعر بالنفور والاشمئزاز والقشعريرة وكل المشاعر السلبية عندما ترى شخصاً يهودياً. وهذا فعلاً ما حدث لي عند مجيئي لأمريكا أول مرة. فقد رأيت بعضهم في مطار JFKبمدينة نيويورك، يلبسون البدلة السوداء والقبعة السوداء، ذوي الشعور العفنة الطويلة، والخيوط البيضاء المعلقة على جوانب بنطلوناتهم بدأت بالإشمئزاز وقد إقشعر بدني وكأني أرى صراصير لا حصر لها تخرج من "البالوعة". هاهم اليهود الصهاينة "لعنهم الله".

ولكن، بعد إفتتاح المقهى العربي، " كافيه شيشة "، بدأت مشاعري تتغير، ربما لإعتيادي على الإختلاط بهم، بحكم تواجدهم الكثيف في المنطقة. في الواقع، يمكنك القول أن النظرة عن اليهود قد تغيرت تماماً، ولم يعد وجودهم يثير لدي أي مشاعر سلبية. فبعد سنتين من إفتتاح المقهى، قدم إلى المقهى مجموعة من الأولاد والبنات الطريفين والظريفين جدا، فأرادوا حجز أحد الغرف الخاصة للإحتفال بعيد ميلاد أحدهم. فقالوا لي أنهم ينتمون إلى منظمة تدعى "هلال" (Hillel) وهي عبارة عن منظمه يهودية لها فرع في كل حرم جامعي في كل أنحاء أمريكا، وتختص بشئون الطلبة اليهود وهكذا.

ماذا تتوقعون أن تكون ردة فعلي عند معرفتي بأنهم يهود؟ لا، لم يكن الإشمئزاز والإنقراف. فقد كانوا أناسا طيبين ملامحهم عادية جداً ومألوفة، فلم أجد الأحدب ذو الأنف الطويل ولا جاحظ العينين صاحب النظرة الخبيثة الشريرة. على العكس تماماً، كانوا أناساً طيبين ومتواضعين للغاية. بالإضافة إلى ذلك، لقد أعجبوا بالمقهى العربي إلى درجة أنهم قاموا بعمل الدعاية المجانية له محاولين المساعدة. حتى أن "يعقوب"، رئيس شعبتهم في الحرم الجامعي التابع لجامعة ولاية فلوريدا، قد جعل كافيه شيشا موقعا لإجتماعاتهم وندواتهم الخاصة، مما جلب للمحل المال والربح المادي وخاصة في أيامه البطيئة. بالإضافة إلى ذلك، قام يعقوب بتزكية القهوة لتصوير مشاهد لفيلم من الأفلام الأمريكية الشهيرة، مما حقق للمقهى شهرة كبيرة.

بإختصار، قام هؤلاء اليهود بخدمة محلي خدمة لم تقم بها أي جالية أخرى وخاصة الجالية العربية، والتي إعتادت على التذمر من كل شيء: "هذا الشاي غير مضبوط"؛ "هذه القهوة باردة"؛ " هذه البقلاوة يابسة"؛ " ومابال هذه الأرجلية؟". يالي حماقتهم! في يوم من الأيام، وعند دخولي إلى المقهى، تفاجأت بوجود عراك شديد بين الموجودين، وبالتدقيق تبين لي وجود معركة

كلامية بين مجموعة من الفلسطينين مع بعض بنات وشباب منظمة "هلال" اليهودية. فقلت للموجودين:

- يا جماعة! حصل خير.

- ما هذا؟ أنحن في أمريكا أم في الضفة الغربية؟

حاولت تهدئة الأمور بين الأطراف المتنازعة، إلا أنه حمي الوطيس، وأخذ الفلسطينيون بالزعيق والسباب البذيء. وللعلم فهؤلاء الفلسطينيون لم يكونوا الفلسطينيين المقاومين في الضفة الغربية وغزة، الصابرين المثابرين، بل على العكس، كانوا الفلسطينيون الذين تركوا فلسطين بحثاً عن حياة أفضل، والذين فضلوا الأسماء الأمريكية على أسماء أبائهم وأجدادهم. فمن كان اسمه محمد يود أن تناديه "توني"، ومن كان اسمه إياد يود أن تناديه "داني"، ومن كان إسمه جميل يود أن تناديه "جيمس". أما نمط حياتهم في أمريكا، فهي قائمة على إدارة محطات البنزين ومحلات بيع الخمور وركوب السيارات الفارهة ولبس الملابس الثمينة ذات الماركات المشهورة، وسحك السجائر وكأن المسألة واجب ديني!

علي أي حال، بدأ الفلسطينيون واليهود بالشجار والتعارك داخل المحل مما أجبرنني على الوقوف في المنتصف للتدخل بالموضوع . ولكن، حقا، إنه لمن الصعب المرور بين السيوف المتعاركة دون الإصابة! حان الآن موعد إخراج إحدي الجماعتين من المحل لإخماد النزاع، ولكن أي جماعة علي أن أخرج؟ ذلك الفلسطيني العربي المسلم الذي قد طرد من بلده منذ عشرات السنين؟ أم هذا اليهودي المصادق الخدوم الذي ساعد المحل ماليا جالباً الآلاف من الدولارات؟ بالنهاية أن كان كلام الله، "هل جزاء الاحسان إلا الاحسان".

هنا، توقفت الكرة الأرضية عن الدوران لوهلة من الزمن في إنتظار ردة فعلي. وفجأة! ظهرت الشهامة العربية، وظهرت معها أيضا النعرة الجاهلية معتقداً بأني مقدم على أمر نبيل وشهم وكريم وجليل. فقلت لليهود، "الرجاء دفع الحساب والخروج من هنا. أليس كافيا أنكم أخذتم أرضهم ؟ أتريدون الآن أخذ قهوتهم أيضا؟" ولكن بدت الصدمة والحزن على وجوه الأولاد والبنات اليهود. فقال يعقوب غاضباً، "لكنهم مخطئين! وهم من بدأوا السباب البذيء!"

ولكن لم أرد سماعه فقد سدت النزعة العربية أذاني. فطلبت منهم الخروج فورا. قاموا بالخروج ثم وقف يعقوب ينظر إلي من بعيد فقد خاب ظنه في، وقال مهددا:

- أنت مخطىء يا ياسر، وناكر للجميل. وسوف تندم على فعلتك هذه.

فهل كان يعقوب اليهودي وشلة "هلال" وراء مصيبتي وسجني اليوم؟ الغريب في الأمر هو إنتماء الفتاتين ميمي وتارا لمنظمة "هلال". فهل يا ترى غضب علي "المغضوب عليهم" ؟

بينما كنت مستلقيا على فراشي في السرير العلوي في تلك الزنزانة الصغيرة القذرة، وعقلي يجيء ويروح يحاول تفسير ما حدث ومن هو وراء مصيبتي، غصت في النوم أخيراً إلى اليوم التالي وإذا بمكبرات العنبر تزعق من جديد:

- ياسر البحري... زيارة.

قلت في نفسي:

- لابد وأنه أخي عبدالله... خيرا إن شاء الله. أمزيد من الأخبار السيئة؟

فعلا لقد كان هناك المزيد من الأخبار السيئة ولكن لم يكن أخي عبدالله هو الزائر!

(27)

العبد لله ... الديناصور!

عند صعودي إلى الطابق العلوي، وجدت في الجهة الأخرى من ذلك الحائط الزجاجي الفاصل بين المساجين والزوار المحامي هاربر. طلب مني السجان الدخول إلى الغرفة المخصصة لزيارة المحامين لموكليهم، وهي عبارة عن غرفة حجمها 4×4 متراً، وفيها كرسيان يقابل أحدهما الآخر، ويفصلهما عن بعضهما البعض حائط زجاجي، معلق به سماعات للهواتف للتحدث بين المحامين وموكليهم. فبدأ المحامي يشرح وضع الزيارة وشروطها:

– هذه غرفة مخصصة لزيارة المحامين، ومن المفترض أنه ليس هناك أجهزه تنصت وتسجيل، ولكن أنا لا أثق بهم. كن حذراً. لدينا 30 دقيقة على أية حال.

– مفهوم (أجبت).

– هل نمت جيداً؟

– لا أستطيع النوم.

– لا تخف، سنخرجك من هنا قريباً. سنحاول طلب جلسة تحديد كفالة مالية من جديد عند قاضي آخر.

– نعم، نعم. إفعل هذا، ولكن هذا ليس هو المهم الآن؛ مايهمني هو الفوز بالقضية والقضايا الأخرى المكدسة علي.

فراح المحامي يشير أنه يجب علي دفع مبالغ جديدة كأتعاب للمحاماة لأن هناك قضايا جديدة متعددة.

– مفهوم (كانت إجابتي).

حينها تذكرت مقولة صدام حسين عن حسني مبارك رئيس مصر السابق في خلال فتره غزو صدام حسين للكويت: "هذا حسني مثل التلفون العمومي؛ تضع النقود في الجهاز، يتكلم! لا تضع، لا يتكلم!" إن ما يهم محامي أمريكا من الدرجة الأولى هو جمع النقود؛ الفوز مهم طبعاً، ولكن النقود أهم. وهذا بالضبط ما حصل مع المحامي هاربر طوال فترة القضية: "نحتاج للنقود! ؛ "نريد المزيد!"؛ "إدفع تحت الحساب". لعمرك، يعتقد بأني بئر نفط متحرك فراح يشفطه.

فسألته:

– ماهو الوضع؟ وما يجب علينا فعله الآن؟ وماحال تلك القضايا الأخرى؟

فراح بالشرح:

– أولا: هناك ميمي مدعية بأنك إعتديت عليها جنسيا بينما هي فاقدة للوعي، وهذه هي التهمة الرئيسية، ويعاقب عليها القانون بـ 30 سنه كحد أقصى. ثانياً: هناك تارا، صديقة ميمي في تلك الليلة ذاتها، تدعي بأنك حاولت الإعتداء عليها جنسياً وهي تهمة يعاقب عليها القانون بـ 15 سنة كحد أقصى.

– "حسبي الله ونعم الوكيل" (محدثا نفسي طبعا).

فراح المحامي شارحاً القضايا الجديدة:

– وهناك فتاة اسمها سامانثا مدعية بأنك في إحدى الليالي إغتصبتها عنوة، وهي تهمة يعاقب عليها القانون بـ 30 سنة كحد أقصى.

– لا حول ولا قوه إلا بالله (قلتها في نفسي).

– وهناك فتاة تُدعى إيميلي مدعية بأنك في نفس تلك الليلة التي كانت فيها سامانثا متواجدة، حاولت الإعتداء عليها جنسياً، وهي تهمة يعاقب عليها القانون بـ 15 سنة كحد أقصى.

فقلت بصوت يسمع:

– إنا لله وإنا اليه راجعون!

وهنا لم يفهم المحامي ما تفوهت به، فسأل، "المعذرة؟".

فأدركت تعجبه، فقلت:

– لا شيء، كنت أكح فقط.

فأضاف:

– وأخيراً، هناك فتاة تُدعى سالي، وتدعي بأنها عندما كانت تعمل موظفة لديك في كافية شيشة، قمت بحبسها في غرفه المكتب محاولاً الإعتداء عليها جنسياً، وهي تهمة يعاقب عليها القانون بـ 15 سنة كحد أقصى.

وقبل أن أتفوه بشيء أضاف:

– وكل واحدة منهن تدعي بأنك حاولت إرغامها على إحتساء الخمرة، وهي تهمة يعاقب عليها القانون بسنة واحده لكل حالة.

فقمت بالحساب الذهني: 30+15+30+15+15+1+1+1+1+1=110 سنة.

فصرخت بالعربية:

– ربي إني مغلوب فإنتصر!

110+ 30(عمري آنذاك) = أي سيكون عمري عند الخروج من السجن 140سنة. وهل أنا ديناصور؟ نظرت إلى المحامي هاربر فسألته:

- هل من مزيد؟

- لا، هذا فقط، ولكنه قيل لي أن المحققة إليزابيث تحاول تهيئة قضيتين أخرتين.

- وما هما؟ (نظرت إليه يائساً).

- الأولى هي التعامل غير القانوني بالسلاح والثانية هي تجارة المخدرات.

ولم أتحمل ما قاله المحامي هاربر فبدأت بالضحك والبكاء في نفس الوقت، علامات الهيستريا، قائلا:

- ومن أنا، العراب (The Godfather)؟ رئيس عصابات المافيا؟

حاول المحامي تهدئتي وطمأنتي، بأنه أحيانا يقوم المحققين برمي كل أنواع التهم والقضايا لتشتيت تركيز المحامين، وتقليص إمكانية الفوز بالقضية. فسألته عن الأدلة، فراح المحامي بالشرح:

- أما بالنسبة للقضية الرئيسية، وهذه هي المهمة هنا، فلقد تم أخذ عينات من الفتاة ميمي في المستشفى ساعات بعد تلك الليلة المزعومة، وهي عبارة عن: عينات شعر (من المنطقة الحساسة)، وعينات من ملابس الفتاة الداخلية، وعينة دم. بالإضافة إلى ذلك، تم أخذ عينات من المحل، "مسرح الجريمة"، وهي عبارة عن: زجاجات الخمرة للبصمات ولشوائب مواد مخدرة، وكؤوس الخمر للبصمات ولشوائب مواد مخدرة، ورأس المعسل لشوائب مواد مخدرة كالحشيش، وسوائل على الأرض (دم أو تقيؤ)، وأكواب القهوة التركية. وبعد جمع تلك العينات، قام المحققين بإرسالها إلى مختبرات الولاية لفحص الأدلة الجنائية وأسمه الـFDLE. ولكن لن تعرف النتيجة إلا بعد شهور على أقل إحتمال وذلك بسبب الضغط الكبير على تلك المختبرات.

سألت المحامي هل بإمكان هؤلاء التلاعب بالأدلة أو حتى النتيجة؟

- من الصعب ولكن ليس بالمستحيل.

ثم قام المحامي بسؤالي عن الفتيات الأخريات، "من هن؟". فقلت:

- هن موظفات لدي في المحل، إدعاءاتهن باطلة تماما، وعارية عن الصحة.

فقال المحامي:

- حاليا ليست هناك أية أدلة جنائية تثبت إدعاءاتهن، وفي حال توافر الأدلة مستقبلا سوف يعرضها مكتب المدعي العام.

وقبل إنتهاء الزيارة، حاول المحامي طمأنتي بأنه قادر على إحتواء القضايا واستيعابها كاملة والتصدي لها، وأنه لن يتشتت تفكيره بكثرتها كما خطط لذلك وكيل النيابة. وقبل أن يغادر نظر إلي قائلا:

– على فكرة! إن وكيل النيابة المعين لإدانتك كان جندياً سابقاً في المارينز بالجيش الأمريكي، وقد شارك في حرب العراق.

فتذكرت كلمات المغني أبو بكر سالم:

♫ كلما صفت غيمت! ♫

كلما صفت غيمت!

عدت إلى زنزانتي بعد تلك الزيارة ومازال الوقت صباحاً. فتوجهت نحو المغسلة، فقمت بالوضوء، ولم أعلم أين القبلة، ولكن شرعت في الصلاة. فقرأت سورة البقرة بأكملها في الركعة الأولى، وسوره آل عمران في الثانية، والنساء في الثالثة، وهكذا قرأت أجزاءاً عديدة في صلاتي والتي إستغرقت من ست إلى ثمان ساعات تقريبا. ولم أشعر بالتعب، وداعيا ًالله سبحانه وتعالى بالفرج. وأجهشت بالبكاء حتى جفت سوائل جسدي، فلم يتبقى لي سوائل لتتحول إلى دموع بعد ذلك البكاء، وقمت بالدعاء بكل دعوة قد تعلمتها منذ أن كنت طفلا صغيرا، وتوجهت بنظري إلى الأعلى مكبرا ومستنجدا بالحي الذي لايموت:

"الله أكبر"؛ "الله أكبر"؛ "الله أعز مما أخاف وأحذر"؛ "الله أكبر"...

فإذا بشريكي في الزنزانة، ذلك الرجل الأبيض، يتسحب خائفا إلى زاوية من زوايا الغرفة متكورا ً معتقداً بأني إرهابي سوف أقوم بتفجير نفسي أو أنقض عليه لجزه. فأيقنت أن ذلك الرجل الأبيض كان خائفا مني فقلت له بهدوء تام:

– المعذرة! كنت أصلي فقط!

ولكنه ظل متكورا في زاوية الزنزانة ولم يتحرك أبدا، يطيل النظر إلي من شدة الخوف والرعب. ثم نادت المكبرات من جديد:

– ياسر البحري... زيارة

فقلت مبتسماً:

– لابد وأنه الفرج من الله (خاصة بعد كل ذلك الدعاء وتلك الصلوات والدموع).

وعند صعودي للطابق العلوي، رأيت طارق زوج أختي ولكنه لم يكن مبتسما كعادته. فسألته عبر السماعة:

– خير إن شاء الله. ما هي آخر الأخبار؟

– للأسف، لدي أخبار غير سارة.

– هيا أطلق الرصاص. فرغ المخزن علي.

– تم طردك من الجامعة، جامعة ولايه فلوريدا، ومن برنامج الدكتوراه نهائياً.

– نهائياً؟

– نعم.

– خير إن شاء الله. وماذا بعد؟ إرمي.

– إتصلت بالسفارة الكويتية في العاصمة "واشنطن دي. سي." طلبا للمساعدة ولكن دون جدوى.

– ومع من تحدثت؟

– مع أحد الموظفين. وقال بأنك لست بأول ولا آخر كويتي يحدث له موضوع كهذا.

فقلت لطارق:

– ألن يساعدوا في دفع تكاليف أتعاب المحاماه؟ فأجاب بـ لا.

– وماذا أيضاً؟ إرمي.

– أما بالنسبة لبعثة جامعة الكويت التي صرفت عليك كل تلك السنين، لقد إنتهت.

– أعلم.

– نعم، ولكن ما لا تعلمه أنك الآن مطالب بدفع كل المبالغ المالية التي صرفتها عليك جامعة الكويت كمخصصات لأنك لم تنهي برنامج الدكتوراه.

– وكيف أقوم بإنهائها وأنا تحت هذه الظروف القهرية؟

– حاولت شرحها لهم ولكن قالوا بأنها ليست ظروف قهرية.

– حقا !؟

– نعم.

– وكم يريدون؟

– 200 ألف دولاراً.

سكت لوهلة محاولا استيعاب الموضوع وأخذت نفسا عميقا ثم سألته من جديد:

– وماذا بعد؟ إرمي.

– رفع البنك الوطني قضية عليك في الكويت مطالبا ً بسداد القرض لتوقفك عن الدفع، بالإضافة إلى الفوائد.

–وكم المبلغ؟

– 20 ألف دينار كويتي. كما طلب البنك من القاضي في الكويت بوضع منع سفر عليك.

– هل تمزح؟ منع سفر؟ أنا لست في الكويت لكي أمنع من السفر؟!

ثم قلت له:

– وماذا بعد؟ إرمي.

– حضر موظفون من غرفة التجارة في تالاهاسي بالأمس وقاموا بسحب تراخيص المقهى في محاولة منهم لإغلاق المحل.

– وماذا بعد؟ هل لي بطلقة الرحمة؟

– وأخيرا، لقد قام البنك الوطني في الكويت بتجميد حسابات ابنتيك وأخذ كل مافيه لحساب القرض.

– يا لصغيرتي المسكينتين، أنا والزمن والبنك الوطني عليهما.

نظر إلي زوج أختي فلم يرى ياسر المتفائل والمرح دائما، بل ياسر المسكين المتحطم يردد أغنية، "أيها القلب المحطم... كم جلبت لي الدمارا". فرثى لحالي محاولا تجديد الأمل في داخلي فقال:

– لا تيأس من رحمة الله.

فأجبته، بعد النظر إليه لوهله من الزمن:

– ونعم بالله.

عجباً لحالي، فقد إنقلبت بين عشية وضحاها، من مليونير إلى مديونير!

حدث في ذلك اليوم

لم أستطع أكمال الحديث مع طارق، زوج أختي، بعد كل تلك الإحباطات، وبدأت أشعر بالغثيان وألم شديد في بطني. فقلت لطارق، "المعذرة، أريد الرجوع إلى زنزانتي والإستلقاء على فراشي قبل أن أخر صريعا". تفهم زوج أختي فقال لي مُآزرا، "كان الله بالعون". أنهيت الزيارة قبل إنتهاء زمنها الفعلي، فأشرت إلى السجان برغبتي للعودة إلى الزنزانة. فتلني السجان باليمين وأرجعني إلى زنزانتي، وشعرت بضيق شديد في صدري وشعور بالإختناق وكأنني أحتضر وأن روحي في طريقها للصعود إلى السماء. والله! كأني شخص قد قضى الليل بأكمله في مقبرة صبحان زائراً أحد الأموات. شعور بالعجز الكامل واليأس من الحياة وما فيها.

رحت مستلقياً على فراشي القديم، وأوجه بصري إلى سقف الزنزانة متحسرا مما حدث لي وما آلت إليه الظروف، وتقلب الحال السريع والمفاجئ من القمة إلى الحضيض. أنا صاحب الحظ السعيد طوال عمري، إنتهى بي المطاف في هذه الزنزانة القذرة مع المجرمين وأرباب السوابق، أنام فوق فراش عفن موبوء، فراش شحفان القطو. وبما أن تخصصي في مجال الفلسفة، وبما أني أميل إلى التفلسف في الأمور منذ كنت في المهد صبيا، أخذ "مبدأ الغاية" يطل برأسه في كل فكرة فكرت فيها: لا بد أن هناك غاية ميتافيزيقية وراء كل شيء. فقلت لنفسي، "لابد وأن العناية الآلهية وراء كل شئ وهذه بصماتها أراها في كل ما حصل".

فكرت بكل الاحتمالات وحللت كل شيء ثم توصلت أخيرا إلى قناعة لم أفكر بها مسبقا وهي أن أحيانا هناك أمور لا نستطيع تفسيرها أوتحليلها. وفي مثل تلك الحالات، ليس علينا سوى التسليم بمشيئة الرب وإرادته: "فأنا أريد وأنت تريد والله يفعل ما يريد".

هل تعلم أنه في ذلك اليوم المشئوم (25-1-2007)، إنتهت بعثة جامعة الكويت للدراسات العليا؟ وهل تعلم أنه في اليوم المريع نفسه، انتهت رخصة القيادة الأمريكية؟ وفيزا السفر، والهوية الأمريكية؟ وحتى جواز السفر الكويتي؟ وهل تعلم أنه باليوم المشئوم نفسه، إنتهت بطاقات التأمين الصحي والأسنان؟ لا كذب!

فهل يعقل أن يكون كل ذلك من محض الصدفة المطلقة؟ أم هناك غاية أكبر لا أعلمها حتى الآن؟ ولكن ماهي تلك الغاية؟ ولماذا أنا بالذات؟ وإلى متى؟ وما هو المصير؟ أسئلة كثيرة ليس لها أجوبة شافية اليوم ولكن قد يكون لها ذلك يوم ما. قرارات كثيرة قد اتخذت ضدي، وبطاقات كثيرة انتهت صلاحيتها، وأمور كثيرة تصادف حدوثها في نفس ذلك اليوم. أتدرون بماذا شعرت لحظتها؟ شعرت بأنني سيارة قديمة قد أسقطت أرقامها ودفترها ورميت في سكراب الجهراء.

إذا طاح الجمل كثرت السكاكين!

بعد عدة شهور من إنتظار الفرج ذاهباً وعائدا من مبنى المحكمة لحضور الجلسات التى تخص القضايا الكئيبة التي ألصقت بي، إستطاع أخي طارق أخيرا الحضور إلى فلوريدا ليكون بجانبي في هذه المحنة، على الأقل خلال فتره الصيف. إنتقل أبي إلى رحمة الله عندما كنت صغيرا، فعوضنا الله بأم كانت لنا نعم الأم والأب في وقت واحد. وتكبدت الكثير من المشقة لتربيتنا وتنشئتنا التنشئة الصالحة، ولم يكن ذلك الأمر بالسهل أو الهين. فهل لك أن تتصور أم غير متعلمة وغير عاملة، تحمل وحدها عبء تربية 13 شخص تترواح أعمارهم مابين سن المراهقة والطفولة؟

إنها أمي، نعمة الله التي أنعمها علينا، وبركة بيتنا ونبع الحنان والعطاء الدائم غير المنقطـ، كنا كغيرنا من الأشقاء نختلف كثيرا، ونزعل كثيرا، إلا أننا نظل على الرغم من كل شيء أخوة متحابين، لا تفرقنا الظروف ولا الأيام. في محنتي هذه اكتشفت مكانتي في قلب أخوتي، واكتشفت الجانب الجميل المستتر لكل منهم. فلم يبخل علي أي منهم سواء مادياً لتوفير أتعاب المحاماه المرهقة، أو معنوياً بتصديقي والوقوف بجانبي والدعاء لي. لقد تظافر الجميع معي لانتشالي من محنتي وحاول كل منهم إيصال رسالتي للمسئولين سواء أعضاء مجلس الأمة، أو المحامين أو المهتمين بحقوق الإنسان، أو حتى أهل الخير للتوسط في حل مشكلتي. ولكن، ماعساهم أن يفعلوا أكثر وأنا في دولة تبعد آلاف الكيلومترات عن الكويت.

ولكني الآن في مرحلة حرجه للغاية. لقد نفذت الأموال التي تبرع بها أخوتي لأتعاب المحاماه في الشهور الأولى للقضية. فأحتجت للمزيد منها، وفتحت الموضوع مع أخي طارق في إحدى زياراته لي في سجن المقاطعة. فقلت له:

– إني أفكر جديا ببيع المحل، وأخذ النقود لدفع تكاليف المحاماة.

فأجاب طارق:

– فكرة لا بأس بها ولكن هل ستجد من سيشتريه الآن؟

– لماذا؟

– ربما ستطول مدة الإعداد للقضية، وليس هناك من يريد شراء المحل بذمة وضمير.

– صحيح!

– سأحاول إدارة المقهى خلال تواجدي في فترة الصيف ولكن يجب علي العودة إلى الكويت للتدريس بعد إنتهاء العطلة.

– جزاك الله خيرا.

ثم قام طارق بتحذيري من نية المحققة إليزابيث وأعوانها:

– تهدد الشرطة وأيضا غرفة التجارة في تالاهاسي باغلاق الـ كافيه فهم ينتظرون إدانتك في القضايا أولاً.

فأجبته بأنه أمر وارد في هذه المرحلة من لعبتهم القذرة. فقام أخي طارق بعرض المحل للبيع على صفحات الإنترنت، وصفحات الجرائد المحلية وبين العرب المقيمين في تالاهاسي. أما بالنسبة للأمريكيين، بيضا أو سودا، فليس لديهم الخبرة الكافية بهذا النوع من المقاهي، ويعد تملكهم وإدارتهم له نوع من المجازفة. لذلك لم يتقدم أحداً منهم لشراء المقهى. أما بالنسبة لعرب تالاهاسي، فللأسف الشديد حاول العرب التقليل من قيمة المقهى ونشاطه وحتى أرباحه رغم أن أرباحه تتعدى الـ 2000 دولاراً يومياً، أي 60 ألف دولار شهريا. ولكنهم أبدوا رغبتهم بشراء المقهى بسعر بخس جدا مستغلين أزمتي المادية وحاجتي الكبيرة للمال، وكما قال المثل، "إذا طاح الجمل كثرت السكاكين".

سألني طارق:

– ماذا تنوي أن تفعل؟

فأجبت مغتاظاً من محاولتهم إستغلال ظروفي القهرية، "والله يا أبو عبدالجليل! أبيع أثاث المقهى وإكسسواراته في سوق الجمعة، أهون علي من أن أبيعه على هؤلاء الضباع!"

فشعر طارق بحالي وغيظي، وقال:

– لا بأس، أنا سوف أشتريه منك يا أخي. والله لأديره أفضل إدارة، ولن يستطيع أحداً إغلاقه مادمت حياً.

وفعلاً قام أخي بدفع سعره بالكامل، 200 الف دولاراً عالما ًبحاجتي لذلك المبلغ لدفع تكاليف أتعاب المحاماه. فقمنا، عن طريق محامي الشئون التجارية، بتحويل كل الرخص بصورة شرعية "ما تخرش الميه" مني إليه قبل معرفه أحد ولا حتى العفريت الأزرق. والطريف في الموضوع، انه عندما حضرت المحققة اللئيمة مصطحبة معها موظفين من غرفة التجارة بتالاهاسي محاولين إغلاق المحل، أجابها طارق مبتسماً:

– عفواً ، ولكن هذا ليس بمحل ياسر، فلقد اشتراه ملاك جدد.

فسألته عن من هو. فأجاب:

– ها هو يقف أمامك.

ثم أراها الرخص الجديدة باسمه واسم الشركة الجديدة، فإشتعلت غيظا. فذكرت كلام الله تعالى، " قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ " (آل عمران:119).

(31)

أدلة الحمض النووي

بعد عدة شهور منذ ذلك اليوم الشنيع، زارني طارق المشموم، زوج أختي، من جديد وهذه المرة الابتسامة تكاد أن تشق وجهه نصفين. فسألني متحمسا:

– هل قام هاربر بزيارتك حديثاً؟

– كلا.

فأضاف:

– لا تخف سوف يحضر قريباً ولكن لدي أخباراً سوف تسرك للغاية. لقد وصلت نتيجة الحمض النووي DNA من مختبرات الولاية وأعطيت نسخة منها للمحامي. وهي على النحو التالي: ليس هناك آثار اغتصاب على جسد الفتاة نهائياً ولا حتى آثار لجماع عادي كالذي بين الزوج وزوجته؛ كما أنهم لم يجدوا شعرات من شعراتك على جسدها نهائيا.

فقلت مبتسما:

– عظيم.

– أما بالنسبة إلى السوائل التي أخذت من أرضية الغرفة الخاصة، فهي دماء وتقيؤ ولكن ليس لها بل لشخص مجهول.

فقلت مرددا آية من القران الكريم:

– " رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ " (القصص: 24).

فأضاف طارق:

– أما بالنسبة لكؤوس وزجاجات الخمرة، فلم يجدوا فيها أي بصمات أو شوائب لمواد مخدرة. أما بالنسبة إلى رأس المعسل، لم يجدوا فيه أي شوائب للحشيش أو الماريجوانا

– الحمد لله رب العالمين.

– أما بالنسبة لدمها، فلم يوجد فيه أي شوائب لأي مواد مخدرة أو حبوب مخدرة كالروفي. كل ما وجدوا فيه هو نسبة الكحول، ولم يجدوا حمضك النووي على أماكنها الحساسة، ولكنهم وجدوا شوائب مادة الروفي في ... لن تصدق إن قلت لك أين؟

– أين؟ (قلتها بلهفة)

– في فنجان القهوة التركية!

- هذا ما يفسر وجود شوائب تلك المادة المخدرة في دمي أنا.

- لابد وأن الفتاتان هما من وضعتا تلك الحبة في قهوتك.

- بالتأكيد. فميمي وتارا هما من قامتا بتقديم القهوة التركية لي.

- ضحكوا عليك الملاعين.

- وماذا عن العينات التي أخذت من أصابعي في أول يوم ظهرت تلك المحققة اللئيمة في مسكني؟

- لقد كانت النتيجة سلبية، ولم يكن هناك أي حمض نووي منها على أصابعك.

- وماذا عن السوائل التي أخذت من ملابسها الداخلية؟

- هذا الجزء من النتيجة لم أتمكن من فهمه لذلك يجب عليك سؤال المحامي هاربر

- خير إن شاء الله.

فطلبت رؤية المحامي هاربر لكي يشرح لي النتيجة دون أي سوء فهم، فهذه حياتي وليست نتيجة الفحص الفني بـ "مرور حولي". وفعلاً، قام المحامي هاربر بزيارتي في اليوم التالي. فسألته أن يشرح لي المزيد، فقال لي:

- وجد على السروال الداخلي لميمي خليط من أحماض نووية لعدة أشخاص، ثلاثة أو أكثر.

- ثلاثة أو أكثر؟ (قاطعته مستغرباً).

- نعم ثلاثة أو أكثر، لربما أربعة أو حتى خمسة، وحمضك النووي يمكنه أن يكون جزءاً من ذلك الخليط.

- عفوا لم أتمكن من فهم الموضوع. "يمكنه"؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟

- حسناً.

وراح المحامي هاربر يشرح كيفية تحليل الأحماض النووية عموماً:

- عند تحديد هوية الأحماض النووية، يقوم المحللين بمقارنة الأحماض النووية من العينات المأخوذة من العينة بالعينات من الأحماض النووية المأخوذة ممن يشتبهون به بأنه المجرم. ولكن تتم عملية المقارنة وفقاً لمعلومات بالملايين عن الأحماض النووية التابعة للأجناس والأعراق وليس فقط الأفراد: حمض نووي تابع للسود، وحمض نووي تابع للبيض، وأخر تابع للاتينيين وآخر للهنود وآخر للعرب واليهود...إلخ. أما الخليط المتواجد من الأحماض النووية فهو عبارة عن مجموعة من الأحماض النووية للبيض وعرب. وبم أنك عربي، يقول التحليل أنه "من الممكن" أن تكون أحد الأشخاص.

فسألته:

– هل من الممكن أن يعود ذلك الحمض النووي لشخص عربي آخر غيري وليس لي أنا؟

– نعم، إنه من الممكن.

ولكن السؤال المحير يبقى: ذلك الحمض النووي، لمن إذن إن لم يكن حمضي؟ هذه قهوة وزبائنها عرب كثيرون. فمن يا ترى صاحب الحمض النووي؟ وقبل أن يرحل قال المحامي لي محذراً:

– توخى الحذر ولا تتكلم عن قضيتك مع أي أحد في السجن أو عبر الهاتف أو في أوقات الزيارة، فهم الآن قد يئسوا من نتيجة الحمض النووي وليست لديهم أية أدلة دامغة، وسوف يحاولون الإيقاع بك بأي طريقة. إحذر يا سيد ياسر.

– إن شاء الله.

وفعلاً بدأت المؤامرات تحاك ضدي الواحدة تلو الأخرى!

القاتل المأجور

في إحدى ليالي الزنزانة الباردة، بينما أنا وشريكي الأبيض في الزنزانة نيام، فُتح باب الزنزانة، وإذ بأحد السجانة البيض يطلب من شريكي الأبيض جمع أغراضه ولف اللفة لأنه سوف ينتقل إلى زنزانة أخرى مجاورة. سألته:

– هل طلبت نقل؟

فأجاب بـ لا. ولم يشرح ذلك السجان لماذا ذلك النقل. علمت لاحقاً أن هؤلاء السجانة يقومون بتغيير نزلاء زنزانتك للتآمر عليك. فمثلاً قد يقومون بوضع سجين ضخم معك في السجن للهجوم عليك، وضربك ضرباً مبرحاً لأي سبب كان، ولتلقينك "درساً"؛ أو لطعنك بالسكين بينما أنت راقد على فراشك؛ أو خنقك بالمخدة، أوحتى لإغتصابك! وتُقدم تلك الخدمات عادة في مقابل ثمن بخس كوجبة غداء إضافية مثلاً!

ولكن، أحيانا، يقوم السجانة بالتعاون مع مكتب المدعي العام ووكلاء النيابة، بوضع جاسوساً في زنزانتك للتجسس عليك ومحاولة إيقاعك بالكلام ثم الشهادة ضدك في يوم المحاكمة بأنك "إعترفت" له بينما هو يشاركك الزنزانة. وفي المقابل، يحصل هذا السجين الجاسوس صفقة من مكتب وكيل النيابة مثل تخفيض مدة حبسه.

فيا غافل لك الله. فعندما قاموا بنقل الأبيض، لم أكن أعلم أي شئ البتة عن تلك الألاعيب والسبب هو أني جديد في ذلك العالم الجواني. فدخل نزيل آخر قصير ذو نظارة إطارها أسود ثخين، وله أنف كبير وكأنه نيجاتف لـ "غوار الطوشي" (تلك الشخصية الكوميدية التي لعبها الفنان المتألق دريد لحام) وبدا عليه وكأنه هنا في مهمة رسمية. وبعد أن إنتهى من ترتيب فراشه ووضع أغراضه في درجه، قدم لي نفسه معرفاً:

– معك واشنطن. وما هو اسمك؟

– ياسر.

– مكسيكي؟

– لا، بل عربي

– عجباً! هذه أول مرة أقابل فيها عربياً في السجن.

ومن دون "احم ولا دستور"، بدأ بإلقاء سيل من الأسئلة عن قضيتي وعن سبب وجودي في السجن محاولاً جمع المعلومات ولكن دون جدوى.

– وما هي جريمتك؟

- جرح مشاعر الآخرين (أجبته مستهزءًا).

- لا.. لا.. حقاً؟

- سرقة كاكاو الكتكات.

- لم لا تثق فيني؟

ثم حاول طمأنتي بأنه خبير في قوانين الجرائم في فلوريدا، وقد علم نفسه خلال السنين العديدة بينما هو في السجن. فقال:

- صدقني! لقد قمت بمساعدة العديد لكسب قضاياهم. قل لي، ما هي قصتك وسوف أجد لك حلاً. صدقني.

ظهر على وجهه الاحباط لعدم قدرته على الإطاحة بي. لقد بدى لي وكأنه "شريطي" (بائع سيارات مستعملة في سوق الحراج) يحاول بيع سيارة قديمة لا تعمل بأعلى الأسعار. ولكن دون جدوى، بعد محاولات عديدة باءت بالفشل، قام السجانة بنقله من زنزانتي وأدخلوا سجيناً آخر. أما بالنسبة إلى هذا النزيل الجديد، لقد كان عكس الأول تماماً: رزين، ثقيل، قليل الكلام ويشبه إلى حد كبير رجال المافيا كما نراهم بالأفلام، وبالأخص العراب. لكنه كان أشد وقاحة في نيته. قال لي بصوت منخفض ورزين محاولا تلفيق تهمة جديدة لي:

- أنا سوف أخرج من السجن قريباً، وعلى أتم الاستعداد لقتل المشتكية عليك بسعر مناسب. في تلك الحالة، لن يكون هناك شاهد ضدك في يوم المحاكمة ولن تكون هناك قضية أصلا.

فأجبته:

- لا.. شكراً... لا داعي.

ثم نُقل أخينا "العراب" بعد عدة أيام، وأدخل سجين آخرً وكان دوره دور القسيس:

- يا بني، تعالى نمسك الأيادي ونصل للرب المسيح ونفشي له بأسرارنا وأخطاؤنا لكي يسامحنا ويرحمنا ويساعدنا في قضايانا.

- لا شكراً. فلدي محام خصوصي.

ثم قاموا بتبديله بسجين أسود مسلم. فقال لي مبتسما:

- أكي! (وهي "أخي" كما ينطقها الأمريكان)، السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- أنا أحبك في الله، ويبدو عليك أنك مظلوم؛ فقط أعطني عنوان هذه المشتكية، وأنا سوف أقوم باللازم، ومن دون ثمن على الإطلاق.

- لا شكراً ... جزاك الله كير (أي خير).

وهكذا تم تبديل السجناء الواحداً تلو الآخر، في محاولة منهم للإيقاع بي ولكن دون جدوى. ولم يستسلم وكيل النيابة. ففعل فعلته الشنيعة التي لم تكن في الحسبان.

(33)

قاعدة ويليام

دعني أعيد لك ما كدّسه علي وكيل النيابة، ذلك الأبيض العنصري وجندي المارينز السابق في حرب أمريكا على العراق، والمحققة السحاقية إليزابيث، من أكاذيب:

1) في ليلة 25 يناير 2007، قام ياسرالبحري بـ :

أ – اغتصاب بنت فاقدة للوعي بعد احتساؤها الخمرة.

ب – محاولة اغتصاب بنت أخرى بعد احتساؤها الخمرة.

2) في ليلة 11 ديسمبر 2006، قام ياسر البحري بـ :

أ – تحرش جنسي بفتاة بعد احتساؤها الخمرة.

ب – محاولة اغتصاب بعد احتساؤها الخمرة.

3) في ليلة 25/10/2006، قام ياسر البحري بـ :

أ – احتجاز غير قانوني لفتاة.

ب – محاولة اغتصاب الفتاة نفسها بعد احتسائها الخمرة.

حقا، لقد قام بتكديس كل تلك القضايا كما يكدس الباذنجان المحشي لعمل المكدوس، آملاً بأن أحد تلك القضايا ستلصق بي وتكون القاضية. ولكن بعد رجوع النتيجة من مختبرات الولاية للأدلة الجنائية، رجع صاحبنا "بخفي حنين": لا توجد أدلة جنائية كافية ودامغة لإدانتي في أي قضية سوى إدعاءات وزعم. لابد وأنه قد غضب المدعي العام عند فتح أوراق نتيجة الفحوصات. لماذا كل هذه العدوانية؟ ولماذا يكره العرب لتلك الدرجة؟ لا أعلم. لا بد وأن أهل الفلوجة قد جعلوه يرى نجوم الليل في عز الظهر.

وعندما قام وكيل النيابة بفقد الأمل من تسجيل اعترافات لي في السجن عن طريق السجناء الذين قام بتجنيدهم لتلك المهمة، طلب من القاضية بتحديد جلسة تدعى "جلسة قاعدة ويليام". وما أدراك ما قاعدة ويليام؟ ويليام هو اسم شخص حقيقي قد عاش في الستينيات في ولاية فلوريدا. وهو شخص مهووس جنسيا، قد اغتصب العديد من الفتياة الصغيرات الواحدة تلو الأخرى لمدة من الزمن قبل الامساك به. ولكن لم يستطع وكيل النيابة إدانته في كل قضية من قضاياه المتعددة، والتي تعدت العشرات، وذلك لعدم وجود الأدلة الكافية كالأحماض النووية أو اعترافات شخصية وما إلى ذلك.

فعند قيام وكيل النيابة ومعاونيه بدراسة قضاياه المتعددة، استنتج الفريق الباحث وجود تشابه كبير بين ضحاياه: جميعهن بيضاوات، ذوات شعر أحمر، ذوات أعمار متقاربة. بالإضافة

إلى ذلك، وجد الفريق بأنه قد تشابه أسلوبه في كيفية الإيقاع بهن وأيضاً طريقته في إغتصابهن. لذلك، قرر الفريق بدمج كل القضايا والتهم وإدراجها تحت قضية واحدة وعرضها على نفس أعضاء هيئة المحلفين لكي تساند شهادة كل واحدة من الضحايا شهادة الضحية الأخرى. بالإضافة إلى ذلك، الغرض من الدمج هو إظهار "نية" و "قصد" و "تخطيط" و "أسلوب" و "طريقة" المتهم ذاتها عند ارتكابه تلك الجرائم. فقط عند دمج كل القضايا تحت القضية الرئيسية، استطاع وكيل النيابة في قضية ويليام من الفوز ووضع ويليام في السجن لزمن بعيد (مات ويليام في سنة 1986).

نتيجة لنجاح تلك التجربة، شرّع المشرعون قانوناً جديداً وأطلقوا عليه بـ"قاعدة ويليام" على اسم صاحب الحظ التعيس. ومنذ ذلك الحين، يقوم وكلاء النيابة باستعمال قاعدة ويليام ليسهل عليهم كسب القضايا سواء كان المتهم فعلا مذنب أم لا. ولكن يجب على القاضي السماح لهم باستعمال تلك القاعدة في أثناء المحكمة.

من أجل ذلك، دُعيت من جديد إلى مبنى المحاكم في وسط البلد لحضور "جلسة قاعدة ويليام" حتى نقوم بالرد على طلب المدعي العام باستعمال تلك القاعدة في قضيتنا، محاولين إقناع القاضية برفض الطلب لأنه سوف يكون ظلما واضحا في حالتي. في خلال الجلسة وقبل دخول القاضية، قال لي المحامي هاربر، "هذه الجلسة ليست بصالحنا ولكن سوف نحاول إقناع القاضية رفض طلب وكيل النيابة".

– خير إنشاء الله.

دخلت القاضية وقامت بتحية الموجودين ثم قالت:

– تفضل يا سيد فرانسيس (وكيل النيابة). قدم ما عندك.

فراح يشرح لها أنه يطلب موافقتها ليقوم بدمج القضايا المتعلقة بالفتيات ليتسنى لهن الشهادة في القضية الرئيسية، قضية ميمي. فقالت القاضية:

– وما هي أسباب طلبه للدمج؟

فأجاب:

– أولاً: يا حضرة القاضي، إن كل الجرائم التي ارتكبها المتهم قد وقعت في نفس المكان، كافيه شيشة، وهو دليل كافي بأنه بيت النية لإحضارهن لنفس المكان للاعتداء عليهن (أي تشابه المكان). ثانياً: إن أعمار الضحايا كانت تتراوح ما بين الـ 18–20 سنة، أي أنه تعمد إنتقاء الصغيرات غير الخبيرات في أمور الحياة ليسهل الاعتداء عليهن (أي تشابه الأعمار). ثالثاً: ليسهل الاعتداء عليهن، قام المتهم بتقديم الخمرة إلى ضحاياه لاضعاف مقاومتهن (أي تشابه العمل والأسلوب). رابعاً: هناك عامل مشترك بين كل ضحاياه: جميعهن بيضاوات، شقراوات، ذوات شعور قصيرة (أي التشابه في المظهر الخارجي للفتيات).

وهنا قام المدعي بإدخال الفتيات جميعهن للوقوف أمام منصة القاضية لترى بنفسها مدى تشابههن. ولكن كانت هناك حيلة من قبله لم تنتبه إليها القاضية وهي أنه قد قام بتلبيسهن نفس الملابس والألوان، وحتى قص شعر بعضهن ليكون قصيراً، وصبغ شعر أخريات حتى يكون أشقراً. أما الواقع فقد كان مختلفاً تماما لما قدمه وما أراد إيصاله للقاضية. فمنهن اليابانية، ومنهن ذات الشعر الأحمر طبيعياً، ومنهن شعرها طويل، ومنهن أيضا الهندية الأصل. وتم تغيير مظهرهن الخارجي عمدا لحبك الموضوع على القاضية مما جعلهن يبدين متماثلات ومتطابقات إلى حد كبير جدا حتى في الملبس وطريقة المشي والوقوف.

فقامت القاضية في التحديق فيهن لوهلة ثم قالت:

– يبدو عليهن التشابه الكبير.

فأضاف وكيل النيابة:

– إذن يا حضرة القاضية، ذلك كله يؤكد على قصد ونية وأسلوب وطريقة وتخطيط، ونمط المتهم عند ارتكابه لجرائمه. لذلك نود استعمال قاعدة ويليام في خلال المحاكمة وشكرا.

ثم نظرت القاضية نحو المحامي هاربر طالبة منه المرافعة:

– شكراً يا حضرة القاضية. أولاً: أما بالنسبة للتشابه بين المدعيات، فليس هناك تشابه بينهما البتة حيث أن إحداهن يابانية والأخرى من الهنود الحمر، بينما واحدة شعرها أحمر والأخرى أسود والبعض الآخر أشقر. لذلك، يا حضرة القاضية، أسألك ألا تقعي في فخ وكيل النيابة. ثانياً: أن القضية الرئيسية، قضية ميمي، هي قضية جادة بشكل كاف. فإن قمنا بإضافة قضايا أخرى ذلك سيعطي الإنطباع للمحلفين بأن موكلي مذنباً قبل سماع شهادته أصلا. وهذا ظلم له يا حضرة القاضية. لن يحصل على محاكمة عادلة. ثالثاً: ليست القضايا بمتشابهة فمنها اغتصاب لفاقدة وعي ومنها بالإكراه ومنها مجرد احتجاز غير قانوني وهكذا. أما قاعدة ويليام فتنص على تشابه القضايا كأسنان المشط: طبق الأصل.

رابعاً: وقعت كل قضية في يوم مختلف عن الآخر وليس هناك نمطاً لوقوعها، مثلا ً، يوماً أو أسبوعاً ما أو مناسبة ما. ما هي إلا أيام عشوائية وليس هناك أسلوب أو نمط وراؤها. خامساً: قانونياً، حدثت تلك القضايا في أيام وأوقات مختلفة والأشخاص مختلفين، فلا يمكن دمجها أصلاً فمنها جناية وجب محاكمتها في محكمة الجنايات ومنها جنحة وجب محاكمتها في محكمة الجنح. لذلك قانونياً، يا حضرة القاضي لكل قضية محكمتها المناسبة لها. سادساً: هذه كلها قضايا وتهم خطيرة فعرضها جميعاً ودمجها جميعاً تحت قضية واحدة سوف تسبب اللخبطة ليس فقط للدفاع بل أيضاً لهيئة المحلفين، فمن الصعب متابعة الأسماء والتهم والأحداث لكثرتها واختلافها. بالنهاية، سيكون موكلي وكأنه لاعب تنس، قد حذفت عليه 6 كرات دفعة واحدة وقد طلب منه ردها. لذلك، يا حضرة القاضية، أسألك أن ترأفي به، وترفضي قاعدة ويليام في هذه القضية لكي نواجه كل قضية في وقتها المناسب وفي المكان المناسب، وشكراً.

إنتهى للتو المحامي هاربر من مرافعته. ونحن الان بانتظار قرار القاضية دكر. فماذا سيكون قرارك إن كنت مكان القاضية؟ للأسف، سمحت القاضية باستعمال "قاعدة ويليام" لدمج القضايا جميعها تحت القضية الرئيسية حتى يتم عرض كل شهادات الفتيات المدعيات على أعضاء هيئة المحلفين في يوم المحاكمة جملة واحدة لكي تقوم كل شهادة بتعزيز الأخرى. وقبل أن أعود إلى سجن المقاطعة، قال لي المحامي هاربر معلقاً على ما حدث:

– لا أعتقد بأن القاضية تحبك. ولا أعتقد أنها ستكون منصفة في يوم المحكمة، لأنها عندما كانت صغيرة قد أعتدي عليها أيضاً. حقاً؟ ماهذه الصدفة؟ لقد تكالب الذئاب: وكيل النيابة، والمحققة، والفتيات، والآن القاضية أيضاً؟ ولكن من هن هؤلاء الفتيات الأخريات وما هو موقعهن من الإعراب؟

(34)

جلابية نانسي عجرم

كانت إيميلي تبلغ 19 من العمر. بيضاء ذات شعر أسود قصير. عملت إيميلي في المقهى لمدة شهرين تقريباً، ووظيفتها هي"التخديم" على الزبائن، ولكنها لم تكن ممتازة في عملها على الرغم من بساطته، فتارة تنسى طلبات زبائنها، وتخطئ في العد مما يكلف زبائنها المزيد من النقود تارة أخرى. ببساطة، كانت حسناء وغبية...لا أكثر ولا أقل.

وكانت لديها مشكلة أخرى لم أدركها في بداية عملها لدي، ألا وهي أنها تدخن الحشيش وبشراهه. فهي تعمل لدي لأجل الحصول على المال لدفع فواتير "الكيف" من حشيش وحبوب هلوسة أدمنتها وأصبحت أسيرة لها. وتلك كانت عادة الأمريكيين عموماً: الدراسة في النهار والحشيش وحبوب في الليل. وفي ليلة من الليالي، وعند قرب انتهاء ساعات العمل، بدأت إيميلي بالتذمر لأحد الزبائن المعروفين بكرمهم، بأنها لم تجمع البقشيش الكافي "للكيف" فقال لها مداعباً أترين هذه الجلابية المعلقة على حائط المحل؟ مشيراً إلى الجلابية المصرية للفتيات ذات الفتحات الجانبية والتي قد اشتهرت بها نانسي عجرم في أغنيتها في الفيديو كليب في تلك الأيام، فأجابت بنعم.

– إلبسيها وقومي بالرقص لي ولصديقي وسوف تجمعين بقشيشاً أكثر مما تتخيلين.

فقالت أنه لا مانع لديها من فعل ذلك وقامت بالاتصال بصديقتها سامانثا. قائلة:

– هل تريدين الحصول على المال الكثير هذه الليلة؟ ... إذن تعالي إلى كافيه شيشة، فها أنا أكاد انتهي من العمل، وسأكون بانتظارك ومعي اثنان من الزبائن المهمين للمقهى.

سامانثا هي الصديقة المقربة جدا لإيميلي، وهي خليطة لأب ياباني وأم أمريكية بيضاء. كانتا Roommates ؛ يعشقن السهر والحفلات الصاخبة المليئة بالجعة والحشيش؛ كل ليلة هن في أحضان شباب آخرين وهكذا. وكما قال المثل المصري، "إن غاب القط، إلعب يا فار". أنا، صاحب المكان، لم أكن متواجدا في بداية تلك الليلة. فقررت إيميلي باصطحاب الشابان إلى احدى غرف الـ VIP ، لبدء الحفلة هناك حسب إتفاقها مع الزبون الخاص جدا. حيث أغلق الـ VIP للزبائن.

فبدأت الحفلة بوجود الأربعة: "دق ورقص، وبوس وقرص"... رقص مبتذل ولف حشيش وفرحة عارمة من قبل الفتيات بما حصلتا عليه من أموال التنقيط. ولم يقطعه سوى دخولي المفاجئ للمقهى، حيث تلقيت إتصالاً من صديقي التركي يفيد برؤيته أناس يدخلون الـVIP في هذا الوقت المتأخر من الليل. فلم يسعني إلا أن أقوم باقتحام الغرفة مع صديقي التركي وقمنا بطرد الجميع منها، وقمت بتوبيخ إيميلي وسامانثا على فعلتهما وقمت بطردهما من الـ كافيه، ولكن ليس قبل أن أخذ نقود "التنقيط" منهن رغما. فألقت بباقي النقود على الأرض قائلة: "سوف

تندم على هذا". ولم أرها مجددا منذ تلك الليلة، حيث إختفت إيميلي وإختفت معها جلابية نانسي عجرم التي اشتريتها من المعرض المصري الذي أقيم في دولة الكويت آنذاك.

لم أندم على شيء وقتها سوى فقداني لجلابية نانسي عجرم. ولكن يالها من فتاة. فقد وفت بوعدها. لقد انتقمت مني لطردي لها وتعنيفي إياها، وها أنا ذا اليوم أندم على فعلتي: "ليتني لم أطردها من المقهى تلك الليلة؛ ليتني لم أسحبها إلى الخارج؛ ليتني لم آتي أصلا إلى المحل في تلك الليلة".

(35)

تايلور سويفت؟

أما بالنسبة إلى المدعية الأخيرة، واسمها سالي، فقصتها مختلفة تماماً عن الآخريات. فهي فتاة في العشرين من العمر، طويلة بيضاء ذات شعر أشقر طويل. في يوم من الأيام دخلت المحل بصحبة فريق من قناة تلفزيونية قد تعاقدت معها من أجل عمل دعاية تلفزيونية للمقهى، يتم عرض الإعلان في ولاية فلوريدا والولايات المجاورة. وكانت سالي واحدة من عدة فتيات قام المخرج باحضارهن للتمثيل في الدعاية المذكورة. بعد الإنتهاء من تصوير المشاهد، قامت سالي بطلب وظيفة بالمحل فقمت بتوظيفها، مباشرة نتيجة النقص الشديد الذي يعاني منه الـ كافيه.

ولكن ومن أول يوم باشرت فيه العمل، بدأت سالي بالتكبر والغرور معتقدة أنها ليست سالي بل تايلور سويفت. فقلما كانت تجيب على طلبات الزبائن، وتعاملهم بتعالي وعنجهية غير متناسبة وعملها والذي هو "خدمة" الزبائن. فلم يعجبني الوضع كما لم يعجب توفا، المديرة، أبداً خاصة بعدما بدأ الزبائن بالتذمر والشكوى الواحد تلو الآخر.

وعند حوالي الساعة الـ 11 ليلاً، وقبل ساعات من موعد انتهاء وقت العمل، طلبت من توفا بمناداتها والحضور معها إلى مكتبي لكي نقوم بطردها، بصورة حضارية طبعا. في داخل المكتب، قالت لها توفا:

– حالياً... ليس لنا حاجة لخدماتك لذلك... يمكنك الآن الذهاب إلى مسكنك.

ولكن جن جنون سالي فبدأت بالهسترة موجهة الكلام لي، على الرغم من صمتي طوال الوقت:

– أتطردني؟ أتطردني؟

فأجبت بهدوء تام:

– لا، ولكن حالياً لدينا العديد من الموظفين، لربما نتصل بك لاحقاً يوماً ما.

فقالت توفا مضيفة:

– نعم، حالياً لدينا الكثير من الموظفين ولا نستطيع دفع رواتبهم لذلك ...

فقاطعتها سالي الشريرة غاضبة والشرار يخرج من عينيها قائلة:

– Shot up, bit (أخرسي أيتها العاهرة!).**

فراحت تصرخ في وجوهنا بطريقة هستيرية:

– أنتم تريدون من يقبل أقدامكم وأيديكم ولكن لن أفعل ذلك أبداً. اللعنة عليكم وعلى مكانكم، ولكنكم سوف تندمون على فعلتكم هذه .

ثم أضافت:

– لقد قمت بالتضحية بوظيفة أخرى معتذرة منهم لأجل هذه الوظيفة.

فحاولت توفا الرد عليها، خاصة بعد سبابها لها، ولكن قمت بمنعها عن ذلك، ثم حاولت تهدئة هذه القنبلة اليدوية قبل أن تنفجر في الغرفة وتفجرنا معها. لقد كانت سالي مريضة نفسياً ومدمنة للمخدرات. لذلك كان علينا الحذر في التعامل معها.

إن قصة كل من إيميلي وسامانثا وقصة سالي قد وقعتا في السنة الماضية، ولم يقوما أبداً بإبلاغ الشرطة ولم تتجرأ أي منهن على الشكوى. فماذا ستقول؟ قام بفصلي لاني كنت ادخن الحشيش في محله بينما أنا في حضن أحد الزبائن؟ أم فصلني لاني كنت غير مؤدبة مع الجميع؟ فكيف إذن للشرطة والمحققة إليزابيث وحتى مكتب وكيل النيابة من إيجادهن في هذا التوقيت ومن ثم تحريضهن بالشكوى والشهادة بعد كل تلك الشهور؟

علمنا لاحقا بأن المحققة اللئيمة إليزابيث قامت بإقناع القاضي بإصدار مذكرة تفتيش لسجلات الموظفين والذي يشمل كل ما يخص الموظفين من معلومات مثل أسمائهم، وأعمارهم، وأرقام هواتفهم، وحتى عناوينهم. ثم قامت بالاتصال بكل الفتيات الواحدة تلو الأخرى، محاولة جمع المعلومات تارة، وتحريضهن تارة أخرى، بالشكوى والشهادة أياً كان نوعها: إعتداء، محاولة إعتداء، تحرش جنسي، تمييز عنصري، تفرقة عنصرية، إضطهاد، معاداة السامية، تقديم الخمرة لقاصر دون الواحد وعشرين عاما، أو أية تهمة لإدانتي. ولكن بعد القيام بالاتصال بأكثر من مئة شخص من بينهم 60 فتاة، لم تجد تلك اللئيمة سوى ثلاثة فتيات، وكما هو واضح أن شكواهن الآن بعد تلك الشهور هو بدافع إستغلال الموقف والإنتقام.

وفعلاً إقتربت الساعة وبانت الأسرار.

إطلعي برّه!

بعد ستمائة يوم من الحبس في سجن المقاطعة، وبعد آلاف من الساعات قضيتها في التفكير في تلك الزنزانة، وبعد كل ذلك القلق والخوف اللذان جلبا لي ضغط الدم والسمنة والشعر الأبيض، وبعد الآلاف من الركعات، والعشرات من الآلاف من الدولارات للإستعدادات، حان الوقت للوقوف في المحكمة أمام منصة القضاة والمحلفين تحت رحمة الأمريكيين للبت في القضية: أمذنب كنت أم لا.

في دول الخليج العربية على الأقل، لدى القاضي السلطة الرئيسية والقرار النهائي فهو الذي يقرر إن كنت مذنبا أم لا. أما في أمريكا، فالأمر مختلف: القرار يكون بيد هيئة المحلفين ومهمة القاضي هي إدارة القضية فقط، أي وظيفته تشبه إلى حد كبير وظيفة الحكم في مباريات كرة القدم، وهناك فريقان يلعبان المباراة، فريق الدفاع وفريق النيابة، بحيث يعطى كل فريق الفرصة لعرض أدلته وحججه، ووظيفة القاضي هي توجيه مسار القضية والموافقة أو عدم الموافقة على عرض أدلة معينة على هيئة المحلفين، محكوماً بالطبع بقوانين الولاية. وعند إدانة هيئة المحلفين للمتهم، تكون وظيفة القاضي هو النطق بالحكم النهائي وفقاً للقوانين أيضاً.

ولكن من هم عادة أعضاء هيئة المحلفين؟ هم أناس عاديون جدا يتم اختيارهم بطريقة عشوائية عن طريق الرسائل البريدية. أي إن كنت أمريكياً فتوقع بيوم من الأيام عند فتح صندوقك البريدي أن تجد رسالة مكتوب فيها، "يجب عليك الحضور لأداء واجبك المدني في يوم .... لتكون عضواً في هيئة المحلفين". تسمى تلك الهيئة "بالمحلفين" لأنهم يقومون بواجبهم المدني تحت "القسم العظيم" بشكل عادل ووفقا للأدلة والقوانين، وبشكل عقلاني وليس وفقا للأهواء الشخصية. وهذا هو المفروض، ولكن الواقع شئ آخر. فوفقا للدراسات العلمية في أمريكا عموماً فالعواطف والانفعالات والعنصرية تلعب الدور الحاسم في تلك القرارات.

على أي حال، لقد صادف موعد محاكمتي الذكرى السنوية الثامنة لهجوم القاعدة على ولاية نيويورك وواشنطن (11/9). أصدفة كانت المسألة؟ أعلم بأن وكيل النيابة قد اختار ذلك الأسبوع للمحاكمة والسبب كما زعم أنه "مشغول" بقضايا أخرى في باقي أيام السنة. بالطبع، إن هناك مشكلة كبيرة في ذلك التاريخ والموعد. وكما هو الحال مع التلفزيون الكويتي في 2/8 من كل سنة حيث يقوم بعرض الأفلام الوثائقية لغزو الكويت، وهذا بالطبع يعيدنا بالذاكرة إلى ماضي أليم ويجلب لدينا مشاعر سلبية تجاه جار السوء، يقوم الإعلام الأمريكي في الحادي عشر من سبتمبر من كل عام بتقديم الأفلام الوثائقية عن تلك الأحداث الأليمة، وعن العرب والمسلمين والإرهاب والتطرف وصدام حسين، والطالبان، ،القاعدة، وياسر عرفات وعن كل ما هو سيء في الشرق الأوسط.

وعند حضور أعضاء هيئة المحلفين في يوم المحكمة، فسوف يكونون مُشبعين بكل ما هو سيء، ومُحملين بكل المشاعر السلبية تجاه العرب والمسلمين. ومن أنا؟ أنا عربي مسلم؟

أسمر اللون واسمي "ياسر". فهل ترى العلاقة والعامل المشترك؟ عادة الأمريكيون لا يدعون أي شئ للصدفة فهم يمكرون، ولقد كان اختيار هذا الموعد بالذات من مكر وكيل النيابة، وليس مجرد صدفة بحته.

قام السجان بنقلي من سجن المقاطعة إلى مبنى المحكمة صباحاً مبكراً ومقيداً من رأسي إلى قدمي وكأني "عمر المختار" في فيلم مصطفى العقاد، ثم وضعت في زنزانة انتظار فيها مرآة ومشط ومخزن للملابس. يسمح لك في يوم المحاكمة بارتداء البدلة وربطة العنق لكي لا تبدو كالسجين أمام أعضاء هيئة المحلفين. لذلك قام طارق زوج أختي بجلب البدلة وربطة العنق والأحذية. وفعلا كانت البدلة موضوعة في خزانة الملابس في الزنزانة ولكن ليس هناك ربطة عنق وذلك تخوفاً منهم بأن يقوم المسجون بخنق نفسه بها بعد أو حتى قبل خسارة القضية. أما المشط فهو لتصفيف شعرك قبل دخول قاعة المحكمة مما يجعل السجين يظهر بشكل لائق في قاعة المحكمة. وكما قال الفنان عادل إمام في مسرحية الشهيرة الواد سيد الشغال: "ناس طيبين أوي!"

ولكن كانت هناك ثمة مشكلة صغيرة جدا. إن البدلة التي اشتراها لي طارق زوج أختي كانت صغيرة جداً لدرجة أني عندما لبستها، أصبحت أبدو وكأني فؤاد المهندس في الأفلام المصرية الأبيض وأسود. لقد غاب عن عقل زوج أختي بأنني قد أصبحت سميناً خلال فترة سجني بين أربعة حوائط، حيث ازداد وزني 40 كيلو غرام. وقبل دخولي إلى قاعة المحكمة من الباب الجانبي، جاء أحد رجال شرطة حراس القاعة وساعدني على وضع ربطة العنق وترتيبها قائلاً لي، "حظاً سعيداً". عبارة قد قصدها فعلا، فهو حارس القاعة وقد رأى الكثير من المتهمين والمسجونين المظلومين الذين كسبوا قضاياهم، أو على الأقل كان يفترض أن يكسبوها، فهو هناك معهم يسمع ويرى.

دخلت في داخل القاعة غير مقيداً البتة مرتدياً بدلة جميلة (وإن كانت ضيقة قليلاً)، وكانت القاعة مضاءة بالأنوار التي لم أعهدها بالزنزانة، وهناك الكثير والكثير من الناس، أصدقاء وأهل وموظفين، والكل يلوح بيديه اليمنى لتحيتي وهناك من يلوح لي بيده بعلامات النصر، وكانت الضوضاء عالية. يا لذاك المنظر! حقاً قد أفرحني ما رأيت من أهل وأصدقاء فزادت خفقات قلبي من شدة الحماس وأحسست بأن الفرج قريب: "اليوم!"، فالمعنويات عالية وكأنها مباراة يعلق عليها خالد الحربان.

طلب مني حارس قاعة المحكمة المسلح الجلوس على الكرسي خلف طاولة الدفاع وعدم التحرك منه أبداً، وإلا... (فراح يشير إلى مسدسه المخبئ في جانبه).

– سمعا وطاعة، بالطبع!

ولكنه لم يمانع الالتفاف إلى الوراء والنظر إلى الجمع الغفير من الناس في القاعة. وكلما أطلت النظر أكثر كنت أرى المزيد والمزيد من الأصدقاء والأهل والموظفين والمعارف، وحتى المستقيلين

منهم يقومون بدخول قاعة المحاكمة التي امتلأت مما اضطر بعضهم للجلوس في خارج قاعة المحكمة، على الكراسي الخشبية في الممرات في ترقب شديد.

جلس بجانبي المحامي هاربر وابنه، وهو أيضاً محامي، وبعد الترحيب قال لي المحامي هاربر:

– يقول طارق زوج أختك بأن يوم ميلادك بعد بضعة أيام، هل هذا صحيح؟

فأجبته:

– نعم.

– إذن، اعتبر كسب القضية اليوم هدية عيد ميلادك مني شخصياً (ثم راح مبتسماً). – الله يسمع منك يا معود! (قلتها محدثاً نفسي، فوالله لقد ارتفعت معنوياتي فوق السحاب).

اقترب العقرب الكبير نحو رقم الـ 12 وكان العقرب الصغير على الـ 9، فدخل حارس آخر للقاعة من الباب الجانبي معلناً:

– هذه حضرة القاضية "دكر".

فصمت الجميع وقمنا بالوقوف تحية للقاضية، ثم دخلت وطلبت من الجميع الجلوس. ثم قامت القاضية بأخذ نظرة شاملة للمكان المزدحم، وقد بدى على ملامحها التعجب عندما لاحظت بأن مدرجات القاعة خلفنا، نحن مكتب الدفاع، مملوءة بالكامل من محبين ومشجعين، فعلقت قائلة:

– يا له من جمهور غفير! ثم قامت بالسلام على وكيل النيابة وفريقه والمحامي هاربر وابنه أيضاً، فقالت:

– هل أنتم مستعدون أيها السادة؟

– نعم يا حضرة القاضية.

– هل جميع الشهود متواجدين؟ أم هناك متغيبون مما يستوجب إحضار استدعاء لهم؟

فأجاب وكيل النيابة فرانسيس:

– نحن جاهزون يا حضرة القاضية.

ثم أجاب المحامي هاربر:

– ونحن كذلك.

– حسناً

ولكن قبل أن تبدأ القاضية المحترمة في سير القضية، كشفت عن أنيابها ومخالبها فراحت بالتهجم على إحدى الحضور وكانت فتاة عربية ترتدي الحجاب، قائلة:

– لحظة! ومن تلك المرأة التي تغطي رأسها؟ أنا لا أسمح لأحد في قاعتي أن يغطي رأسه، سواء بالخرقة أو القبعة.

فقام الجميع بالنظر حولهم يميناً ويساراً حتى استدلوا على الفتاة التي تجلس بينهم بالقاعة المزدحمة، فأدركت الفتاة المسكينة بأنها هي المقصودة، ولابد أنها كانت محرجة للغاية من تعليق القاضية الذي لم يكن له أي داع، ومن التفات الجميع إليها وجعلها نقطة محور. حاول المحامي هاربر استدراك الموضوع قائلا:

– إنها تلبس الحجاب، وهو زي المسلمين.

فقالت القاضية:

– ممنوع!

ثم توجهت بحديثها إلى أحد حراس القاعة قائلة:

– يا حارس، خيرها فإن اختارت الحجاب، الرجاء أخرجها من القاعة.

فحاول المحامي هاربر شرح وضع الحجاب في الدين الإسلامي وأنه جزء من عقيدتنا، إلا أن القاضية تشبثت برأيها قائلة:

– مفهوم، ولكن ليس في قاعتي.

وهكذا طردت المحجبة من قاعة المحكمة في يوم المحاكمة مما اضطرها للجلوس على الكرسي الخشبي في الممرات في الخارج طوال فترة المحاكمة. بداية لا تبشر بالخير أبدا. علمت حينها بأننا نواجه قاضية بيضاء وعنصرية تميز ضد المسلمين خاصة.

ويا لها من بداية!

يا أبو سعبوله!

بدأت المحاكمة بعد طلب القاضية إدخال أعضاء هيئة المحلفين حيث كانوا عبارة عن أربعة نساء بيض في الأربعينيات والخمسينات من العمر، ورجلين في أوائل الأربعينيات. فبدأت القاضية بالتحدث إليهم قائلة:

– تفضلوا بالجلوس. شكراً لحضوركم لتأدية واجبكم المدني. أنا اسمي القاضية دكر ومهمتي هي جعل القضية تسير بسلام، وإعطاء كل طرف من الاطراف حقه في تقديم الأدلة واستدعاء الشهود وما إلى ذلك. ووظيفتي أيضاً هنا الحرص على تطبيق القانون وحمايته، وإجراءات المحكمة. إن عملي يشبه إلى حد كبير عمل حكم المباراة، وظيفته إدارتها ولكن عدم التدخل باللعب أو ركل الكرة.

فضحك الجميع على ظرافتها وحتى أنا شخصياً محاولاً جلب انتباهها نحوي، لكي تعلم بأني مسرور بـ "خفة دمها". على أي حال، بعد شرحها لأعضاء هيئة المحلفين عن قانون المحاكمات عموماً، طلبت من فريق وكيل النيابة والدفاع بالتعريف بأنفسهم إلى أعضاء هيئة المحلفين ففعلا.

ولكن، ومنذ البداية، لم تعجبني نظرتهم نحوي، فلقد نظر إلي أعضاء هيئة المحلفين وكأني حشرة؛ كانت نظرتهم تشبه نظرة بعض الكويتيون لغير الكويتيين من الجنسيات الآسيوية ممن يعملون بالوظائف الدنيا. تخيل بأنك ترى عاملا آسيويا قد قيل عنه أنه قد اغتصب بنت كويتية، فكيف ستكون ردة فعلك؟ أتذكر حادثة قد حدثت على الواجهة البحرية في أوائل التسعينيات في الكويت، عندما قام ما يقارب المائة كويتي بضرب رجل بنغالي في منتصف الواجهة أمام مرأى من الشرطة فاقتربت نحوهم مستفسرا:

– شسالفة أمه؟

فراح أحدهم يقول:

– اغتصب بنت كويتية!

– لا يحوشك!

والله كان شعوري في تلك اللحظة شعور بنغالي قد وضع في سجن طلحة بينما يعتقد الجميع أنه قد اغتصب أحد الفتيات. فشعرت بأسوء شعور قد يمر على إنسان، أتعرفون لماذا؟ أولاً: لأن هذه القضية جادة وحساسة للغاية وسيئة للغاية أيضا. فبمجرد نطق كلمة "اغتصاب"، تثير تلك الكلمة جميع المشاعر السلبية لا إراديا. وتتساوى جميع الثقافات بنظرتها وردة فعلها تلك، وأبرز شعور يطغى هو شعور بالاشمئزاز. ثانياً: لأن اسمي عربي وديني هو الإسلام وشكلي ببساطة وكما نصفه باللهجة الكويتية "أكلح أملح"، فالمعادلة كلها لم تعجب هيئة المحلفين منذ

البداية، وحتى المحامي هاربر كان ينطق اسمي بشكل غير صحيح وبتلكؤ وعدم ثقة. ثالثاً: لأن من ينظر إلي ممن لايعرفني، رأسا يأخذ انطباعا خاطئا عني. وهذا ما كنت أخشاه عندما نظر إلي المحلفين نظرتهم تلك.

فتذكرت حينها عندما كنت صغيراً، أجلس في الحي مع صديقي مرزوق على عتبة باب بيتنا في عز الظهر، فظهر " أبو سعبولة " ولد كبير مجنون ومسعور ذو طباع غريبة ويد طرشة. وكان ماراً في طريقه إلى الجمعية فراح صديقي مرزوق ينعته بالسباب، "أيها المجنون، يا أبو سعبوله!". فراح "أبو سعبولة" يجري نحونا ثم رفع يده الطرشة فصفعني على وجهي صارخاً، "أنت المجنون أبو سعبولة!". لقد عوقبت على فعلة لم أفعلها أصلاً، فأخذ مرزوق يضحك عليّ طوال اليوم قائلاً: "يا صاحب الحظ التعيس!". على أي حال، كنت أخشى ما أخشاه أن يأخذ المحلفين انطباعا سيئا عني واصدار حكم سيء علي قبل البدء بالمحاكمة أصلا وقبل سماع الأدلة والبراهين.

والآن وقبل أن أسرد ما حدث في يوم المحاكمة، دعني أشرح الإجراءات التي تقع في خلال هذه القضايا الجنائية، فولاية فلوريدا—على عكس بعض ولايات أمريكا—لا تسمح للمحاكمة أن تأخذ أسابيعاً أو شهراً أو شهرين، فإن الحد الأقصى للقضايا الجنائية هو ثلاثة أيام، ومعظمها تنتهي في يوم واحد. أما سير القضية فهو على النحو التالي:

أولاً: يقوم المدعي العام بإلقاء مقدمته على أعضاء هيئة المحلفين والتي عادة ما تستغرق الـ 15 دقيقة، فيها يقوم بشرح ما سوف يراه المحلفين من شهود وأدلة وخبراء، ثم يقوم الدفاع بعمل نفس الشئ.

ثانياً: يبدأ المدعي بتقديم الأدلة:

1) شهود.

2) أدلة جنائية كنتائج المختبرات وما إلى ذلك .

3) خبراء وعلماء.

ثم يبدأ المحامي بسؤال الشهود والخبراء لاستخلاص ما يود استخلاصه منهم كالتناقض أو الكذب أو حتى النسيان.

ثالثاً : يقوم الدفاع بتقديم الأدلة:

1) شهود مضادة.

2) أدلة جنائية مضادة.

3) خبراء وعلماء لإثبات العكس مثلاً .

ثم يبدأ المدعي العام بسؤال الشهود والخبراء التابعين للدفاع محاولاً إيقاعهم بالتناقض أو الكذب أو النسيان.

رابعاً: يقوم كل من المدعي العام والدفاع بإلقاء كلمة الختام على أعضاء هيئة المحلفين لربط الأدلة ببعضها البعض ورسم صورة واضحة للقضية.

خامساً: تقوم القاضية بتلقين أعضاء هيئة المحلفين صيغة القانون وسؤالهم ما إذا قام المتهم بإختراقه.

أخيراً: يدخل هيئة المحلفين إلى قاعة المحاكمة لتقديم نتيجة نقاشاتهم مع بعضهم البعض للإقرار ما إذا كان المتهم "مذنب" أم "غير مذنب". وفي حالة الإدانة، تقوم القاضية بالنطق بالعقوبة ومدة الحكم وفقاً لقوانين العقوبات في ولاية فلوريدا. أعلمت الآن عن الإجراءات التي تقع في خلال القضايا الجنائية في فلوريدا؟ لنعود إذن الى قضيتنا.

أعطت القاضية الفرصة للمدعي العام لإلقاء كلمة المقدمة، فقال مستفتحا:

– شكراً يا حضرة القاضية. سيداتي سادتي، الأعضاء المحلفين، صباح الخير. أنا اسمي فرانسيس. سوف ترون اليوم أدلة دامغة تدين المتهم ياسر البحري الجالس أمامكم.

ثم قام بالإشارة نحوي ثم راح مضيفاً:

أولاً: لدينا العديد من الشهود الذين سوف تستمعون إلى شهادتهم بأن المتهم قد اغتصب ميمي وأخريات بعد إرغامهن على شرب الخمرة معه حتى تسهل فعلته. ثانيا: لدينا شهادة خبير الدولة فهي متواجدة هنا اليوم، وهي سوف تقوم بالتعليق على عملها وقراءة التحاليل لكم لكي تسهلها وتسهل المصطلحات العلمية عليكم لفهمها. بالنهاية، سوف أثبت لكم ودون شك أن المتهم ياسر البحري قد اخترق قوانين جنائية عديدة لذلك يجب عليكم إدانته. وشكراً.

بعد إنتهاء المدعي العام من إلقاء كلمته، أتاحت القاضية الفرصة للمحامي هاربر، للدفاع وإلقاء كلمة المقدمة، فقال:

– يا سيدات ويا سادة، صباح الخير. تسرني رؤيتكم اليوم.

فراح مبتسماً لهم ثم أضاف:

– إن موكلي، السيد ياسر البحري، شخص معروف على مستوى المنطقة فهو صاحب محلات تجارية في تالاهاسي وأيضاً في الكويت، بلدته الأصلية. أيضاً هو محبوب من قبل أهله وأصدقائه وحتى موظفيه، كما يمكنكم ملاحظة ذلك في هذه القاعة.

فراح مشيراً نحو القاعة التي قد ملئت بالأحباب الذين قد أتوا لمؤازرتي ثم أضاف:

– منهم من قام ياسر بلعب كرة القدم معه، ومنهم من قام ياسر بمساعدته في واجباته الدراسية في الجامعة، ومنهم من قام ياسر بمرافقته في رحلات صيد السمك. جميعهم هنا اليوم لسبب واحد فقط: مؤازرة ياسر في محنته. وقبل أن أبدأ، أيها السادة، رجل شرير لا يمكنه أن يكون لديه ذلك العدد الهائل من الأحباب والأصدقاء الذين تركوا أعمالهم اليوم للحضور هنا لمؤازرته! ما لا تعلمونه وسوف تعلمونه اليوم من خلال الأدلة هو أن ياسر أيضاً طالب في الجامعة، صغير في السن، في أواخر العشرينيات، يدرس في برنامج الدكتوراه في الجامعة هنا بتالاهاسي. أما بالنسبة إلى الأدلة الجنائية، فهي في صالح السيد ياسر، حيث أنه لم يكن هناك اغتصاب أو ضرر أو أي شيء من هذا القبيل. سيداتي سادتي، إن كل ما أطلبه منكم هو الانتباه والعقلانية وليس الحكم المسبق والعواطف. فإن حكمتم عقولكم، لن تستطيعوا إدانته، لأنه لم يخترق أي قانون، وشكراً.

لم أعتقد بأن بداية المحامي هاربر بالقوية ولكن، لقد بدأت المحكمة، وليس أمامي خيار آخر، على الرغم أنني عندما سمعت ماقاله وددت لو ركلته برجلي وأخذت مكانه للترافع عن نفسي.

ياسر البحري: زعيم الشَّر

وبعد الانتهاء من المقدمات من قبل فريق وكيل النيابة وفريق الدفاع، تُتاح الآن للمدعي العام الفرصة لإخراج كل ما في جعبته من شهود، وأدلة جنائية، وخبراء لكي يثبت نظريته لأعضاء هيئة المحلفين بأني مغتصب لميمي وأخريات، أي مغتصب بالجملة، والفضل في ذلك يعود لسماح القاضية له باستعمال قاعدة ويليام، كما رأينا. قام فريق وكيل النيابة أولاً بوضع بطلة الفيلم الرئيسية ميمي، على منصة الشهود، فبدأ بطرح الأسئلة عليها:

– اسمك يا آنسة؟

– ميمي.

– عمرك؟

– 20 سنة.

– حسناً. هل تعرفين شخصاً يطلق عليه اسم ياسر البحري، وهل تستطيعي الإشارة إليه من أجل أن يراك المحلفين؟

– نعم أعرفه. وهذا هو هناك جالس خلف مكتب الدفاع.

ولكنها عوضا عن الإشارة تجاهي، أشارت تجاه إبن المحامي هاربر! وهو محاميي أيضا، ويقربني في العمر، ويجلس معنا وراء طاولة الدفاع. فقالت:

– هذا هو يلبس البدلة السوداء.

وعند تدارك القاضية للخبطتها، حاولت "الترقيع" لها، قائلة:

– معليش، يا أستاذ هاربر، لو سمحت، تنحى جانبا لكي يسهل على الآنسة التعرف على السيد ياسر البحري.

ولكن، لحظة من فضلك! كيف لها عدم التعرف على "الجاني"؟ هذا بحد ذاتة كان كفيل بإلغاء القضية وفقا للقانون الأمريكي: "وجب تعرف المجني عليه على الجاني". ولكن، هنا، وبشكل واضح، حاولت القاضية التخفيف من شدة الموقف خاصة عند ادعائها:

– تقاربت الأشكال والأعمار وحتى نوع البدلة لياسر ومحاميه الصغير، مما أدى الى لخبطة الآنسة.

حسبي اللة ونعم الوكيل. وأي حكم انت؟ الغش واضح من أولها! وبعد تصحيح خطأ ميمي ومساعدتها للتعرف علي، إستمر المدعي العام بأسئلته:

– حسناً قولي لنا ماذا حصل في ليلة الأربعاء من يوم 25/1/2007؟

بدأت ميمي وكأنها مدربة وملقنة لقول ما تقول، وكأنها تقرأ ما تقوله من ورقة في يدها. عجبا، لقد قامت بتغيير الموضوع كلياً وما جرى تماماً، فقالت:

– كنت أعمل لدى ياسر في محله في تلك الليلة، ولكني كنت متوترة قليلاً مما أدى بي للوقوع ببعض الأخطاء في أثناء خدمة الزبائن مما أغضبه، فراح يوبخني مراراً قائلاً أنه يجب علي دفع ثمن أخطائي لاحقاً. وبعد فترة من العمل، طلب مني ياسر احتساء الخمرة قائلاً بأني بحاجة لها لكي تهدئ أعصابي، ففعلت. وبعد انتهاء العمل، طلب مني ياسر البقاء لأنه يريد النقاش معي عن تلك الأخطاء التي ارتكبتها في أثناء العمل. وعند دخولي في الغرفة الخاصة، قام ياسر بسكب الخمرة لي وأجبرني على الشرب ففعلت. ثم سكب المزيد فطلب مني الشرب، فشربت المزيد وهكذا. فبدأت الدنيا باللفاف والدوران ثم فقدت الوعي.

ثم بدأت ميمي باصطناع البكاء والنحيب في القاعة، ولم تنزل من عينيها دمعة واحدة؛ فأخذت تحاول جاهدة أن تذرف الدموع ولكن دون جدوى، فقال لها المدعي العام:

– هدئي من روعك!

– آسفة!

– هل يمكنك الإكمال؟

– نعم.

– حسناً، ثم ماذا حدث؟

– بينما كنت مستلقية على الأرض فاقدة الوعي، شعرت بشيء...

– وما هو؟

– شعرت بأن ياسر قام بنزع بنطلوني ثم وضعني على بطني ثم ...

– ثم ماذا؟

فقامت بالبكاء من جديد وبدأت دموع التماسيح بالتساقط أخيراً، وانقلبت قاعة المحكمة إلى مسرحية أبطالها طلبة هواة في المرحلة المتوسطة. فسألها وكيل النيابة:

– أكملي من فضلك.... ماذا حدث؟

– لا أعلم... لأني كنت فاقدة الوعي؛ أصحى تارة وأغيب عن الوعي تارة أخرى.

– حاولي أن تتذكري.

فقالت قاذفة قنبلتها اليدوية في قاعة المحكمة:

– اغتصبني ياسر. قام بطرحي على بطني تم قام بنزع بنطلون الجينز، ثم...أحسست بشيء.

– ثم ماذا حصل بعد ذلك؟

– طلبت منه التوقف والذهاب إلى المنزل.

– وهل رضيت بمعاشرته لك، وأن يفعل بك ما فعله؟

– لا، لم أرضى بذلك.

ثم التفت المدعي العام نحو القاضية قائلاً:

– لا مزيد من الأسئلة يا حضرة القاضي.

فقالت القاضية للدفاع بأنه جاء دوره لسؤال ميمي. فبدأ المحامي بسؤالها أسئلة محاولاً استخلاص التناقض في كلامها:

– يا آنسة ميمي. هلا ذكرتي لي تفاصيل الليلة بالضبط؟

– لا أتذكر التفاصيل فقد كنت فاقدة للوعي.

فقام المحامي بتكرار ما قالت ميمي محاولاً تنبيه أعضاء هيئة المحلفين:

– أنت إذن لا تستطيعين سرد تفاصيل الليلة لأنك كنت فاقدة للوعي؟

– هذا صحيح. ولكن أعلم أن ياسر اغتصبني.

– وكيف تعلمين وأنت تدعين بأنك كنت فاقدة للوعي؟

فصمتت ميمي عن الكلام. فأضاف المحامي قائلا:

– إما أنك كنت مستيقظة وفي كامل وعيك وتعلمين ماذا يحدث أو أنك فاقدة للوعي ولا تعلمين ماذا يحدث، ولكن فاقدة الوعي وفي نفس الوقت تعلمين؟ هذا غير واقعي.

فصمتت ميمي من جديد، لا تعرف بماذا تجيب، فراح المحامي هاربر يسأل:

– وأيضاً، قلت منذ قليل أنك طلبت منه الذهاب إلى البيت، أليس كذلك؟

– نعم.

– ذهبت إلى البيت؟

– نعم.

- ومن أوصلك إلى البيت؟

- ياسر.

- هل يدل ياسر موقع سكنك؟

- لا.

- فكيف أوصلك هناك؟

- كنت أوصف له بينما يقود سيارته.

وهنا قام المحامي هاربر بإيضاح عباراتها المتناقضة، قائلا:

- كيف استطعت وصف الطريق له، وانت تدعين بانك كنت فاقدة الوعي من كثرة الشرب؟

هنا إلتزمت ميمي بالصمت، فلم تستطع تبرير عباراتها. فأضاف المحامي:

- لحظة! أيعقل أصلا أن تركبي سيارة شخصا قد قام بإغتصابك للتو؟

سكتت ميمي ولم تستطع الرد. فسألها المحامي من جديد:

- لدي سؤال آخر: كنت فاقدة الوعي أحياناً أليس كذلك؟

- نعم.

- ولا تتذكرين الكثير؟

- هذا صحيح.

فتوجه المحامي بكلامه للقاضية قائلا:

- ياحضرة القاضية أطلب منكم سحب القضية وإلغاؤها لعدم توفر أي دليل على وجود اعتداء جنسي أو حتى التحام، ووفقاً لقول المدعية بأنها لا تعرف تفاصيل الاعتداء.

وهنا تم الصمت وبدت الدهشة على أوجه العديد وخاصة المدعي العام. فسكتت القاضية لتفكر قليلاً، ثم قالت: مرفوض. سأدع القضية تستمر، ويمكنك استئناف قراري في حالة خسارة القضية مع المحكمة العليا للإستئناف. فنظر هاربر إلي نظرة الغضب وقال هامساً: تباً! هذه القاضية لا تحبك نهائيا. عندما رفضت القاضية إلغاء القضية وطالبت بالاستمرار، توقف دماغ المحامي هاربر عن العمل فجأة، ولم أعلم لماذا. وبدأ بالتخبط وكأنه مسكوناً قد مسه الضُّر! فلو لم أكن في أمريكا، وكنت في عُمان أو في اليمن مثلا لاعتقدت أن ثم سحر في الموضوع!

المغتصب المتسلسل

بعد نزول ميمي من على منصة الشهود، بدأ المحامي باستخدام "قاعدة ويليام"، وذلك من خلال دعوة الفتيات الواحدة تلو الأخرى للإدلاء بأقوالهن، والهدف هو اعطاء أعضاء هيئة المحلفين انطباعا بأني مغتصب متسلسل يقوم بتوظيف البنات الصغار، ثم اغتصابهن بعد إرغامهن على احتساء الخمرة لتسهيل فعلته. تبا لك يا أحمق ومن فكر بهذا التفكير! ومن يحتاج لفعل ذلك في أمريكا؟ بلد الإباحية والدعارة والعاهرات المتطوعات في كل مكان وزمان! ولكن فجأة بدأ الأمريكيون بلعب دور الشرف.

جلست إيميلي، مدعية أخرى، على كرسي منصة الشهود. وبعد سؤالها عن اسمها وعنوانها وعمرها وغيرها من الأسئلة الرسمية، سألها وكيل النيابة عن تلك الليلة المزعومة فقالت:

– كنت في المقهى مع صديقتي سامنثا، وقد دخل ياسر بعد انصراف الجميع.

– ثم ماذا حصل بعد ذلك؟

– قام ياسر بالتحسس على جسدي، وشدني إليه بقوة محاولاً تقبيلي.

– وهل استطاع فعل ذلك؟

– لا لم أدعه. ولكن حاول فعل ذلك مراراً.

وهنا حاول المدعي العام التأكيد على أنني حاولت اغتصابها، فسألها:

– وهل كنت راضية عما حاول فعله بك؟

– كلا.

بعد إنتهاء المدعي العام من أسئلته لإيميلي، جاء دور المحامي هاربر بسؤالها محاولاً اظهار التناقض في حديثها فقال:

– يا آنسة إيميلي، هل ماحدث لك كان في أوقات العمل الرسمية؟

– كلا.

– وهل قمت بالاتصال بصديقتك سامانثا للحضور للمقهى؟

– نعم.

– وهل كان هناك أحد في المقهى غيرك أنت وسامانثا؟

- كلا.

وماذا عن الشابين اللذين كانا في المقهى؟

- كانا من الزبائن.

- وكيف يستمر الزبائن بالتواجد بالمقهى بعد انتهاء موعد العمل الرسمي.

سكتت إيميلي ولم تجيب.

- وهل لبست أمام الزبون الكريم ملابس الراقصات الشرقيات ورقصت أنت وصديقتك بينما يقوم الزبون بالتنقيط عليكما؟

لم تجيب إيميلي واستمرت في صمتها.

- حسنا، وبعد حصول ما تزعمين، لم لم تقومي بالاتصال بالشرطة في ذلك اليوم، لإخبارهم بما حدث لك، عوضاً عن الانتظار شهوراً حتى قامت الشرطة بالاتصال بك؟

لم تعرف ما تقول أو تجيب، فقال هاربر:

- شكراً يا حضرة القاضية، ليس لدي المزيد من الأسئلة.

وهنا قام المدعي العام بوضع سامانثا، صديقة إيميلي، والتي ادعت بأني قد اغتصبتها بالإكراه في نفس تلك الليلة.

- ماذا حصل في تلك الليلة يا آنسة سامانثا؟

- اتصلت بي إيميلي لمرافقتها في المقهى فأتى ياسر وحاول اغتصابي عنوة.

- هلا قلت لنا كيف وقع ذلك؟

- بينما كنت جالسة في غرفة الـ VIP ، قام ياسر بإدخال قضـ*&٪ في فمي...

ثم سكتت سامنثا عن الكلام محاولة البكاء ولكنها لم تنجح بإخراج الدموع. حقاً لم تعرف التمثيل ولم تتقن الدور. كانت ميمي أفضل منها بلعب الدور.

فسألها المدعي العام:

- وهل كنت تريدين ذلك؟

- كلا.

- لا مزيد من الأسئلة يا حضرة القاضي.

ثم جاء دور المحامي هاربر، فسألها على النحو التالي:

– هل لديكم أطفال في المنزل؟

– نعم.

– هل حاولت قط إطعام الطفل baby food **بالملعقة؟**

– نعم، مرارا.

وهنا لم تفهم سامانثا المغزى من وراء ذلك السؤال العظيم. فأضاف المحامي:

– هل ستستطيعين إدخال الملعقة في فم الطفل إن قام الطفل بإقفال فمة وإمتنع وولى وجهه بعيدا عن الملعقة؟

فأجابت:

– بالطبع لا!

وهنا قام المحامي بالنظر نحو هيئة المحلفين مبتسما، آملا أن يفهموها وهي "طايرة". ثم سأل من جديد:

– يا آنسة سامانثا. متى حدث ما تزعمين به من تحرش جنسي؟

– منذ أشهر.

– فلم لم تخبري الشرطة؟

– ترددت في ذلك.

– شكراً، شكراً ، يا حضرة القاضية، ليس هناك المزيد من الأسئلة .

من إدعاء الفتيات أستطيع أن أقول أنهن مجموعة عاهرات قد أعطيت لهن فرصة الانتقام. وهنا دخلت سالي المتكبرة المغرورة في قاعة المحكمة فلقد جاء دورها في الشهادة. فراحت تمشي في منتصف القاعة متوجهة نحو المنصة باختيال وغرور وكأنها في عرض أزياء إيطالي. بعد المقدمات سألها المدعي العام:

– هل يمكنك إخبارنا بما حدث في تلك الليلة؟

– نعم، كنت أعمل في المحل وكانت الساعة 11 تقريباً، فقال لي ياسر بأنه بإمكاني الذهاب إلى غرفة المكتب لأخذ فترة راحة من العمل. ففعلت، ولكن بينما كنت في المكتب، بدأ ياسر بإعطائي كؤوس الخمر طالباً مني احتساؤها. ففعلت. ثم فجأة حاول ياسر التحرش بي فضربته. ثم قمت بمحاولة الخروج من المكتب، ولكنه حاول أن يمنعني واقفاً ليغلق باب الخروج قائلاً إما أن

اعطيه ما يريده أو أنه لن يسمح لي بالخروج. ولكني اقتربت منه وضربته في أنحاء متفرقة من جسده ثم ضربته على رأسه فوقع على الأرض ثم خرجت من الغرفة.

عجباً! أهذا ما حصل أم أنه مقطع من فيلم هندي؟ أهذه سالي أم Iron Woman المرأة الحديدية؟! جاء دور محامينا لسؤالها، فقال:

– وهل كانت تلك الليلة أول ليلة لك في العمل هناك؟

– نعم.

– وهل كانت هناك شكاوى من قبل بعض الزبائن ضدك؟

– نعم.

ثم بدأت سالي بالتذمر من الزبائن وبان عليها الغضب والهيستيريا:

– لقد حاولت إرضاؤهم ولكنهم كانوا كثيري التذمر، وأنا لست سوى واحدة ذات يدين اثنين فقط، ولست بإخطبوط ذو ثمانية أيدي! حقاً لقد كانوا عالة على القلب عجولين وهلوعين!

– لدي سؤال أخير، هل قمت بالإتصال بالشرطة بعد أن حصل لك مثل هذا الأمر المفزع؟

– كلا.

– ماذا فعلتي عوضاً عن الاتصال بالشرطة؟

– قضيت باقي تلك الليلة مع صديق لي في مسكنه.

فعلا كان ذلك الصديق موظف عندي قد طلب المغادرة مبكرا لأنه "مطلّع" سالي في تلك الليلة للإحتفال بشرب الجعة والحشيش. على أي حال، هنا قام المدعي العام بإخبار القاضية بأنه سوف يقوم بالانتقال إلى المرحلة الثانية من القضية وهي إحضار الأدلة الجنائية وخبيرة الولاية لشرحها لأعضاء هيئة المحلفين. فقالت القاضية: لا بأس، دعونا نأخذ راحة 30 دقيقة ثم العودة من جديد.

ورفعت الجلسة!

ظهر الحق! ظهر الحق!

وعدنا بعد الإستراحه، وبدأت المحاكمة من جديد، حيث وضع المدعي العام خبيرة الولاية للأدلة الجنائيه كالبصمات، وتحاليل الدم، وتحاليل الأحماض النووية، الـ DNA على منصة الشهود. وبعد البدء بالرسميات كالإسم والعمر والعنوان والمهنة، طلب منها المدعي العام شرح الأدلة المتوفرة للمحلفين بطريقة بسيطة حتى يتسنى لهم فهمها. فقالت:

– لدينا هنا عدة أدلة جنائية. أولا: هناك تحاليل دم الضحية لإيجاد نسبة الكحول فيه، ونسبة المخدرات والحبوب المنومة. ثانياً: هناك تقرير الأحماض النووية التي قد تم جمعها من جسد الضحية، وأصابع المتهم، وأرضية غرفه الـVIP. ثالثا: لدينا تقرير المستشفى المسمى بـ " فحص الإغتصاب".

هنا، طلب منها المدعي العام شرح كل واحدة منها، فقالت:

– أما بالنسبة لنتيجة تحليل الدم، فهي كالتالي: لم يكن هناك أي رواسب أو شوائب كمادة الروفي الموجودة في حبوب المخدرات والتي تستعمل عادة لتخدير الضحية لإغتصابها (لذلك يطلق عليها "حبة الإغتصاب")، ولكن وجد في الدم نسبة كحول عالية وهي 0.103، وهي نسبة تدل على أن الضحية قد إحتست 5–7 من كؤوس الخمرة.

ثم أضافت شارحة تحاليل الأحماض النوويه:

– أما بالنسبة إلى تحليل الأحماض النووية، وُجد خليط أحماض نووية تعود لثلاثة أشخاص أو أكثر، على الجزء السفلي من جسدها.

فسألها المدعي العام ما إذا كان هناك حمض نووي تابع لياسر البحري في الخليط المذكور، فأجابت:

– من الممكن أن يكون الحمض النووي التابع لياسر البحري بينهم.

– من الممكن؟!

– نعم.

– هل يمكنك توضيح معنى تلك العبارة؟

– نعم.

وهنا بدأت الخبيرة بالتلاعب بالكلام واللف والدوران حول عبارة "من الممكن" وعِبارات مثل "لا يمكن إستبعاده"، "وممكن ضمه"، "وممكن شمله" إلى درجة أنني أنا شخصيا قد تهت

وأصبحت كالأطرش في الزفة. ولكن وكما يبدو كان عملاً متعمدا منهاً لإرباك أعضاء هيئة المحلفين وتمويع الإجابة. وفعلا بدا على الأعضاء الضياع.

وبعد أن انتهت من شرحها المبهم الذي يحتاج إلى شرح، سألها المدعي العام لقراءة باقي الأدلة، ففعلت:

- بالنسبة للعينات التي جمعت من أرضية غرفه الـVIP، فلم تطابق أحدا، و بالنسبة إلى العينات المجموعة من أصابع المتهم، فلم يكن هناك أي حمض نووي تابع للضحية. أما بالنسبة إلى تقرير المستشفى فليس هناك أي علامات للإغتصاب أو حتى الجماع الطوعي (أي ليس هناك التحام بين الأعضاء التناسلية للطرفين).

فاستوى المحامي قائما مرة أخرى، وطلب من القاضية إلغاء القضية، وإخلاء سبيلي لعدم وجود أدلة جنائية تفيد بالإغتصاب، وذلك وفقاً لشهادة خبيرة الولاية، التى أفادت بأنه، "ليس هناك أي علامات إغتصاب"، أو "الجماع". فقلت لنفسي فرحا:

- الحمد لله براءة... براءة! لربما أعود إلى أهلي اليوم!

ولكن قالت القاضية بأنها لن تلغي القضية وطالبت بإستمرارها، وإن كان لدى فريق الدفاع أي إعتراض يجب حفظه للإستئناف لدى محكمة الإستئناف بعد إنتهاء القضية في حالة الخسارة. ثم قالت للمحامي:

- أتود سؤال خبيرة الولاية؟

- نعم، ياحضرة القاضية. شكرا .

ثم قال لخبيرة الولاية:

- يا آنسة، لقد قلتي للتو بان DNA ياسر البحري يمكن وجوده في خليط الـ DNA المتواجد على جسم ميمي، والذي يرجع الى ثلاثة أو أربعة أشخاص مجهولين.

- نعم.

- وهل قمت بفحص باقي أحماض الـ DNA في ذلك الخليط؟

- نعم.

- وهل تعرفتي على هويات باقي أصحاب الـ DNA؟

- نعم. لهوية واحدة فقط.

- ومن ذلك الشخص؟

هنا، على الرغم من أن الخبيرة المحترمة لم تود الكشف عن هوية ذلك الشخص، إلا انه لم يكن لها الخيار (فلقد أعطيت لنا نسخة من التقرير). فرمت اجابتها وكأنها قنبله يدويه راحت تدمر قاعة المحكمه:

– هناك حمض DNA يعود الى الآنسة تارا.

فقال المحامي هاربر بنبرة المندهش:

– هناك على جسد الآنسة ميمي حمض DNA يعود للآنسة تارا؟

– نعم.

– وكيف تواجد DNA تارا على جسد ميمي؟

هنا، حاولت خبيرة الولاية الإستعباط:

– لا أعلم، فلم أكن متواجدة في تلك الليلة.

فقال المحامي:

– دعيني اكرر السؤال بصيغة أخرى. هل تتنقل الأحماض النووية عن طريق الهواء ام عن طريق التلامس كالالتصاق والالتحام؟

– ليس عن طريق الهواء طبعا. وجب التلامس والالتصاق والالتحام لإنتقال العرق أو اللعاب أو سوائل الجسد الأخرى من شخص الى آخر.

– لا مزيد من الأسئلة يا حضرة القاضية.

لعلك تدرك الآن العلاقة الحميمة المتواجدة بين ميمي وتارا، بطلتا هذه المسرحية الهزلية... ما يطلق علية في أمريكا بـ Lizbo . سحاقيات تحاولن تدمير حياة ياسر البحري بحجة الإعتداء الجنسي.

حتى هذه المرحلة من سير القضية، انتهى المدعي العام من طرح القضية، ورسم الصورة بما حصل في تلك الليلة المزعومة، والآن جاء دور فريق الدفاع لطرح الموضوع، ورسم صورة مغايرة ومضادة وفحص وتفنيد كل مزاعم الشهود والمدعي العام. ولله الحمد، لدينا الكثير من الأدلة التي تبطل ادعاءات الفتاة ميمي، محور قضيتنا الرئيسية، مثل:

- **شهادة الممرضة التي قامت بإستقبال ميمي في المستشفى ساعات بعد تلك الليلة لإجراء فحوصات الإغتصاب: لا إغتصاب أو حتى جماع.**
- **الشهادة العلمية لخبير الدم، وذلك بعد قراءة فحص الدم.**
- **شهادة صديقي أركدش ومديرة المحلِ توفا، اللذان كانا متواجدين في معظم الحلقات.**

• لدينا أيضا ما كتبته ميمي شخصيا َعلى صفحتها في الفيس بوك وإنتمائها لـ groups "محبي العنف الجنسي".

• وما كتبه أصدقاء ميمي على صفحتها في الفيس بوك تعليقاً على ماحدث لي (أنهم يودون الإيقاع بأخي كما أوقعوا بي).

• وأخيراً لدينا تحليل العيادة الخاصة الذي قمت به، والذي اكتشف وجود شوائب الروفي في دمي.

ولكن لن تصدق ما حصل عندما جاء دورنا لتقديم أدلتنا!

أحب أن أُغتصب

قام المحامي هاربر بوضع شاهدتنا الأولى وهي السيدة أماندا، الممرضة التي قامت بإستقبال ميمي بعد ساعات من تلك الليلة المشؤمة. والجدير بالذكر أن ميمي ذهبت إلى المستشفى بتحريض من المحققة اللئيمة إليزابيث وزميلها المحقق باك، حيث قاما باصطحابها إلى هناك بدافع الإحتفاظ بالأدلة كالشعر والأحماض النووية والسوائل الأخرى، وعدم فقدها عن طريق السباحة أو الإستحمام أو حتى غسل الملابس أو تبديلها. وبعد التعريف الممرضة بنفسها ومدى سنوات خبرتها في مجال التمريض، سألها المحامي هاربر:

– هلا قمت بإخبارنا عما حصل في صباح ذلك اليوم وما هو وضع الآنسة ميمي عند حضورها للمستشفى؟

فأجابت:

– نعم، حضرت الآنسة ميمي إلى العيادة في الصباح الباكر تقريبا ً الساعة الخامسة صباحاً برفقة محققين إثنين.

– وهل كانت تستطيع المشي؟

– كانت تستطيع المشي ولكنها كانت متعبة.

– وماذا حصل؟

– قال لي المحققون أنها ربما تكون حالة إغتصاب، وطلبوا مني إجراء "فحص الإغتصاب".

– وما هو ذلك الفحص؟

– أولا: قمت بأخذ الشعرات العالقة على جسدها لربما تكون هي شعرات من الفاعل. ثانيا: قمت بإضاءه جسدها بالمصباح الأسود، وبدأت بأخذ عينات من السوائل المتواجدة في مختلف أنحاء جسدها خاصة المناطق الحميمة. ثالثا: قمت بأخذ عينات من ملابسها الداخلية. رابعا: قمت بأخذ عينات من دمها لفحص نسبة الكحول، وما إذا كان هناك رواسب وبقايا للحبوب المخدرة والتي يطلق عليها اسم "حبة الإغتصاب" أو حبة الروفي. خامسا: قمت بفحص الأعضاء التناسلية لمعرفة ما إذا تمت المعاشرة أصلا أم لا، وفحص جسدها عموما، لتعيين ما إذا كان هناك خدشا، أو عظا ً ناتجا ً عن عملية الإغتصاب. وأخيرا: كعملا ً إحترازيا قمت بإعطاء الآنسه ميمي حبة منع الحمل في حالة وقوع الإغتصاب.

فقال المحامي هاربر:

– حسنا، وبعد أن جمعت كل ذلك ماذا فعلت به؟

– قمنا بإرساله إلى مختبر الولاية لعمل التحاليل وأخذ اللازم، وذلك هو وظيفة الخبراء للأحماض النووية والدم.

– وهلا قمت بشرح تقريرك الطبي لذلك اليوم؟

– أولا: بدت لي الآنسة ميمي مصابة بالتعب والإرهاق ولكنها إستطاعت المشي على قدميها. ثانيا: عند فحص أعضاءها التناسلية لم يتبين وقوع جماع أو معاشرة جنسية، وعادة يمكنك تعيين ذلك عن طريق فحص الجلد الداخلي، فهو حساس لدرجة تمكنك رؤية الإحتكاك الناتج عن المعاشرة العادية بين الأزواج. ثالثا: ليس هناك أثر لمقاومة ما كالخدوش، أو العظ أو السحب أو الدفع في أي مكان في جسد الآنسة ميمي كالرسغ أو المعصم أو الذراعين وغير ذلك.

هنا قام المحامي بشكرها على الإجابة على أسئلته، ثم قالت القاضية للمدعي العام أن بإستطاعته توجيه الأسئلة إن شاء فقال:

– يا أيتها الخبيرة، كم لك من الخبرة في أمور كهذه؟

– 15 سنة.

– ألم تكن الآنسة ميمي فاقدة للوعي؟

– لا، لم تكن فاقدة للوعي.

– حسنا، كيف كان شكلها عموما ؟ أقصد شعرها ووجهها؟ ألم تكن تبكي؟

– نعم، كانت تبكي أحيانا، وكان شعرها غير مصفف وكان الماكياج سائحا على وجهها من البكاء والعرق.

– هل أخبرتك عما حدث؟

– ليس بالشيء الكثير. فقط قالت أنها مرهقة ولم تنم منذ وقت.

– حسنا، شكرا لا مزيد من الأسئلة.

وقبل أن تغادر الممرضة منصة الشهود، طلب المحامي من القاضية السماح له بسؤال الممرضة سؤالا واحدا، غرضه التبيين لهيئة المحلفين بأن ميمي لم تكن فاقدة الوعي بل مجرد إرهاق وتعب نتيجة السهر:

– يا سيدة أماندا، هل ممكن أن يكون الماكياج السائح والشعر غير المصفف ناتج عن السهر الطويل؟

– نعم ممكن.

– شكرا، لا مزيد من الأسئلة.

وبعد الانتهاء منها قام المحامي بدعوة شاهدنا التالي، السيد جيمس، الخبير العلمي لقراءة وتفسير نسبة الكحول في الدم. وبعد المقدمات المعتادة سأله المحامي هاربر:

– لقد قرأت تقرير نسبة الكحول في دم الآنسة ميمي. هل يمكنك شرحه لنا لكي نفهم الأرقام الموجودة فيه؟

فأجاب الخبير العلمي:

– نعم لقد قرأت التقرير، ورأيت أنه عندما قامت الممرضة بأخذ عينة من دمها في الساعة السابعة صباحا، كانت نسبة الكحول في دمها في ذلك الحين هو 0.103 وهي نسبة عالية ولكنها ليست بكافيا لأن يفقد الشخص وعيه حينئذ.

ثم أضاف الخبير:

– دعني أشرح لكم ذلك: إذا كانت نسبة الكحول في دمها هي 0.103 عند السابعة صباحا، فهذا يعني إن نسبة الكحول في الدم أعلى من ذلك قبل 4 ساعات ماضية. فعند قياسها علميا عن طريق العودة إلى الوراء 4 ساعات، أي حوالي الساعة الثالثة صباحا وهو وقت الإحتفال، ستكون نسبة الكحول في دم الآنسة عالية جدا، ولكنها ليست كافية بأن تُفقد الشخص وعيه.

فسأله المحامي (محاولاً التأكيد على تلك النقطة لكي يسمعها أعضاء هيئة المحلفين):

– علميا، إذا كانت نسبة الكحول هي 0.107 أو 0.108 وهي نسبة عاليه جدا، لكنها ليست كفيلة بجعل الآنسة ميمي تفقد وعيها، أليس كذلك ؟

الخبير:

– صحيح

– وما هي إذا النسبة الكافية من الكحول لجعل الإنسان يفقد وعيه؟

– يعتمد ذلك على حسب جسم الإنسان، ولكن النسبة المتفق عليها من قبل العلماء هي 0.113 فأكثر.

– فأكثر؟

– نعم، فعلى سبيل المثال، هناك من يشرب الخمرة حتى تصل نسبة الكحول في جسده فوق 0.120 و 0.130، فيصبح سكرانا وثملا ولكنه لايغيب عن الوعي.

– حسناً، سؤالاً آخر يا سيد جيمس: بعد قراءتك لتقرير فحص الدم، ووفقا لخبرتك العلمية، هل كانت ميمي فاقدة للوعي في أثناء تلك الليلة المزعومة؟

– وفقاً لدراستي العلمية، وخبرتي الشخصية وذلك لتعاملي مع العديد من الأفراد في هذا المجال، ووفقاً للمعطيات الموجودة في هذا التقرير المتواجد أمامي، فإن الجواب هو "لا". سكرانه....ثملة... نعم، ولكن ليست فاقدة للوعي. حتى تفقد الوعي عليها إحتساء الكثير والكثير من الخمرة.

– شكرا، لا مزيد من الأسئلة.

قالت القاضية للمدعي العام:

– يمكنك سؤاله إذا شئت.

– نعم، شكرا ياحضرة القاضي.

ثم بدأ بسؤال الخبير العلمي جيمس:

– ياسيد جيمس! كم دُفع لك لتقول ما قلته اليوم؟

هنا حاول الخبير العلمي تصحيح ما قاله المدعي مدركا ما يلمح إليه:

– لم يُدفع لي لأقول ما قلته، ولكن دُفع لي لكي أقرأ نتيجة تحليل دم الآنسة وإبداء الرأي العلمي تجاه الأرقام الموجوده فيه، وهذا أمر طبيعي كما تعلم في نظامنا القانوني في الولايات المتحدة، فأحيانا يطلب منا فريق الدفاع، وأحيانا يطلب منا فريق المدعي العام، قراءه الأرقام وشرحها في مقابل الأتعاب.

فأجابه المدعي العام محاولاً الإعتذار:

– نعم، نعم، آسف. لقد كان قصدي هو كم دفع لك السيد ياسر البحري لقراءة التحاليل والتعليق على النتائج؟

– عشرة آلاف دولار بالإضافة إلى مصاريف الرحلة والسفر.

– شكرا، لا مزيد من الأسئلة.

هنا حاول المدعي العام التلميح بأن الخبير قال ما قاله لأنه "قبض". وبعد الإنتهاء من هذين الشاهدين (الممرضة والخبير العلمي)، طلبت القاضية من المحامي هاربر الإستمرار في القضية والإنتقال للخطوة التالية في دفاعه. فقال المحامي:

– يا حضرة القاضية، في هذه اللحظة، أود أن أعرض على هيئة المحلفين نسخة من صفحة ميمي على الفيس بوك.

فتدخل المدعي العام قبل أن يفعل المحامي هاربر، لإدراكه قوة هذا الدليل في صالحنا. فقال:

– إعتراض يا حضره القاضي! إن صفحة الإنترنت الخاصة بالآنسة ميمي ليس لها دخل هنا في صلب هذه القضية.

فرد المحامي عليه:

– بلى له علاقه وعلاقه مهمة وهي ....

وما كاد المحامي ينهي جملته حتى قامت القاضية بمقاطعته قائلة:

– رجاءً، إقترب نحو منصة القضاء أنت والمدعي العام حتى أقرر بنفسي ما إذا كان لهذا الدليل أي علاقه بالقضية أم لا، قبل عرضه على هيئة المحلفين.

فاقتربا وبدأ الهمس لكي لا يسمعهم المحلفين، فقال المحامي هاربر:

– لقد كتبت على صفحة الفيس بوك يوما أو يومين بعد تلك الليلة المزعومة، بأنها تحب أن تُغتصب، وأن ذلك هو أفضل أنواع المعاشره بالنسبة لها. كما أنها تُعدها الطريقة الوحيدة لإثارتها جنسياً.

قال المدعي العام همسا أيضا، محاولا تهميش الكلام الموجود في صفحة ميمي على الانترنت:

– يا حضرة القاضية، هذا كلام عيال ولا دخل له في هذه القضية، لذلك يجب ألا نأخذ ما كتب بالإنترنت بجدية.

فما تتوقع كان قرار القاضية؟ لم تسمح للمحامي هاربر بأن يعرض ما ذُكر على صفحة ميمي الشخصية في الإنترنت على هيئه المحلفين، قائلة:

– لا دخل لهذه الصفحة في جلسة قضيتنا هنا.

لقد علمت القاضية أن هذا الدليل سوف يكون لصالحي وقد يؤدي إلى براءتي من التهم المنسوبة لي، لذلك بدأت بتغيير مسار القضية في صالح المدعي العام. قالت للمحامي هاربر:

– إنتقل إلى المرحلة الأخرى من دفاعك الآن.

ثم حاول المحامي عرض ما قاله أصحاب ميمي من تعليقات على صفحتها بعد أسابيع من إلقائي بالسجن فقال:

– يا حضرة القاضي، أود الآن أن أعرض نسخة من أقوال وتعليقات أصدقاء الآنسة ميمي التي كتبت في صفحتها على الفيس بوك .

فصرخ المدعي العام من جديد:

– إعتراض!

فطلبت القاضية من كليهما الإقتراب نحو المنصة مرة أخرى، لكي لا يسمع أعضاء هيئة المحلفين تلك الأقوال التي كتبها أصحاب ميمي على صفحة الفيس بوك، فقالت لهاربر هامسة:

- ماذا لديك ؟

- نسخة من صفحتها وفيها تعليق صديقاتها بعد وضع ياسر في السجن.

- وماهي تلك التعليقات؟

- مقولات مثل: "سمعنا بأن أخيه قد إشترى الكافيه؛ يجب علينا فعل الشئ نفسه بأخيه كما فعلنا به (أي رمي أخي بالسجن بعد التبلي عليه وإغلاق محله للأبد).

وماكان رد القاضية؟ لعلك تعلم الآن ما هو ردها.

- لن أسمح لك بعرض هذه النسخة لأنها ليست في صلب الموضوع هنا. ثم أضافت:

- إنتقل إلى الخطوة التالية في دفاعك يا سيد هاربر.

لاحول ولا قوة إلا بالله، لقد وقعنا تحت رحمة هذه القاضية. فقال هاربر بأن لدينا تقرير العيادة الخاص بفحص دم الدفاع والذي يثبت بأنه تم الإغرار بي بوضع حبة الروفي لي من دون علمي. فقال المدعي العام:

- إعتراض! هذا تقرير عيادة خاصة وليست حكومية فلا نستطيع إثبات مدى صحته.

فقالت القاضيه للمحامي هاربر:

- إنتقل إلى الخطوة التالية فلن أسمح لك بعرض نتيجة ذلك التقرير والسبب أنه من قبل عيادة خاصة، وليس لدينا وسيلة للتحقق من مدى صحته.

عجباً، ها هي القاضية تحاول بكل الطرق طمس أدلتنا وعدم عرضها على أعضاء هيئه المحلفين لكي تتضح لهم الصورة بشكل أكبر. وأي حكم انت؟ أصبحت المسألة غش بغش!

(42)

والعدل للجميع

لا حول ولا قوة! إنتقل المحامي هاربر إلى الخطوة التالية والأخيرة في خطة الدفاع، ألا وهي وضع صديقي وخليلي التركي أركدش وثم مديرة المحل توفا—اللذان كانا متواجدان في معظم الحلقات المزعومة—على منصة الشهود. ولكن بعد النظر يمينا ويسارا ً في أنحاء القاعة، لم نجد لأركدش أي أثر. فدخل زوج أختي هلوعا:

– يا سيد هاربر! وضع الشرطة الأساور على يدي أركدش محاولين تخويفه وابتزازه لكي لا يدلي بشهادته.

ما هذا؟ أهذه أمريكا أم إيران؟ أهذه أمريكا أم روسيا، الدولة البوليسية؟ فما حدث لتلك الكلمات السامية الأمريكية " كالعدل" و"المساواة" و "الحرية للجميع"؟ هيهات ... هيهات ٍ... فتلك ترهات أمريكية. هي كلمات مزيفة صنعت في هووليود. فخرج المحامي هاربر معتذرا ً من القاضية إلى خارج القاعة، محاولا التحدث مع هؤلاء الشرطة والمحققين. وبعد دقائق رجع المحامي ومعه أركدش، فطُلب منه الصعود على منصة الشهود، ففعل. وقال لي هاربر:

– يحاولون إبتزاز أركدش وتخويفه بابعاده عن البلاد لكي لا يدلي بشهادته.

وفعلا رأيته مرتعدا ً خائفا قد بدت عليه علامات التوتر والقلق، ومتلعثما ومتأتئا ً في أجوبته. فبدأ المحامي هاربر بالأسئلة:

– أركدش، منذ متى تعرف ياسر؟

– منذ وقت طويل.

– إشرح لنا علاقتك به.

– تقابلت مع ياسر في إحدى المحلات عندما قدمت إلى أمريكا للدراسة، ومنذ ذلك الحين أصبحت علاقتنا وطيدة، فقد كان لي صديقا وعونا.

– وما هو إنطباعك عنه؟

– لقد كان ياسر طيبا ٍ مع الناس عموما، ومع جميع زبائنه وموظفيه. لم يكن ملاكا كريما، ولكنه لم يكن أيضا شيطانا رجيما.

– وهل تعرف ميمي وإيملي وسامانثا وتارا وسالي؟

– نعم، قابلت كل واحدة منهن في كافيه شيشة.

ثم أضاف:

– ميمي كانت فتاة مستهترة تتصرف برعونة شديدة مع الزبائن، وتحاول دائما لفت الإنتباه من خلال ملابسها الفاضحة، وتصرفاتها غير الأخلاقية. أما عن سالي، فقد كنت متواجدا في غرفة المكتب، ومعنا أيضا توفا، فكنت أسمع وأرى ماحدث أيضا.

فسأله المحامي:

– وماذا حدث في المكتب؟

– لم يعجب ياسر وتوفا أداء سالي في العمل فحاولا الإستغناء عن خدماتها بكل إحترام وطيب، ولكن جن جنونها فراحت تصرخ وتزعق في وجه ياسر وتوفا.

فقال المحامي:

– قل لنا إذن القليل عن ميمي.

– كنت متواجدا في تلك الليلة، على الأقل في بادئها. ولاحظت بأن ميمي كانت تحاول التقرب والتودد الى ياسر طوال الليل. بل رأيتها أحيانا تغازله بالعين وترسل له القبلات الهوائية.

– فما كان إنطباعك عنها؟

– كغيرها من الفتيات في الكافيه، تحاول التقرب من ياسر بصورة حميمة.

– شكرا ً، ليس هناك المزيد من الأسئلة.

فطلبت القاضية من المدعي العام أن يسأل أركدش، إن شاء. فقال:

– هل من الممكن القول بأن ياسر هو أعز أصدقاؤك وأقربهم لك؟

– نعم.

– وهل يمكننا القول بأن ياسر له أفضال عليك، خاصة عندما كنت جديدا ً في أمريكا؟

– صحيح.

– شكرا، لا مزيد من الأسئلة.

كانت غاية المدعي العام من تلك الأسئلة هي توصيل معلومة واحدة لأعضاء هيئة المحلفين، مفادها أن أركدش ما هو إلا صديق مقرب لياسر، وأنه مستعد للكذب من أجل إنقاذ صديقه. وبعد الإنتهاء من شهاده أركدش، قام المحامي هاربر بوضع توفا، مديرة المحل، على منصة الشهادة. وبعد سؤالها عن إسمها وعنوانها، وما إلى ذلك من رسميات الشهادة على المنصة، سألها المحامي هاربر:

– توفا، منذ متى وأنت تعملين لدى ياسر؟

– منذ عدة سنين.

– بمهنة المديرة؟

– كلا، في بادئ الأمر، كنت موظفة في المطبخ، ثم قمت بالتخديم على الزبائن، وبعد فترة قام ياسر بإعطائي مهمة المديرة.

– وما هو إنطباعك عنه؟

– أفضل رئيس عملت معه على الإطلاق.

– من أي ناحية؟

– من جميع النواحي، فهو طيب، وخدوم، وظريف، ومحترم ومقدر وصديق عند الضيق.

– وماذا تعني العبارة الأخيرة؟

– قبل أن أمتلك سيارة، كان أحياناً يقوم بتوصيلي إلى المنزل، وفي مرة قام بدفع نصف ثمن سيارتي الجديدة من دون مقابل.

– وكم كان ذلك؟

– ثلاثة آلاف دولاراً.

– حسنا وهل كنت متواجدة في ليلة الأربعاء التي جمعت ياسر وميمي؟

– في أولها فقط.

– وماذا رأيت؟

– رأيت ميمي تلف وتدور حول ياسر محاولة الإيقاع به.

– ماذا تقصدين؟

– ميمي فتاة أمريكية، وياسر من الشرق الأوسط، وهو لا يعرف ألاعيب الفتيات ومكائدهن كما أعرفها أنا. وإذا كنت تعرف ياسر عن قرب، فسيتأكد لك أن إستغلال طيبة قلبه أمر وارد جدا.

– ماذا بالتحديد ما قامت بفعله ميمي في أول تلك الليلة؟

– أمور كثيرة. فقد بان عليها الارتباك، وكأنها مقبلة على عمل شئ ما. كما تعمدت ليلتها البقاء في المقهى لساعات متأخرة من الليل، حيث غادر الجميع وأصرت هي على البقاء.

هل تشعرين بالغيرة على ياسر؟

– الغيرة!؟ كلا، فياسر مثله كمثل أخي الكبير، ولكن لم تعجبني تصرفات ميمي فهي وقحة للغاية.

– حسنا، دعيني أسئلك عن أيملي وسامانثا، هل كنت متواجدة حينئذن؟

–كلا.

– وهل كنت موجودة عندما كانت سالي موجودة؟

– نعم، لقد كنا في المكتب أنا وهي وياسر معاً.

– فماذا حصل؟

– قال لي ياسر أنه يجب علينا الإستغناء عن خدماتها بسبب تصرفاتها مع الزبائن، وكنت أُوافقه الرأي. ولكن عندما قمت بإخبارها بذلك، جن جنونها، وراحت تتلفظ بالكلام البذيء لدرجة أني لم أقوى على التحمل.

– وماذا حصل بعد ذلك؟

– خرجت غاضبة تتوعد وتهدد.

– ثم ماذا حدث؟

– خرجت مع أحد موظفي المحل.

– إلى أين؟

– إلى مسكنه لتدخين الحشيش "لتهدئ أعصابها".

– لتدخين الحشيش؟

– نعم.

– وما أدراك؟

– قال لي الموظف شخصيا بعد أن طلب إستئذان للرحيل مبكراً من المحل.

وهنا قام المحامي بالإكتفاء، فطلبت القاضية من المدعي العام السؤال إن شاء فقال:

– هل يعتبر ياسر صديقك؟

– لا.

– هل أنت معجبه بشخصيته؟

– من أي ناحية؟

– تتمنين لو كان صاحبك؟

– كلا.

– سألت لأن هناك الكثير من الموظفات الصغار سناً يقعن في غرام رؤسائهم، معجبين بهم إلى حد التوهان.

– لا، أنا فقط موظفة لديه ولدي صاحب.

– حسنا، أخبريني، متى رحلت من ذلك المحل في تلك الليلة التي جمعت ياسر وميمي؟

– في منتصف الليل، عندما خفت الزحمة.

– إذن لم تجلسي طوال الليل، ولم تشاهدي ماحدث في غرفة الـVIP ؟

– لا، لم أبقى إلى ذلك الحد.

– قولي لي وهل قامت ميمي بالوقوع ببعض الأخطاء بداية عند تخديمها للزبائن؟

– نعم، الكثير.

– وهل كانت متوترة ؟

– نعم.

– لم تعتقدين كان ذلك ؟ خوفا من الرئيس؟

– لا، لا أعتقد. فلقد كان ذلك اليوم هو يومها الثالث أو الرابع بعد مباشرة العمل، فهو شيء طبيعي أن تخطيء في أول الأيام.

– شكراً .

ثم إلتف نحو القاضية قائلا:

– لا مزيد من الأسئلة يا حضرة القاضية.

ثم توجهت القاضية بالحديث للمحامي هاربر، مستفسرة عما إذا كان هناك شهودا آخرين، أو مزيد من الأدلة.

– لا ياحضرة القاضي، لقد إنتهت مرافعتنا وليس لدينا المزيد من الشهود أو الأدلة.

– طيب، سوف نأخذ فترة راحة ثم نعود لأجل الإنتقال إلى المرحلة التالية في هذه المحاكمة وهي إلقاء كل منكما كلمة الختام لمرافعته.

ثم خرج الجميع للإستراحة لمدة 30 دقيقة، ما عداي حيث ظللت خلف طاولة فريق الدفاع أفكر بما حدث وما سوف يحدث.

الوحش بصورة إنسان

عاد الجميع إلى قاعة المحكمة بعد 30 دقيقة استراحة، ما عداي أنا بالطبع، فكيف لي أن أنال الراحة وحياتي في خطر؟ أنا الذي أواجه 1000 سنة سجن وليس المدعي العام. فإن خسروا القضية، يذهب المدعي العام إلى بيته معززاً مكرما، متضايقا لمدة يوم أو يومين لانه لم ينال مراده، ولكن إن خسرت أنا القضية فسأواجه سنين عديدة خلف القضبان الحديدية الصدئة.

لقد حان الآن دور كل من المدعي العام والدفاع لإلقاء كلمة النهاية، أو الخاتمة، محاولاً إقناع أعضاء هيئة المحلفين بصحة قصته. وبالنهاية إن الذي ينجح في رسم الصورة الأكثر تصديقا هو من سيربح القضية. لقد حان الآن وقت ربط الأدلة ببعضها البعض، وتفسيرها للأعضاء المحلفين. بالإضافة إلى هذا، إنه الوقت المناسب ليكون كل طرف لبقاً في طرحه، ذو بيان وإنفعال (أحيانا) للضرب على الأوتار الحساسة، فقليل من المنطق والعقلانية، والكثير... الكثير من العواطف والإنفعالات.

يقوم المدعي العام—كما تحتمه إجراءات المحكمة—بإلقاء كلمته أولاً، ثم يتبعه محامي الدفاع. بدأ المدعي العام كلمته الختامية واضعا جل خبرته وحنكته القانونية بشكل فذ وكأنه عادل إمام في فيلم الأفوكاتو، يخاطب العقل أحيانا، وينفعل أحيانا أخرى، مدغدغاً العواطف بكلماته التى تم اختيارها بدقة متناهية، وعباراته المنمقة، لدرجة أنه لو أنني كنت أحد أعضاء هيئة المحلفين، لوقعت حتماً في شباكه.

مضى قائلا:

– سيداتي وسادتي أعضاء هيئة المحلفين، لقد سمعتم بآذانكم ورأيتم بأعينكم كل الأدلة الدامغة التي ومن دون شك تدين المتهم، هذا الوحش المتخفي بصورة إنسان. أولاً، لقد سمعتم بآذانكم شهادة ميمي، الفتاة الفقيرة المسكينة التي دمر حياتها هذا الوحش، حيث اعتدى عليها ولم تكن راضية ولكنه فعل فعلته من غير التفكير بمستقبلها! فقط أراد إشباع شهواته الحيوانية بأي طريقة. بالإضافة إلى ذلك، لقد سمعتم من خبيرة الولاية للأحماض النووية بأنها وجدت أحماض نووية تخص المتهم على جسد ميمي وملابسها الداخلية، فكيف وصلت؟ ليس عن طريق الهواء وصلت! بل عن طريق الإغتصاب. وإن أردتم الدليل العلمي، فها هي الخبيرة قد قدمته لكم. وعلى فكرة الدليل العلمي لا يكذب. بالإضافة إلى ذلك، لقد سمعتم ورأيتم أيضا ضحايا أخريات لهذا الوحش. وبنفس الطريقة والنمط والأسلوب، سار هذا الذئب البشري، وفعل فعلته النكراء لكل واحدة منهن على نحو متشابه: الجلوس، وسقى المسك، ففقدان للوعي، ومن ثم الإغتصاب وكأنه أ، ب، ت، ث... لقد إنقض هذا الوحش على كل واحدة منهن كما تنقض الضباع على ضحيتها! إعلموا أيضا، أنه ليس هناك أي مؤامرة ضد المتهم، فهؤلاء النسوة لا يعرفن بعضهن البعض لكي يتآمرن عليه، ولكن عند سماع كل شهادة على حده تجدون بأنه قام بإتباع نفس الأسلوب، وحتى شكل ضحاياه وأعمارهن ولون بشرتهن. أيها الحضرات! إنما أطلبه منكم هو

تحكيم ضمائركم، وإتباع القانون وتطبيقه على هذا المتهم، فلم يكن هناك رضا من أي فتاة منهن. وهذا هو العنصر الأساسي في الموضوع، "عدم الرضا". أتمنى أن تتوصلوا إلى النتيجة التي ترضي ضمائركم وتجبر خواطر هؤلاء الفتيات، وتأكدوا من أنه مذنب في كل شيء.

ثم جاء دور المحامي هاربر بإلقاء الكلمة الختامية لدفاعه، فقال:

– سيداتي سادتي، تسرني رؤيتكم من جديد فعلا. شكرا لصبركم معنا فإنه يوم طويل حقا. لقد حاول المدعي العام أن يرسم صورة لموكلي وكأنه ذئب في الغابة، ينتظر فريسة للقضاء عليها. لعله نسي أيها الحضرات بأنكم لستم بحمقى لدرجة تصديقه. إن ما أريده منكم هو أن تضعوا العواطف ودوافع الإنفعالات على جنب، وأن تستخدموا العقل والمنطق. ولكن من أين يجب علينا البدء؟ فقد قام المدعي برمي الكثير من كرات التنس دفعة واحدة، وها نحن في وضع لا نحسد عليه، حيث يجب علينا أن نقوم بصد كل تلك الكرات دفعة واحدة. أيضا! ميمي؟ لقد قالت بأنها لا تتذكر تفاصيل الأحداث، وذنب من هذا؟ أتودين إرسال هذا الشاب للسجن لفترة طويلة لأنك لا تتذكرين؟ هذا غير منطقي! وعندما أرادت الذهاب إلى بيتها، من أوصلها؟ ياسر ولا أحد سواه! أوصلها إلى بيتها معززة مكرمة! ولم يعرف الطريق، فمن دله على الطريق؟ ميمي ولا أحد سواها، فكيف وصفت له الطريق إن كانت فعلاً غائبة عن الوعي؟! أيضا إن كان مغتصباً، كيف تودين الركوب معه في سيارته؟ هذا غير منطقي أيضا. أما بالنسبة إلى الأحماض النووية الموجوده على جسدها العلوي، لم لا يقول المدعي العام من هم أصحاب الأحماض النووية الموجودة على ملابس ميمي الداخلية، فهي أحماض نووية لثلاثة أشخاص أو أكثر! أتعلمون ما يعني هذا؟ إما أن هناك أشخاص آخرين لا تود ميمي إخبارنا عنهم، أو أنها عاهرة بالجملة! وأين المعاشرة أصلا؟ لم يكن هناك معاشرة، وذلك واضح من شهاده الممرضة أماندا التي كشفت عليها حينها، وفحص المستشفى الذي يثبت أنه لم يكن هناك جماع ومعاشرة جنسية على الإطلاق. أما بالنسبة للفتيات الأخريات... وكما قلت لكم سابقا، لقد قذف علينا وكيل النيابة العديد من كرات التنس دفعة واحدة... وهي حيلة قديمة لتشتيت تركيز وإنتباه المحلفين، ولتصعيب مهمة الدفاع، وهي بلا شك محاولة لرسم صورة غير صحيحة عن السيد ياسر البحري، ذلك الرجل المحترم الفعال بالمجتمع، واظهاره كشخص مضطرب ومهووس جنسيا، يقوم بإغتصاب من وقع في فخه. لقد قال المدعي العام أنه ليس هناك دافع لتجني الفتيات على ياسر، ولكن هذا أمر عار عن الصحة، فدافع الإنتقام كان واضحا بكلامهن. فإحدى المدعيات غضبت لأن السيد ياسر أفسد عليها ليلتها الحمراء مع الزبون السخي وصادر كل الأموال التي حصلت عليها من هذا الزبون، فأرادت الإنتقام. أيها الحضرات، وأما الأخرى فسعت للإنتقام لأن السيد ياسر استغنى عنها وعن خدماتها فجن جنونها. أطلب منكم التركيز على القضية الرئيسية، قضية الآنسة ميمي، وهذا لا يعني أن القضايا الأخرى ليست بمهمة، ولكن أود منكم التركيز ليسمح لكم ذلك التفكير مليا، وإستدعاء العقلانية والمنطق، قبل ظلم موكلي المحترم. لا تدعوا العواطف تغمض عيونك وتغشيها، وشكرا.

لم أعتقد بأن ما قاله المحامي هو أقوى شيء، ولكن هذا الموجود! رسميا، لقد انتهت القضية هنا ولم يبقى سوى إجتماع أعضاء هيئة المحلفين للنقاش والبت في الموضوع. وقبل أن

تقوم القاضية بإرسالهم إلى غرفة التفكير بالموضوع وإتخاذ القرار، عرضت عليهم نص القانون الذي من المفترض أن أكون قد اخترقته بإرتكابي "لجريمه" إغتصاب ميمي. فقالت:

– أود منكم أن تأخذوا الوقت الكافي للنظر في الأدلة والتفكير مليا قبل إتخاذ القرار وفقاً للقانون، إن عناصر إختراق القانون هي: أولاً: وقوع الإلتحام، أي المعاشرة الجنسية بأي طريقة كانت. ثانيا: لقد تم ذلك دون رضاها، وهذا هو القانون، مفهوم؟

ثم طلبت القاضية من أعضاء هيئة المحلفين الدخول إلى غرفة التداول للمشاورة، واتخاذ القرار المناسب. فخرج الأعضاء من الباب الجانبي للقاعة. والآن يجب على الجميع الإتفاق على قرار ما، وليست المسأله مسألة فوز الأغلبية. فعلى سبيل المثال، للإدانة يجب على جميعهم القول أنه "مذنب" ليكون "مذنباً". ولكن إذا خالف أحدهم وأقر بأن المتهم غير مذنبا—على الرغم من الضغوطات المفروضة عليه من قبل الأعضاء الآخرين—وإلا فلن تتم الإدانة. وفي تلك الحالة تصبح القضية "معلقة"، أي لم يتم الإتفاق على إدانته. وهنا سيضطر المدعي لإعادة المحاكمة من جديد من الألف إلى الياء، أو يقوم بالإستسلام ويدع المتهم وشأنه.

لحظة من فضلك، وقبل أن تستمر في القراءة، تخيل لو أنك عضو من أعضاء هيئة المحلفين وبعد اطلاعك على كل تفاصيل القضية، ماذا سيكون رأيك؟

هل ستعتقد أنني "مذنب" أم "غير مذنب"؟ خذ دقيقتين وتأمل الأدلة. ثم قرر. لا تتسرع: Take your time.

وحكمت المحكمة...

مضت عشرة ساعات على بدء المحاكمة، والساعة الآن تشير إلى ما بعد الرابعة عصراً. خرج الجميع من القاعة، وبقيت خلف مكتب الدفاع أنتظر حتفي، ولم يبقى معي أحدا سوى المحامي هاربر وإبنه، وهناك في أقصى القاعة من بعيد أرى حارسان يقفان، وأحدهم يتحدث مع كاتبة القاعة. وهناك أيضا أهلي وناسي على المدرجات الخلفية الذين كلما نظرت إليهم ابتسموا ملوحين لي بعلامات النصر. أما باقي ممثلي المسرحية الهزلية، أي القاضي والمدعي العام, فقد تركوا قاعة المحكمة متوجهين إلى الطابق الأرضي لمبنى المحكمة لاحتساء الجِعة سويا!. ومن يعلم؟ لربما يستغرق نقاش أعضاءٍ هيئة المحلفين ساعات عديدة أو حتى يوما ً أو يومين، فلن تنتهي المحاكمة إلا بالإتفاق كليا ً، سواءا أكان الإعلان عن أني "مذنب" أو "غير مذنب".

راح عقلي يأخذني يمنة ويسرة. هل تراني سأعود؟ أعود... لزوجتي وبناتي وأهلي وأصدقائي وتجارتي ودراستي وبعثتي وسيارتي ومنزلي، وسيكون كل شيء على ما يرام؟ فبعد سنتين في غرفة الحبس، تفقد الأمل بأن تعود المياه لمجاريها، ولكن أملي بالله كان كبيرا، فتذكرت كلمات القصيدة:

يامن يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المعد لكل مايتوقع

يا من يرجى للشدائد كلها ... يامن إليه المشتكى والمفزع

أغلقت عيني متخيلا ً أعضاء المحلفين بالإعلان "ليس مذنبا ً" متصورا سيناريو إعلان البراءة وأخذت بالتفكير بردة فعلي تجاه ذلك؟ الصراخ فرحا؟ أم الإنحناء والركوع لله سبحانه وتعالى حامداً وشاكراً؟ أو حتى السجود في منتصف قاعة المحكمة متذللاً؟ ففتحت عيني أنظر حولي باحثاً عن أنسب مكان للسجود.

دخل أحد الحراس من الباب الجانبي قادما ً من غرفة أعضاء هيئة المحلفين باحثا عن علبة المناديل الورقية، فرأى واحدة قريبة من طاولتنا، فاقترب ومد يده لأخذها ونظر باتجاهي ثم رفع حاجبه للأعلى محاولا الإشارة. ولكني لم أفهم ما يعنيه إلا لاحقا طبعا. علمت لاحقا بأن إحدى النساء كانت تبكي بكاء ً شديدا ً لدرجة إستنفاذ كل علب المحارم الورقية التي في غرفة المحلفين.

بينما ننتظر، سألني المحامي هاربر محاولا ً معرفة نفسية أعضاء الهيئة في أثناء المرافعة:

– هل نظر أحدهم إليك مبتسما؟

– نعم، إحدى النساء من هيئة المحلفين، لماذا ؟

حاول هاربر أن يشرح لي أنه وفقا ً لخبرته كمحامي، يعتقد أنه إذا قام المحلفين بالنظر إلى الدفاع مرات عديدة، هذا يعني أنهم يقفون بصف الدفاع؛ والعكس صحيح، فإذا لم ينظروا تجاه الدفاع خلال المرافعات وخاصة في أواخرها، فهذا يعني أنهم يقفون بصف المدعي العام. فتذكرت بأن أحد الرجال في هيئة المحلفين بدأ بالنظر نحو ميمي والإبتسام لها، محاولاً لفت إنتباهها بأنه في صفها خاصة في نهاية المحكمة.

ثم فجأة وفي هذا التوقيت الصعب "عادت ريما إلى عادتها القديمة": قال المحامي أنه يريد المزيد من النقود:

- على فكرة، لدينا مصاريف، فقل لطارق زوج أختك ليدفع لنا دفعة أخرى.

- خير إن شاء الله.

منذ بدء القضية أنفقت 500 ألف دولارا. نصف المليون! ومن أنا مايكل جاكسون حتى أدفع المزيد من المال أتعاباً للمحاماة؟ بصراحه لم يكن لدي أي إستعداد لدفع المزيد خاصة في حالة الخسارة.

على أي حال، طالت مدة الإنتظار، فقرر الحراس إنزالي إلى زنزانه المحكمة والإنتظار هناك. وعند دخولي، أخذوا ربطة العنق مني مرة أخرى. وبالتأكيد أصبح لديكم تصور الآن عن السبب: شنق نفسي في حالة الخسارة. وبينما أنا أنتظر في الزنزانة، رأيت رجلاً أسوداً في الزنزانة المقابلة، يرتدي بدلة توحي بأن اليوم هو يوم محاكمته أيضا. فقال لي:

- يا رجل! ماهي نتيجة محاكمتك؟

فأجبت:

- لم تعلن النتيجة بعد... مازلت أنتظر.

- منذ متى؟

- ثلاثة ساعات.

- ممتاز! هذا يعني أنها أخبار سارة.

- كيف؟

- كلما طالت مدة الإنتظار؟ هذا يعني أنهم ما زالوا يتناقشون ومازالوا لا يتفقون. وإن استمروا على هذا الحال فسوف تكون قضيتك معلقة ولن تدان.

- آمل ذلك.

ثم قمت بسؤاله عما حدث له:

– وماذا عنك ؟ ستذهب إلى المنزل؟

– لا بحق الجحيم! وهل عمرك سمعت برجل ملون في أمريكا فقير يفوز بقضيته؟ لقد تمت إدانتي وحكم علي بـ 20 سنة سجن.

– لا يحوشك! رحت مخاطبا نفسي.

بعد وهلة، ظهر الحارس قائلاً:

– هل أنت مستعد؟ لقد إتخذ الأعضاء القرار.

فأخذ القلب يرقع فجأة وكأني وقفت فجأة أمام قطار سريع يقترب وجها لوجه. ثم أخذني السجان للأعلى ولكن لم يعطيني ربطة العنق هذه المرة، فقلت إنتهت المحكمة ولا أحتاج لربطة العنق على أي حال. وقبل أن يدخلني إلى قاعة المحكمة قال:

– حظا سعيداً .

– شكرا.

ثم دخل الآخرين بعدي بلحظات فامتلأت القاعة من جديد. ثم دخلت القاضية، وبعد المقدمات المعتادة، دخل أعضاء هيئه المحلفين وجلسوا على المقاعد المخصصة لهم. نظرت نحوهم محاولاً استنتاج أي قرار من تعابير وجوههم ولكن دون أي جدوى، فلقد كانت وجوههم كوجه أبو الهول لا تعبير له. فقام المحامي هاربر بوضع يده على كتفي محاولاً تهدئتي. فقالت القاضية لأعضاء هيئة المحلفين:

– أيها الحضرات، هل توصلتم إلى قرار؟

– فأجاب أحدهم وهو المكلف لقراءة القرار من قبلهم:

– نعم.

طلبت القاضية من فريق الدفاع والمدعي العام الوقوف، ففعلنا، ثم قالت للمحلفين:

– تفضلوا بإعلان قراركم.

فقال المخول لإعلان القرار:

– نحن أعضاء هيئة المحلفين نجد المتهم ياسر البحري في قضية إغتصاب ميمي بينما هي فاقدة للوعي... "مذنب"؛ وفي قضية محاولة الإعتداء على تارا... "مذنب"؛ وفي قضية إغتصاب سامانثا... "مذنب"؛ وفي قضية محاولة إغتصاب إيميلي... "مذنب"؛ وفي قضية محاولة إغتصاب سالي... "مذنب"؛ وفي قضية إحتجاز الغير قانوني لسالي... "مذنب"؛ وفي قضايا تقديم الخمرة لقاصر دون الواحد وعشرون سنة... "مذنب".

بدأ الضجيج في قاعة المحكمة بالتصاعد فجأة، وسمعت صراخ وبكاء أختي أميرة التي فجعت بالحكم. فطلبت القاضية من الجميع الصمت، ثم قامت بشكر المحلفين لحضورهم وأدائهم واجبهم المدني، ثم طلبت من المحامي هاربر والمدعي العام البقاء حتى تنطق بالحكم فعلا. فقالت للمدعي العام فرانسيس:

- ماذا تقترح أن تكون العقوبة؟

- نود أن نراه يسجن 30 سنة يا حضرة القاضية.

ثم وجهت القاضية كلامها للمحامي:

- وهل لديك قولاً أخيرا تحب أن تضيفه؟

- نعم... ياحضرة القاضية. نسألك الرأفة فثلاثين سنة مدة طويلة حقا.

سكتت القاضية قليلاً تفكر وتقلب بالأوراق الموجودة أمامها ثم قالت:

- هل تعلم ياسيد ياسر بأنك قد أجرمت في حق هؤلاء الفتيات وقمت بجرحهن جرحاً سوف يبقى معهن لمدة طويلة؟ وهل تعلم بأن أكثرهن سوف يحتاج لعلاج نفسي من أثر ما فعلته بهن؟

وصمتت قليلاً ثم قالت:

- ولكني لا أريد في الوقت ذاته أن أدمر حياتك كليا، وسوف أكتفي بلفتة نظر، لذلك حكمت المحكمة على المتهم ياسر البحري بالسجن 25 سنة: 15 سنة منها سجنا مركزيا تحت سلطة سجن الولاية الإصلاحي، و 10 سنوات سجن في المنزل تحت الملاحظة مع حظر تجول من السابعة مساء وحتى السابعة صباحا، وأيضا يُحظر عليك الإقتراب أو العمل في أي مكان يحتوي على الخمر، كما سيقيد اسمك "كمجرم جنسي عنيف" مدى الحياة... رفعت الجلسة.

ثم قالت مقولتها التي ظلت ترن في رأسي حتى هذا اليوم رنين جرس الهاتف القديم، ذو القرص الدائري:

- يجب علي الذهاب إلى طبيب الأسنان لعمل حشوة. باي! باي!

حقا لقد كانت هذه القاضية شريفة، وعادلة، ومنصفة تماما كما رأيتم! وكل ذلك الحكم المنحاز القاسي وتدعي بأنها لا تريد تدمير حياتي؟ فماذا كانت ستفعل لو كانت تريد تدمير حياتي؟ تحكم علي بالإعدام شنقا؟ لم تكن هذه القاضية بالمنصفة أو العادلة، وكان يجب علي إدراك ذلك منذ البداية. فقد سمحت للنيابة بإستعمال قاعدة ويليام لدمج شهادات الأخريات تحت القضية الرئيسية؛ كما قامت بطرد الفتاة المحجبة من قاعة المحكمة فقط لأنها محجبة؛ كما رفضت إلغاء القضية، على الرغم من شهادة الممرضة بأنه لم تكن هناك معاشرة أو إلتحام أصلا، وهو عنصر هام أيضاً لإكتمال الإدعاء بالاغتصاب؛ علاوة على عدم السماح لنا بعرض أدلة الإنترنت، والفيس بوك التابع لميمي وما قالته عن حبها بأن تُغتصب؛ وما قاله أصدقاء ميمي

حين دخلت السجن؛ وأخيرا عدم السماح لنا بعرض تقرير العيادة الخاصة، والذي يُثبت أنه قد تم تخديري من قبل الفتاتين في تلك الليلة عن طريق حبة الروفي.

كان إنحياز القاضية نحو فريق المدعي العام أمرا متوقعاً منذ البداية والأسباب كثيرة فهي امرأة وتتعاطف مع الضحايا النساء عموماً، كما أنها، كما هو مشاع، قد تعرضت سابقا لتحرش جنسي ما يجعل من الموضوع أمرا شخصيا، ويمس جانب حساس من حياتها النفسية، والأهم من ذلك إن الضحية بيضاء، والمتهم عربي أسمر ومسلم.

ولكن للأسف الشديد كنت أنا الضحية الحقيقية في هذه القضية. أنا الذي تم خداعه والتآمر عليه؛ أنا من تعمدت القاضية إخفاء الكثير من الحقائق وحجبها عن أعضاء هيئة المحلفين، مما جعل الصورة تبدو على عكس الواقع، وعلى حساب من؟ على حسابي أنا! فمن يُنصفني من ظالم متحكم؟ وماذا تتوقع من إمرأة إسمها القاضية "دكر"؟

قامت القاضية بالخروج من الباب الجانبي، وبدأ الجميع بالخروج أيضا. فنظرت إلى الخلف، فوجدت أختي أميرة تلوح لي بيدها اليمنى وتمسح باليسرى دموعها التي انهمرت بغزارة. فلم أستطع أن أمنع عيني من البكاء على فراقي أهلي وأحبائي. أما المدعي العام وفريقه، فبدت الإبتسامة على وجوههم فرحين بإنتصارهم، وأخذوا يجمعون أوراقهم وملفاتهم من على الطاولة، وقدم المدعي العام إلى المحامي هاربر وسلم عليه قائلاً:

– هاردلك!

ولكنها لم تكن لفتة نظر كما قالت القاضية ولم تكن حتى بطاقة صفراء. فقد كانت بطاقة حمراء، "إطلع بره!"، وفعلا قام أحد الحراس بإنزالي إلى الطابق السفلي، حيث زنزانة الإنتظار، لإنتظار سيارة الفان لنقل المساجين، فوضعت السلاسل الحديدية والقيود والأغلال. فتذكرت كلمات فتى رحيمه:

♫ "قيدوني قيد حديد والسلاسل قويه !" ♫

وتذكرت كلمات الفنان الشعبي القديم رمضان أبو صخر:

♫ "بالسجن قلبي إنكوى، إنكوى وماله دوا" ♫

فقال لي السجان الأسود وقد إعتاد على وجهي من قبل في خلال زياراتي إلى مبنى المحكمة في خلال الجلسات السابقه:

– لا بأس، لقد كانت حجتكم قوية ولكن ...

وكأنه يريد القول، "ولكن هذا حكم القوي". فقلت له، " شكرا".

فإنتظرت سيارة الفان لنقلي إلى زنزانتي، الزنزانه رقم " 3 ". بدأت بالصلاة ركعتين لله سبحانه وتعالى شاكرا له على كل حال. فهل سبق أن صليت لله الواحد القهار بينما كنت مقيدا بالسلاسل

من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين لاحول لك ولا قوة؟ تحاول السجود فلا تستطيع؟ أنا فعلت داعيا الله سبحانه:

- ربي إني مغلوب فانتصر.

قلعتي أنا السبب!

عدت إلى زنزانتي في سجن المقاطعة بعد يوم شاق مليئ بالإحباطات، والأخبار السيئة التي أخذت تنهمر علي كالمطر، الخبر تلو الآخر. ولكنني عند هذه المرحلة إعتدت على الأخبار السيئة، فالطعن بالميت لا يزيد الأمور سوءا، وهل هناك ما هو أسوء من قضاء 25 سنة في سجون أمريكا؟ والأسوأ من ذلك، هو أنه وجب علي المرور بهذه التجربة بأكملها إلى ما شاء الرحمن، لأن الإنتحار ليس في حسباني أبداً، وكيف أقتل النفس التي حرم الله قتلها؟ خاصة وأنها نفسي أنا شخصيا!

دخلت إلى زنزانتي وأخذت أنظر إلى نفسي خلال المرآة الضبابية. ولأول مرة خلال هاتين السنتين اللتين قضيتهما في الحبس، إعترفت لها:

- أنا السبب!

لقد ألقيت باللائمة على الجميع ما عدا نفسي، ولكن ها أنا ذا أواجه الحقيقة المرة التي سوف أعيش معها لزمن طويل:

- أنا السبب... طموحاتي كانت السبب في ما أنا عليه الآن.

ولكن لا فائدة اليوم من الندم، وأخذت الأفكار تعصف بي مجددا، من الذي سينقذني مما أنا فيه، في هذا المكان المقفر، وفي هذه الحالة البائسة التي يرثى لها؟ المحامين؟ سلطات سجن المقاطعة؟ أهلي؟ أصدقائي؟ لن يستطع أي منهم مساعدتي وإن أرادوا ذلك . فأدركت باباً لا يقفل أبدا: باب الرحمة. ثم تذكرت قول المولى عز وجل:

"وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" (يوسف: 87)

فإغرورقت عيناي بالدموع وفاضت بالبكاء، لم أبكِ على نتيجة المحاكمة، بل لأن الله سبحانه وتعالى أعلم بحالي:

"فـحَسْبِيَ اللَّهُ وَكَفَى، ... ولَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ مُنْتَهَى".

ثم صار قلبي مطمئناً بالإيمان، وكأنني في روضة من رياض الجنة. فسبحان الله ... حقاً إن مع العسر يسراً. فأصبحت زنزانتي بعد أن كانت ضيقة وموحشة، كالحديقة الغناء الوارفة الظلال، تزينها الشلالات والخضرة والورود الملونة. فشعرت حينها وكأنني مستلق على العشب الأخضر، أنظر إلى السماء الصافية، في يوم مشرق وجميل، ورذاذ الماء يتساقط على وجهي، فيزيدني راحة وإسترخاءا. فغلبني النعاس ورحت في سابع نومه، فرأيت حلما هو أقرب للرؤيا، أدهشني محتواه وإقشعر له بدني. حلمت بأني في سوق المهرة (يقع في سوق الفحيحيل جنوب الكويت) أتفاوض مع أحدهم لأن يبيعني سجاجيد للصلاة، هو يقول:

- سأعطيك 7 سجاجيد بدينار واحد.

وأنا أقول له:

- الله يحفظك! أعطني 10 سجاجيد بدينار، فأنا بحاجة لهم في أمريكا.

فقال المهري:

- طيب، سوف أعطيك 10 سجاجيد بدينار، طالبا ًمن الله أن يجعله في ميزان حسناتك وحسناتي.

ثم استيقظت من نومي وإذا بشريكي في الزنزانة يسألني:

- ماذا حصل؟ هل كسبت القضية؟

فاستغربت سؤال هذا المعتوه؟ وكيف كسبت القضية وها أنا ذا معه في هذه الزنزانة الآن؟!

وفي صباح اليوم التالي من المحاكمة، قام المحامي هاربر بزيارتي قائلا ً:

- هل علمت بما حصل داخل غرفة المحلفين بينما كانوا يتناقشون للإدلاء بالحكم؟

فأجبت مستغربا:

- ماذا حصل؟

- قال لي الحارس الذي قام بالبحث عن علبة المحارم الورقية... هل تتذكره؟

- نعم.

- قال أن أحد النسوه لم تكن تود إدانتك، ولكن تم الضغط عليها من قبل الآخرين، فقامت بالبكاء من أجلك. ولذلك ظهر الحارس في القاعة باحثا عن المزيد من المحارم، هل تتذكر؟

- نعم، لقد حاول الحارس الاشاره لذلك.

- نعم، إنها الوحيدة التي ظلت حتى آخر لحظة تدافع عنك قائلة أنها إمرأة وتعلم بأن الفتيات يكذبن. ولكن بالنهاية، يبدو أن أحدهم تلفظ بكلمات عنصرية تجاهك مثل الإرهاب والطالبان، والآخر قال أنه لا وقت لديه للإنتظار أكثر من ذلك. وهنا قامت المرأة بالإستسلام لضغوطاتهم.

سألت المحامي ما إذا كان بإمكاننا العودة إلى القاضية مطالبين بإعادة القضية وإختيار أعضاء آخرين بعذر العنصرية؟

- المشكلة هي إننا لا نستطع إثبات ذلك؟

فصمت قليلا ثم سألته:

- وماذا الآن؟

- لا تخف سوف نقوم بالإستئناف.

ثم قام بشرح ما سيحل بي، قائلا:

- عليك الإستعداد للإنتقال إلي سجن الولاية الإصلاحية، فسوف يقومون بنقلك لتكون تحت سلطة الولاية بينما نحن نعد أوراق الإستئناف.

فرحت محدثا نفسي:

- ويحك! وكيف لي الإستعداد لذلك؟ نفسيا؟ فإني محطم نفسيا ً ومدمراً.

عدت إلى زنزانة رقم 3 منتظرا ً ذلك اليوم الموعود... اليوم... الآن... غدا... متى؟ ولكني كنت مطمئن القلب من كلام الله ووعده:

"وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا" (الطور: 48)

السلام عليكم

لن يُقال لك أبدا متى موعد نقلك من سجن المقاطعة إلى سجن الولاية المركزي، والسبب ببساطة هو كي لا تُخبر—بطريقة أو بأخرى—أصدقائك أو أفراد العصابة التي تنتمي لها، فيخططوا للإنقضاض على حافلة النقل لتخليصك ومساعدتك للهرب. وهو أمر وارد في أمريكا، فهناك حالة أو حالتي هروب أسبوعيا. فهذه سجون أمريكا المعروفة بكثرة وخطورة المجرمين فيها وليست سجن طلحه.

إن حافلة نقل المساجين في أمريكا ضد الرصاص، ولكنها ليست ضد الإصطدام أو الإنقلاب والمنشار الحديدي. ولكن لماذا يجب نقلي من سجن المقاطعة إلى سجن الولاية على أي حال؟ إن سجن المقاطعة كان مخصصا ومعدا للمجرمين المحكومين الذين لا تزيد أحكامهم عن السنة الواحدة؛ أما سجن الولاية، فهو معد خصيصاً لهؤلاء المحكومين لسنوات عديدة والأحكام المؤبدة أو الإعدام.

عادة ما يقوم السجانة بنقل المساجين في منتصف الليل، بعد أسبوع و إسبوعين من تاريخ إصدار الحكم، ولكن لا أحد يعلم الموعد بالضبط، ولا حتى السجانة أنفسهم، إلا بساعات قليلة قبل تنفيذ عملية النقل. وفعلا، بعد أسابيع قليلة من إنتهاء قضيتي والحكم علي، وفي تمام الساعة الثانية بعد منتصف الليل، فُتح باب الزنزانة المزعج، مما جعلني أقفز من نومي وإذا بصديقي السجان الأصلع، الذي تعرفت إليه خلال السنتين الماضيتين، واقفاً أمام باب الزنزانة قائلا :

– ياسر... لقد حان الوقت.

"الأحمراني" كما نطلق عليه نحن المسجونين، هو خليط من أب أسود وأم بيضاء، وهو سجان يعمل في سجن المقاطعة منذ زمن، ولكنه كان مختلفا عن باقي سجاني المقاطعة، فقد كان طيبا ولم يكن عنصريا، ولم يكن صاحب كلمات بذيئة ولِم يقوم بأي إساءة للمساجين، وخاصة لي أنا العربي المسلم. لقد كان "الأحمراني" محترما متواضعا للغاية، وكانت مقولته الشهيرة هي:

– أنا هنا لإستلام المعاش وليس تعذيب المسجونين.

وبعد مشاهدته لى مرارا، من وراء النافذة الزجاجية الموجودة في منتصف باب الزنزانة راكعاً لله وساجداً، أرجو الرحمة وعيناي تفيضان من الدمع، بدا الأحمراني الإهتمام بالإسلام. في البداية، كانت أسئلته تدور حول الشرق الأوسط والحروب الأمريكية، ولكن ما إن يبدأ الحديث حتى يتمحور حول الأديان على وجه العموم، والدين الإسلامي على وجه الخصوص. وفي مرة من المرات، سألني عن كيفية الحصول على نسخة من القرآن الكريم مترجمة معانيها إلى اللغة الإنجليزية؟ فقلت له بأني سوف أهديه نسخة. وفعلا، أحضر له عبدالله أخي النسخة الإنجليزية

في خلال أحد زياراته لي، فراق له ما قد قرأ من القرآن. أحيانا كَنت أراه عبر النافذة الزجاجية، وهو منكبا على القرآن يقرأه بتمعن خلف مكتب السجانة الموجودٍ في منتصف العنبر، وعندما كان يلاحظ بأني أشاهده، يقوم برفع القرآن ليريه لي مبتسما مشيرا بأنه يقرأه.

ولكن كسجين ذليل في تلك الظروف الصعبة، لم تسنح لي الفرصة لتلقينه كلمات الشهادة أو التعمق مع في الحديث عن الأديان. على أي حال، عند سماعي الكلمات، "حان وقت الرحيل"، علمت أنه يجب علي لبس ملابس السجن وتفريك أسناني وحمل قرآني تحت إبطي اليمين مستعدا لتقييدي من رأسي إلى قدماي كالعادة. ورجع الأحمراني بعد قليل وقام بتقييدي وأخذي إلى آخر الممر لتسليمي للسجانين الآخرين، والذين بدورهم قاموا بأخذي إلى زنزانة الإنتظار للنقل. وعندما دخلت تلك الزنزانة، وجدت ما يقارب العشرة من المحكومين الآخرين المقيدين أيضا من الرأس إلى القدمين، كحالتي ليتم نقلهم معي إلى سجن الولاية. كان منهم من يحمل تحت إبطه كتابه المقدس، ومنهم من كان يحمل أوراق قضيته القانونية وكانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحا.

إنتظرنا لساعتين أخرتين، ونحن مقيدون في هذه الوضعية المؤلمة، والسلاسل ملتفة على الخصر والأكتاف وكأني عنتر بن شداد عند القاء القبض عليه. فحان وقت صلاة الفجر ولم يحضر باص النقل بعد. فتوجهت نحو المغسلة المتواجدة في زاوية الزنزانة، فحاولت الوضوء ولكن دون جدوى. لقد كانت يداي مقيدتان بالأساور الفضية ومربوطة بسلسلة أخرى إلى وسطي. وبعد العراك مع السلاسل محاولا مد يدي نحو المغسلة، وجدت الأحمراني يراقب ما أفعله، فدخل إلى داخل الزنزانة يسألني عما أريد معتقدا إني لربما أريد إستعمال المرحاض. فشرحت له بأنه قد حان وقت الصلاة وأنني فقط أرغب بالاغتسال والوضوء. وبعد التفكير لحظة، قام بفك قيودي قائلا :

– ليس من المفترض علي فعل هذا. لديك خمسة دقائق أسرع!

فشكرته ثم شكرت الله سبحانه وتعالى لتيسير أمري، وكيف لا وأنا إسمي "ياسر"؟ فشرعت بالصلاة، وعم الصمت في أرجاء زنزانة الإنتظار، وأخذ المساجين بالإلتفاف حولي، وهم ينظرون إلي كل حركة من حركات الصلاة: التكبير، والركوع، والسجود، وحتى رفع الخنصر عند قول الشهادتين. وبعد الإنتهاء من الصلاة، رجع الأحمراني ووضع القيود من جديد، فشكرته ثم خرج من الزنزانة، ولكنه توقف عند الباب ونظر إلي مرة أخرى قائلا:

– ياسر.

فنظرت نحوه فإذا به يقول بالعربية المكسرة كلمة قد علمته إياها سابقا:

– السلام أليكم!

فأجبت مبتسما:

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

فشكرت الله سبحانه وتعالى على تسخيره الآخرين لرسم الإبتسامة على وجهي رغم تلك الظروف القاسية ورغم المحن. حقا، إن السود في أمريكا هم أكثر تعاطفا مع المسلمين وأكثرهم هداية للإسلام.

وصلت حافلة النقل أخيرا، وكانت مطلية باللونين الأبيض والأخضر، ونوافذها مغطاة بالصفائح الحديدية المخرمة، وقد نصب في أولها وآخرها دعاميات من الفولاذ الصلب. فقام أحد السجانة بالنداء على أسماء المحكومين واحدا تلو الآخر للدخول إلى داخل الحافلة من أبوابها الخلفية، وراح الآخر يطابق الإسم والصورة لكل واحد منا. حليقي الرأس، ركبنا الواحد تلو الآخر من الباب الخلفي للباص، كركوب ذبائح العيد في سطحة الوانيت، إلى أن إمتلأ ولم يكن هناك مكانا حتى لصرصور يجلس بيننا. فكنا مثل علبة الساردين الممتلئه للآخر.

الشر يعم والخير يخص

هناك مقعدان طويلان يمتدان بالطول في أطراف الباص من الخلف، وهناك حاجز ضد الرصاص بين تلك المساحة ومكان القيادة وفيه شرطيان: أحدهما يقود الحافلة والآخر مسلح يراقب المساجين. جلسنا جميعنا جنبا إلى جنب على تلك المقاعد الطولية الحديدية، وكان البرد شديدا وكانت المقاعد الحديدية، نتيجة لذلك البرد، باردة أيضا، ولم تغطي أجسامنا سوى تلك البدلة الحكومية الخفيفة.

بالإضافة إلى ذلك، كان كل منا أصلع تماما، فقد قام السجان بحلق كامل الشعر "علي الصفر". فلا عجب إذن مما اضطرنا للالتصاق ببعضنا البعض، كتفا بكتف لتدفئة أجسامنا، درجة حرارة جسدك ودرجة حرارة جسد الشخص الجالس بجانبك وهكذا، غير عابئين بالروائح الكريهة المنتشرة بالحافلة والمنبعثة من الإبط أو الفم. وعلى الرغم من تلك الحالة المزرية وهذا الشعور البغيض الذي تملكنا في حافلة النقل، إلا أن أحد المحكومين السود بدأ بالتندر محاولا إضحاك الجميع، قائلا:

- ماهو أول شيء يقوله الرجل الأبيض عند إستيقاظه من النوم مباشرة؟

فقلنا:

- ماهو؟

فقال:

- صباح الخير أختاه.

فضحك الجميع وكأنهم يشفون غليلهم من السجانة البيض، حيث أن أغلب سجانة ولاية فلوريدا هم من البيض، وأغلب المحكوم عليهم هم من السود والملونين. فكانت النكته عنصرية ويقصد بها أن الجنس الأبيض هو نتاج زنا المحارم.

وبينما نحن في طريقنا إلى أحد سجون الولاية، قام أحد المحكومين السود، والذي يعتبر صاحب خبرة في مجال السجون، بإسداء نصيحة لنا، نحن حديثي العهد في هذا الطريق الوعر. فقال:

- هذه نصيحة من رجل ذي خبرة في سجون الولاية إلى المحكومين الجدد...

وبما أن الأمر يعنيني، فأنا جديد على سجون الولاية، فقد أنصت إليه بحرص شديد خاصة في وسط إزعاج الطريق وازعاج المحكومين الآخرين. فقال:

– أولا: عند الوصول إلى سجن الولاية الإصلاحي، يجب على الجميع الصمت التام، فلن يعجبك ما سيفعلوه بك إن تفوهت ولو بكلمة واحدة. ثانيا: إذا طلب منك أحد السجانة التحدث، فلا تبدأ بالحديث قبل القول: "نعم سيدي". ثالثا: أنظر دائما إلى الأسفل ولا ترفع رأسك للأعلى مهما دعاك الفضول. رابعا: لا تنظر أبداً تجاه النسوة السجانات. دائما غض البصر، وإلا ...

فقام محكوم آخر بمقاطعته قائلا:

– وإلا سيضربونك ضرباً مبرحاً، وسيقومون بكسر ضلع أو ضلعين، إلى أن تتطاير أسنانك الأماميه من فمك.

فأضاف أحدهم:

– إن لم تصدق، أنظر إلى الكاونتر الجانبي لقاعة الإستقبال.

فسألته:

– وماعليه؟

فأجاب:

– هناك جرة زجاجية مملوءة بالكامل تحتوي على أسنان المحكومين الذين لم يتبعون قواعدهم وقوانينهم.

فقلت لنفسي:

– لا يحوشك!

يا ويلتاه! ماهذا؟ هل أنا متوجه لسجن ولاية فلوريدا "الإصلاحي" أم سجن العقرب (طره) بمصر؟ هل هذا صحيح أم أنهم فقط يحاولون إفزاع قلوب المحكومين الجدد؟ فإن كان ذلك هدفهم، فلقد نجحت محاولتهم. ها هو قلبي يخفق وكأني متوقف على سكة حديد لقطار قادم نحوي بسرعة 200 كيلو مترا بالساعة.

إقتربت الحافلة من "سجن الإستقبال بمنطقة واشنطن" وهي تقع في شمال ولاية فلوريدا، فإختلست النظر نحوه من خلال تلك الفتحات المخرمة في الصفائح المعدنية التي تغطي نوافذ الحافلة. فتراءت لي وسط الظلام، العديد من المباني البيضاء، منسقة ومرتبة جنبا إلى جنب، وحولها الشباك والأسلاك الشائكة، تُضيؤها كشافات الأضواء كتلك المستخدمة في ملاعب كرة القدم المحترفه. أما بالنسبة إلى حجم السجن، فقد كان كبيرا وكأنه حرما جامعيا. اقتربنا نحو إحدى بوابات السجن المتعددة، فخفت الضوضاء شيئا فشيئا، ثم توقفت الحافلة على بعد 50 مترا بعيدا عن البوابة. فقال خريج السجون بصوت منخفض:

– لا تنسوا نصيحتي!

قدم بعض السجانة نحو الباص، فتوقف المحكومين في داخل الباص عن الحديث أو الهمس تماما. كان السجانة بيضاً ضخاماً، يضعون السويكة في فمهم. ويُعتبر هؤلاء من أسوأ السجانين في أمريكا كلها، فمنهم من يضرب، ومنهم من يعذب، ومنهم من يقتلك من دون أي حساب أو عقاب، وكأنهم المخابرات العراقية التابعة لصدام أو المخابرات السورية.

حل الصمت وكأنك في خطبة صلاة الجمعة، وإقترب من الباص أحد السجانة ممسكاً بيده جهاز الكاشف للقنابل، ذلك الجهاز ذاته الذي تستعمله السفارة الأمريكية في الكويت عند تفتيش سيارات الكويتين في مواقف السيارات، الذي يبعد 100 متر عن مبنى السفارة الأمريكية في الكويت. بدأ ذلك السجان بتمرير ذلك الجهاز الكاشف تحت الحافلة محاولا إكتشاف أي شيء مخبأ في الأسفل كقنبلة أو "أدوات حروب" أو حتى أسلحة. وعندما إنتهى من التفتيش، سمح للحافلة بالإقتراب من البوابة للدخول، ففتحت حواجزها لادخال الحافلة إلى داخل مواقف السجن المخصصه لها. فتوقفت الحافلة وأُطفيء محركها المزعج، فلا تسمع شيئا على الإطلاق سوى أصوات السجانة وهم يتحدثون لبعضهم البعض.

فُتحت الأبواب الخلفية للحافلة من الخارج، وإذ بالعشرات من السجانة البيض الضخام القامة، وكأنهم رجال المصارعة الأمريكية، بانتظارنا بالخارج، والشرر يتطاير من أعينهم. فبدأ الخوف يتسرب إلى أوصالي، وشعرت وكأني قد إنتقلت إلى الرفيق الأعلى. قال أحدهم بينما هو يلوكً السويكة في فمه، وبصوت خافت لايكاد يُسمع وبلهجة أمريكية ريفية (بدو أمريكا):

- أريد منكم النزول من الحافلة واحدا تلو الآخر والنظر إلى الأرض طوال الوقت؛

فإن نظرت إلى الأعلى، فسأكون أنا هو آخر ما تراه في حياتك.

فقلت لنفسي:

- لا يحوشك!

نزلنا واحداً تلو الآخر إلى خارج الحافلة ناظرين إلى الأسفل، وكأننا ذبائح تُساق إلى مصيرها خارجة من خلفية الوانيت، ومن دون النظر إلى الأعلى لا نقول سوى، "نعم سيدي!" و"نعم سيدتي". ثم قيل لنا أن نضع أغراضنا على الأرض، فعلنا، ومازالت أعيننا تبحلق في الأرض ولا شيء سوى الأرض وكأننا نراقب النمل. ثم حدث ما هو غير متوقع.

أمرنا أحد السجانة أن نخلع ملابسنا كلها وألا نبقي على أي شئ! وبعد تردد قمنا بخلع ملابسنا، إلا أن أحد المحكومين السود رفض أن يخلع ملابسه، وياليته لم يرفض. فقد إنقض عليه أربعة من السجانة—لتلقينه درسا ولجعله عبرة للآخرين—وراح كل واحد منهم يضربه ويركله بلا رحمة. ثم قاموا بسحبه من رجليه مباشرة إلى الحبس الإنفرادي لإكمال الإحتفال هناك. لقد كدت أن أتبول على نفسي من شده الرهبة، ولم تسعفني رجلاي للوقوف، فالبرودة والخوف وما شهدته منذ وهلة ليس بالقليل. ثم عاد السجانة فقال أحدهم:

- سوف تدفعون ثمن ما فعله ذلك الزنجي!

وبسرعة مذهلة تعلمت أول درسٍ في حياة سجون الولاية، والتى تعتبر القاعدة الأولى والأساسية: "الشر يعم والخير يخص". فقد كان عقابنا الوقوف عراة لساعة كاملة في منتصف الساحة بينما درجة الحرارة تقارب الصفر.

هل تود الإنتحار؟

أخيراً وبعد أن قام هؤلاء الرجال البيض، الشواذ منهم وغير الشواذ، بالتفرج علينا، عراة كيوم ولدتنا أمهاتنا لساعة كاملة، حذفوا الملابس لنا لتغطية عوراتنا. وماذا تتوقع أن تكون ثياب المساجين التابعين للولاية؟ سروال أبيض قصير داخلي، غير مغسول، قد إسود لونه من شدة القذارة؛ وبنطال أزرق فاتح اللون ذو خط أبيض جانبي؛ وقميص ذو أكمام قصيرة من نفس لون البنطال، وهي بالمناسبة مستعملة من قبل العشرات من المساجين من قبلنا؛ وجوارب قد تحول لونها إلى الأخضر من شدة القذارة وفيها ثقوب من كل جانب. تذكر بأننا في فصل الشتاء وكانت الحرارة مقاربه للصفر.

سُمي "سجن الإستقبال" بهذا الإسم لأنه يعتبر سجنا مؤقتاً، يتم فيه تقديم لقاء تنويري يوضح للسجين ما يجب فعله وما لا يجب فعله، وذلك عن طريق تلقينه القوانين والقواعد الواجب إتباعها خلال فترة الإقامة. بالإضافة إلى ذلك، يقوم فيه الأطباء بفحص السجين طبياً ونفسياً وعقلياً. وبعد كل تلك الإجراءات، يُعطى له الرقم الخاص به، رقم السجين الدائم، وبعد عدة أسابيع، يقوم السجانة بنقله إلى السجن " الدائم". والغاية من سجن الإستقبال هو تهيئة السجين للعيش في سجون الولاية من دون أية صعوبات.

صدق أو لا تصدق، بالنهاية أنت بالنسبة لسجون فلوريدا الإصلاحية—وأمريكا عموما— لست مجرما فقط بل أيضا زبون. وكيف ذلك؟ إن المسألة تكاد تكون تجارية بحتة، وإليك بعض الأدلة:

أولا: على مستوى ولاية فلوريدا فقط، هناك ما يزيد عن 100 سجن تابع للولاية. وذلك الرقم لا يتضمن سجون المقاطعات وهي سجون محلية، ولا يتضمن سجون الحكومة الفيدرالية وهي بالعشرات. بالإضافة إلى ذلك، هناك ما يقارب 1000 سجين في كل سجن من سجون الولاية. لذلك تُعتبر ولاية فلوريدا ثاني أكبر ولاية بعدد السجناء وهو 110 ألف سجين؛ وتأتي في المرتبة الأولى ولاية تكساس، حيث يبلغ عدد السجناء فيها 120 ألف؛ وتأتي في المرتبة الثالثة ولاية كاليفورنيا، حيث تحتوي سجونها على 100ألف سجين.

ثانيا: تقومٍ حكومة الولاية بتخصيص ميزانية سنوية لهيئة الولاية الإصلاحية وهي ما تقارب الـ 70 دولارا للشخص الواحد يوميا، حيث يخصص لكل سجين ثلاثة وجبات طعام يوميا، تكلفة الوجبة الواحدة هي 60 سنتا تقريبا. وعند حسابها على ثلاث وجبات يصبح الناتج 180 سنتا، أي ما يقارب الاثنين دولار. فأين يذهب باقي المبلغ، 68 دولار ؟ في جيوب من؟!

ثالثا: لمن تعطى مناقصات بنيان وترميم وصيانة تلك المئات من السجون؟ هل تعلم بأن هناك شركات سجون قطاع خاص مدونة في البورصة الأمريكية، كبورصة نيويورك ونازداك (إسم بورصة أخرى) وأكبرها شركة إسمها "الشركة الإصلاحية الأمريكية" " CCA "، (غيرت إسمها حديثا الى Corecivic) ونشاطها هو بناء السجون وترميمها وصيانتها وحتى إدارتها؟!

بالإضافة إلى ذلك، يوجب العقد الموقع بين تلك الشركات وسلطات الولاية، والسجون الإصلاحية، أن تقوم الولاية بملئ السرائر في تلك السجون بنسبة لا تقل عن 90 %. وهذا يعني أن تقوم الشركة بالبناء وتقوم الحكومة بإرسال المسجونين لتستوفي شروط العقد بينهما! وبالمناسبة، يمكنك شراء أسهم تلك الشركات والربح من تلك الشركات ذاتها التي تقوم بحبسك.

على أي حال، بعد تلك الحفلة الأولى، من الإذلال والوقوف عاريا ً كما ولدتك أمك لساعةٍ كاملة والسخرية منك، وبعد إعطائك تلك الملابس العفنة النتنة، ملابس الصعاليك، أُدخلنا واحداً تلو الآخر إلى عيادة سجن الإستقبال، ليتم الفحص الشامل للبصر، والسمع والأذن والحنجرة والأسنان...إلخ . ثم انتقلت إلى غرفة الباحثة النفسية التي لا تجيد سوى طرح الأسئلة السخيفة مثل:

– أتود الإنتحار؟

يجب على السجين الإجابة وعينيه في الأرض (تذكر القاعدة الأولى التي تلقيناها من ذلك المحكوم، خريج السجون ونصائحه في الحافلة).

كان ردة فعلي حينما سألت الممرضة السؤال هو الدهشة:

– الإنتحار؟!!!!!

ولكن إن فكرت بالأمر مليا، سوف تجد أن أسئلتها منطقية للغاية. فوالله إن ما يقوم بفعله هؤلاء السجانة بالسجناء ليدفع للإنتحار بلا شك. إلا أنني أجبتها بالنفي:

– كلا.

ثم سألت من جديد:

– وهل تريد إيذاء نفسك؟

ولكن لم أستطع إلا السخرية من سؤالها فأجبت:

– سأترك هذا للسجانين، فإنهم سوف يقومون بالواجب وزيادة!

فضحكت الممرضة مما قلت، فشكرت الله على احتفاظي بخفة دمي حتى في أحلك الظروف. ثم قامت الممرضة الأخرى بفحص نبضي وضغط الدم، ففاجأتني بسؤالها:

– منذ متى وأنت تعاني من ضغط الدم؟

– أنا؟ أنا لا أعاني من ضغط الدم!

– يؤسفني أن أقول لك بأنك تعاني منه الآن.

راحت أضواء غرفة الممرضات بالإنطفاء، وبدأت تظهر الهالات والنجوم أمامي وشعرت بالزغللة في عيني، وهي علامات ضغط الدم ذاتها. فقلت لنفسي:

- ويحك يا ياسر! لقد سلبوا منك حريتك، وها هم الآن يريدون سلبك صحتك!

قالت لي بأنها سوف تصف دواء للتحكم بضغط الدم وأنه يجب علي أخذه إن أردت العيش بسلام في هذه الظروف وهذا المكان. وقبل أن أخرج من غرفتها قالت:

-على الأقل هناك خبراً ساراً!

- وما هو؟

-إن بصرك 6 على 6.

ثم قام السجان بأخذي لصالة التصوير لكي تعطى لي هوية خاصة بالسجن وعليها رقم السجين، وهو عبارة عن رقم مكون من ستة خانات يرافق السجين مدى الحياة. عند تصويري، نظر السجان إلى شاشة الكمبيوتر فقرأ المعلومات المكتوبه عني، فعرف أنها المرة الأولى لي في سجن الولاية فقال:

- أول مرة؟

- نعم، سيدي (لم أنسى نصيحة خريج السجون).

- المرة الأولى، وحكمت بخمسة عشر سنة؟!

- نعم سيدي.

ثم أضاف بعد قراءة المزيد من البيانات المدونة على الشاشة:

- ومن إغتصبت أيها الأخرق؟ أختك؟

فأجبت ووجهي إلى الأرض:

- لا سيدي.

- انتهى تصويرك، أغرب عن وجهي.

- نعم سيدي.

ثم قام أحد السجانة بأخذ جميع المساجين، ومن بينهم أنا بالطبع، ثم وضعنا في صالة كبيرة لحضور اللقاء التنويري وكأننا طلبة مستجدين في السنة الأولى من الجامعة. وقام أحدهم بتوجيهنا لما يجبٍ علينا فعله كالحلاقة يوميا، وتفريك الأسنان، وترتيب السرير، قبل الساعة السادسة صباحاً من كل يوم، واستخدام عبارة "نعم سيدي" و "لا سيدي" عند الإجابة على أسئلة

السجان. شعرت حينها وكأني في دورة للجيش، الكل حليق الرأس ومعه "لفة" السرير، والكل متجه إلى مهجعه المخصص له. فترى المساجين يتلفتون يميناً ويساراً باحثين عن أسرتهم والتوتر والقلق يعلو وجوههم.

كل شيء في هذا المكان مؤقت: السرير... والمهجع ... والسجن بأسره مؤقت، إلى أن يتم نقلنا جميعا إلى السجن الدائم الذي سنقضي فيه فترة تنفيذ الحكم...المؤقت أيضا.

(49)

"وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا"

يختلف سجن الولاية كثيرا ًعن سجن المقاطعة، حيث أنك في سجن المقاطعة تبقى في داخل الزنزانة طوال اليوم، وليس بإمكانك الخروج، وليس هناك وسائل ترفيهية يمكنك الإشتراك فيها مع المسجونين الآخرين. أما سجن الولاية، فيوفر الكثير من النشاطات اليومية للمساجين سواءاً الترفيهية منها أو التعليمية أو حتى الدينية. لقد صممت سجون الولاية عموما ً وكأنها "حرم جامعي" حيث يمكن للمساجين التنقل بين مباني وأروقه السجن. وهناك ما يقرب من عشرين مبنى في السجن الواحد، مرتبين جنبا إلى جنب ويفصل بينهم مساحات شاسعة من العشب الأخضر والورد، وحتى الشجيرات المختلفة الألوان، إلا أنها تتشابه جميعا بحجمها الصغير لكي لا تعيق السجانة المسلحين في أبراج السجن المتعددة من المراقبة.

خصصت بعض تلك المباني لإيواء السجناء، بحيث يقسم كل مبنى منهم إلى جناحين وكل جناح يسمى عنبر. بالإضافة إلى مباني العنابر، هناك مباني أخرى أحدها مخصص للعيادة الطبية، والآخر للمكتبة القانونية (لبحث ودراسة المسجونين لإستئناف قضاياهم)؛ كما يوجد مطعم يقدم الوجبات الثلاث الرئيسية الخاصة بالسجناء، ومقصف يسمح للسجناء بشراء المأكولات الخفيفة وبعض لوازم النظافة الشخصية؛ كما يوجد حلاق ومبنى كنيسة للعبادة وممارسة الطقوس الدينية.

أما في منتصف ذلك "الحرم الجامعي"، فهناك مساحات شاسعة للملاعب، مملوءة بالعشب الأخضر، يتاح فيها لعب كرة القدم الأمريكية، وكرة القدم، وكرة السلة، وكرة الطائرة وحارات دائرية كبيرة حول الملاعب بأجمعها مخصصة للجري والمشي. وحجم تلك الملاعب الشاسعه أكبر من نادي الشباب أو نادي الساحل الرياضي بأكمله. فعلا، لن تظن أنك بسجن أبدا، فإنه أشبه بالحرم الجامعي، مع وجود فارق واحد وهو الأسلاك الشائكة، والأسلاك الكهربائية، والخنادق التي تحيط بالمكان مما يجعل عملية الهرب شبه مستحيلة، إلا إذا تحولت إلى أرنب فحفرت طريقك تحت كل تلك الحواجز والأسلاك.

وإن أردت الذهاب إلى الحلاق، على سبيل المثال، فعليك انتظار موعد فتح أبواب العنابر للخروج، حيث يخرج الجميع دفعة واحدة...أفواجاً... أفواجاً، كلٌ متجهٌ نحو مقصده، للحلاق... للكانتين (المقصف)... للملاعب ... الخ. إنه شبيه بعالم صغير داخل عالم أكبر، مثله كمثل جحر النمل، لا ترى مافيه من تحركات وعمل إلا عند النظر إليه عن كثب.

وبعد يوم أو يومين من وجودي في سجن الإستقبال، قال لي أحد السجناء في العنبر أنه يمكنني الذهاب إلى الكنيسة يوم الجمعة لأداء صلاة الجمعة مع مسلمين آخرين في المكان المخصص للمسلمين في القاعة الخلفية للمبنى. ولكن قبل التوجه للكنيسة يجب طلب "تصريح تحرك" من سجان العنبر. وبعد وجبة الغداء ذهبت إلى السجان وطلبت منه التصريح. وبعد إجراء

اللازم، فتح لي باب العنبر للخروج، فخرجت حاملا بيدي "تصريح التحرك" متجها بين مباني السجن العديدة إلى مبنى الكنيسة، ثم توقفت للتفتيش في "البوابة النصفية" وهي نقطة التقاء السجناء، بحيث يتم تفتيشهم للتأكد من عدم حيازتهم لأي أسلحة مصنعةٍ محليا كالسكاكين وغيرها قبل عبورهم الى الجهه الأخرى من السجن. فوقفت في الطابور منتظرا ً دوري للتفتيش ثم السماح لي بالعبورٍ إلى الناحية الأخرى من السجن. عندها تذكرت ما يحصل للفلسطينين الصامدين ٍيوميا ً في فلسطين على يد الصهاينة المتكبرين، فهم يعيشون في بلدهم كالسجناء أو أكثر قليلاً.

وبينما أنا في الإنتظار عند بوابة التفتيش، أخذت أنظر إلى السماء الصافية، والعشب الأخضر في الأسفل، والشوارع الصغيرة المسفلتة في كل جانب. ثم وقع بصرى على الأشباك والأسلاك الكهربائية الشائكة، التي تحيط بالمكان وبين بعض المباني والطرقات. وبينما أنا أنتظر دوري، وإذا بي أرى منظرا قد سرني للغاية، فقد رأيت من بعيد مجموعة من السجناء السود ببدلات السجن الزرقاء، وهم يضعون الطاقية البيضاء على رؤسهم، ويحملون على أكتافهم السجاجيد الملونة؛ رأيتهم يتقدمون نحو البوابة في طابور مرتب، واحدا تلو الآخر، يمشون بكل اتزان ووقار وهم يضعون القرآن تحت ساعدهم الأيمن والإبتسامة مرسومة على وجوهم، فتذكرت كلام الله تعالى:

"وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا" **(الفرقان : 63)**

ياله من منظر! يرتاح له كل خاطر! فقاموا بالإقتراب شيئاً فشيئاً من البوابة النصفية، ثم ظهر أحد السجانة البيض فقلب الدنيا رأسا على عقب، وراح يصرخ في وجوههم ويأمرهم بالتوجه نحو أحد الشبابيك الجانبية ووضع أيديهم عليه، وبدأ هو ومجموعة من السجانة بتفتيشهم وإهانتهم. وكانوا وقحين للغاية، فقاموا بسباب المسلمين بكل الكلمات البذيئة الموجودة في قاموس اللغة الإنجليزية، فتذكرت كلام الله في سورة العلق:

" أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى **(9)** عَبْدًا إِذَا صَلَّى **(10)** "

يحاول هؤلاء البيض العنصريون إعاقة المسلمين ومنعهم من الذهاب إلى صلاة الجمعة، ولكن أثار إعجابي إحتفاظ المسلمين السود بإبتساماتهم على وجوههم، وعدم مبالاتهم وحلمهم. فما هذا الذي تعرضوا له إلا روتين يومي إعتادوا عليه، فتذكرت أهل غزه الكرام ومعابر الحدود، فوالله لو كنت مكانهم لإستنجدت كالأطفال! "أبي!... أمي!" وبعد كل تلك المضايقات والتفتيش، أخيرا سُمح لنا وللبقية بالمرور من خلال تلك البوابة اللعينة، والتوجه إلى الكنيسة. دخلنا في الخلف وبدأ المسلمون بوضع سجاجيدهم على الأرض في المكان المخصص لهم للصلاة، ولكنني أراهم يضعونها بالعرض. "لماذا ياترى؟"، كان سؤالي لنفسي. ولم أحتاج لرسالة دكتوراه لمعرفة السبب، فليس هناك عدد كاف من السجاجيد للصلاة، لذلك اضطروا أن يضعونها بالعرض لتكفي أكبر عدد ممكن من المصلين.

لقد كان المكان المخصص للمسلمين كبيرا نوعا ما ذا مدخلين، واحدا َفي كل جانب، وكانت هناك لوحة سوداء وطباشير أبيض اللون لإستعمالها في دروس التعليم، وهي حصة يعملها المسلمين بعد صلاة الجمعة، فيها يعلم أحدهم الآخرين علوم الدين واللغة العربية على قدر المستطاع. وبعد أن قام أحدهم برفع الآذان، قام الآخر وهو أسود في الأربعين من العمر بإلقاء خطبة الجمعة، فجلسنا جميعا على الأرض منصتين. عجبا لهذا السجين الأسود، علمت أنه يحفظ الكثير من الآيات وحتى الأحاديث على الرغم من أنه دخل في الإسلام في سجون أمريكا منذ 20 سنة ماضية، ولم يرى مساجد حقيقية للمسلمين قط. سبحان الله يهدي من يشاء.

وبعد إنتهاء الصلاة، راح كل واحد منهم يعانق الآخر ملقيا السلام، وبينما أنا أنظر حولي متعجبا لما أراه من عناق وسلام وإبتسامات، رأيت أحد المسجونين واقفاً عند أحد الأبواب المؤدية لخارج تلك القاعة، ومانعاً بإصابع قدمه الباب من الإقفال نهائيا، ثم قام برفع يده اليمنى للأعلى وبدأ بتحريك أصابع يديه بشكل سريع وبطريقة هارمونية وكأن لكل إصبع وظيفه أو معنى. في باديء الأمر، ظننته موجها إشارته لي، ولكن عند النظر خلفي، وجدت أحد المسجونين المتواجدين في القاعة في الطرف الآخر يتابع تحركات أصابع أخينا، ويحرك برأسه وكأنه يجيب بالموافقة أو الإيجاب: "نعم... نعم... نعم". ثم توقف صاحب الأنامل عن الإشارة لصاحبنا، ولكن ما يزال يضع رجله على الباب ليمنعه من الإنغلاق كليا، فراح الآخر مخرجا سكينة محلية الصنع من بنطاله، ثم توجه نحو ذلك السجين الذي ألقى الخطبه للتو وطعنه عدة طعنات في رقبته وصدره ووجهه. فبدأ الدم بالتطاير وكأنها نافورة من الدم. ثم هرول راكضا ً خارجاً من الباب، فقام الآخر بإبعاد قدمه عن الباب فإنغلق. والمصيبة أن الباب لا يُمكن فتحه من الداخل. علمت حينئذن أن أخينا صاحب الأنامل الذهبية كان مستعملا لغة الإشارة (تهجئة أحرف الكلمات حرفا حرفا بواسطة الأصابع)، وأن ما قد حصل هو عملية إغتيال قد نظمها زعيم عصابة ما وقد أصدر أمر الطعن لسبب لا أعلمه. فتحولت تلك القاعة من صلاة الجمعة إلى "جمعة 13" بكل ما يحمله من دم وإثارة ورعب.

ومنذ تلك اللحظة، أدركت أنه وجب علي تعلم لغة الإشارة، وبأسرع وقت ممكن!

(50)

إنفرادي: كلاكيت أول مرة!

لقد تناثرت الدماء في كل المكان، وكان الإمام هو الهدف والمجني عليه، فها هو مستلق على الأرض، وحوله بركة من الدماء، وكأنه ذبيحة العيد في الحديقة الخلفية للمنزل. وفي أقل من دقيقتين، حاصر العشرات من السجانة المكان بأكمله مسلحين بالغازات المسيلة للدموع والعصي. ففي كل سجن من سجون الولاية، هناك فِرق القوات الخاصة، والتي تتخذ وضعية الإستعداد والتأهب طوال اليوم للتدخل في أي معركة قد تحصل بين العصابات، أو لمنع المظاهرات، أو إيقاف ومنع الشغب من قبل المساجين. ولكنهم لا يحملون مسدسات نهائيا، والسبب يرجع لتخوف السلطات من قدرة المسجونين على أخذها من السجانة واستعمالها ضدهم، أو استغلالها للهروب من السجن.

ويُسمح فقط للسجانة وحراس الأبراج المتواجودون في زوايا السجن بحمل السلاح، حتى يتمكنوا من إطلاق النار على السجناء من أعلى الأبراج. ويُعد صعود السجناء إلى الأعلى ضرباً من المستحيل، وذلك لطول الأبراج، وكثرة الأسلاك الشائكة المحيطة بها.

دخل العشرات من السجانة داخل مصلى المسلمين محاولين معرفة الجاني، فقاموا بتفتيشنا وفحص أيادينا لربما كانت هناك تقطعات يُستدل من خلالها على الجاني، ولكن دون جدوى. وفجأة! إتجه أحدهم نحوي، أنا العبدلله الفقير، الأطرش في الزفة، فبدأ بالزعيق في وجهي:

- إنزل على الأرض الآن!

فقلت لنفسي ودون أي مقاومة والصدمة على وجهي لا أكاد أخفيها، "ها هم مظنين بأني الجاني". هل رُسم على تقاسيم وجهي أنني الجاني ؟ أم كان هذا مجرد حظي التعيسً كالعادة؟ أم تُراني أشبه هؤلاء "الإرهابيين" الذين يظهرون على شاشات التلفاز؟ أم وقعت نظراتي بالخطأ على أحدهم ولم يعجبه شكلي؟ بدأ أحد السجانة بالإنقضاض علي بينما أنا مستلق على بطني على الأرض، وهي الوضعية التي يجب على السجين إتخاذها في حالات كهذه، ثم أخذ يلوي ذراعي لوضع الأساور الفضية عليها، فتذكرت من جديد قصتي مع صديق طفولتي مرزوق وذلك المجنون "أبو سعبولة" الذي صفعني على وجهي دون ذنب.

ثم قام السجان برفعي للأعلي للوقوف ولكنني لم أستطع، وكأنني قد أصبت بشلل الأطفال، لا أستطيع تحريك رجلي. فبدأ السحب! سحبوني إلي غرفة القائد المناوب للتحقيق في الموضوع. أُدخلت مقيدا ويدي للوراء، فقام الضابط بسؤالي:

- أين هي؟

فقلت:

- ما هي؟

فراح يقول من جديد:

- هي!

- هي ماذا؟

- هي! تعلم ماهي!

وهنا بدأ الغضب على وجهه، معتقداً أنني أتصنع عدم الإستيعاب. فقلت له مستفسرا:

- قل لي ماهي تلك "الهي" وأقول لك إن كنت أعلم أين هي!

ولكن يبدو أنه لم يعجبه ردي، فقال للسجان الواقف بجانبي، وهو يرمقني بنظرة إحتقار:

- خذ هذا الإرهابي وضعه في الحبس الإنفرادي تحت التحقيق.

علمت لاحقا بأن تلك الـ "هي" المجهولة التي يقصدها الضابط المحترم كانت السكينة التي استعملت في طعن القتيل. ولكن ما شأني في ذلك؟ كل ما أردت فعله في ذلك اليوم هو التعبد لله. فياله من حظ عاثر! مباشرة من صلاة الجمعة إلى الحبس الإنفرادي.

جرني ذلك السجان من ذراعي حتى كاد أن يخلعها، وتوجه بي إلى مبنى الحبس الإنفرادي، وهو مبنى أبيض كبير يقع في نهاية السجن له أسلاكه الشائكة والشباك الملتفة حوله خصيصاً، فيظهر من بعيد وكأنه قلعة محصنة في أعلى جبل. كلما إقتربت منه، تشعر وكأنك تنتقل إلى الرفيق الأعلى وأن روحك تصّعد في طريقها إلى السماء. أُدخلت إلى أحد أجنحته الشديدة البرودة، فشعرت وكأنني أدخل ثلاجة المواشي. فرائحته كانت شبيهة بتلك الروائح الكريهة المنبعثه من القبور. وقبل إلقائي في داخل أحد غرف الإنفرادي، قام السجان بخلع ملابسي الزرقاء مع إبقاء السروال الأبيض القصير الداخلي فقط. فهل لك أن تتصور إنسان شبه عاري في ثلاجة من الحجم الكبير؟!

لا تختلف زنزانة الحبس الإنفرادي في سجن الولاية عن تلك التابعة لسجن المقاطعة: 3×3×3 متراً، وحوائطها بيضاء، وأرضيتها رمادية اللون، وفي أحد الزوايا توجد مغسلة بمرحاض كطقم واحد، وسرير معدني دون فراش أو غطاء. ولكن كانت هناك مشكلة بسيطة جدا "أد البلوطة": فالحنفية لم تنزل أي مياه؛ ومشكلة أخرى أيضا بسيطة للغاية: فالمرحاض عطلان. في الواقع، عند سحب السيفون يبدأ المرحاض بالفيضان، فترى البراز يسبح في بركة في منتصف تلك الزنزانة، وياله من منظر! وان لم يكن البراز الفائض برازي، فهو براز السجين في الزنزانة المجاورة قادماً إلى أرضية زنزانتي، سباحة حرة! أما السقف، فهو يقوم بانزال مطر أصفر اللون ناتج تبول السجين في الطابق العلوي من حين إلى الآخر. لربما صممت زنزانتي لتكون مرحاضاً للسجين في الطابق العلوي، من يدري!

النجاسة في كل مكان، وليس هناك ماء للطهارة والوضوء، ولكن يجب على المسلم الصلاة أينما كان ومهما كانت حالته، فكنت أضرب بيدي على أحد الحوائط، لتجنب النجاسة على الأرض، للتيمم ومن ثم الصلاة واقفا على سريري، داعياً:

– الله يجازي إللي كان السبب!

ولكن ياترى من هو السبب؟ هل هن فتيات المقهى؟ أم المحققه اللئيمة؟ أو المدعي العام؟ القاضية؟ أم المحامي هاربر الذي إكتشفنا بالنهاية أنه هو الآخر يهودي! قام بسرقة نقودنا التى بلغت 500 ألف دولار، وبالنهاية حُكم علي15سنة سجن. ودعوت الله أيضا أن يفك أسري وأن يخلصني من هذه البلوى الجديدة: "تصنيع سلاح محلي وطعن سجينا آخر محاولا قتله"، وهي تهمة بإمكانها وضعي وراء الشمس مدى الحياة.

لا يحوشك! فلدي ما يكفيني من التهم والإدانات، ولا أحتاج المزيد. فرحت محدثا نفسي، "كيف يمكنهم إدانتي وأنا لم أفعل شيئاً؟ وليس هناك أي دليل لتورطي؟ وليست هناك أداة الجريمة أو البصمات؟". فأجابتي نفسي موبخة:

– يا أيها الأحمق! أنسيت ما حصل لك سابقا في قضيتك؟ لم تكن هناك أدلة أيضا، ولكن أنظر أين أنت الآن! في السجن!

بقيت في الحبس الإنفرادي لأسابيع عديدة "على ذمة التحقيق"، تقدم لي ثلاث وجبات يوميا عن طريق كوة في منتصف الباب، يقوم السجان المزاجي المتعجرف بإلقاءها على أرضية الزنزانة القذرة بطريقة مهينة ومذلة، على الرغم من قبضهم على الجاني الحقيقي في قضية "مقتل الإمام" وحبسه في الزنزانة المجاورة لي.

وفي إحدى ليالي الشتاء القارصة، عند تمام الساعة الثالثه صباحا، وبينما أنا أتقلب على سريري المعدني—لم تعطي لي اللفة وليس هناك فراشا يفصل جسدي العاري عن السرير المعدني البارد—فتح أحد السجانة الباب، قائلا:

– ياسر البحري.

–نعم.

– إستعد، حان الآن موعد نقلك إلي سجنك الدائم المفروز إليه.

علمت بأن التحقيق قد إنتهى على خير، ولم تُوجه لي تهماً جديدة، والله يعلم إني لست بحاجتها. ثم قام السجان بوضعي على عربة تشبه تلك المستعملة في فيلم هانيبل لكتر، "آكل لحوم البشر"، بعد أن قام بتقييدي وتكبيلي من رأسي إلى قدماي. وتم دفعي بتلك العربة إلى الحافلة من جديد. وفي ظلمة الليلة، إتجهت الحافلة نحو السجن الدائم والذي لم يسمح لي بمعرفة إسمه إلا بعد وصولي إلى هناك.

(51)

المرشد السياحي

لقد كانت الحافلة أكبر بكثير من تلك التي أقلتني من سجن المقاطعة إلى سجن الإستقبال. لونها أبيض وأخضر وذات نوافذ مغطاة بالصفائح المعدنية المخرمة وذات دعاميات مضغوطة من الفولاذ، ،عدد ركابه كان يقارب الـ 70 مسجوناً،.ويتم إنزال كل مجموعة من السجناء عند السجن المخصص لهم، حسب عملية الفرز التي تمت في سجن الإستقبال. وعند كل ساعة تقريبا تقوم الحافلة بالتوقف عند سجن ما لينزل بعض المسجونين وهكذا. فهناك العشرات والعشرات من سجون الولاية المنتشرة في كل أنحاء الولاية.

كنا في طريقنا إلى شمال ولاية فلوريدا وهي منطقة تحتوي على مايزيد عن الـ 30 سجنا مركزيا، وقد قامت سلطات ولاية فلوريدا ببنائها قرب المناطق الريفية المكتظة برعاة البقر والمزارعين (بدو أمريكا ولكن بيض وشقر). والغاية من ذلك هو توفير الوظائف لأبناء تلك الطبقة من الناس، أصحاب الشهادة الثانوية أو ما يعادلها. وبينما كان الباص متجها في طريقه في شمال فلوريدا، قام أحد السجناء وهو شاب في الثلاثينات من العمر، أسودا وذو لهجة ريفية، بالتعليق على ما نراه من بين تلك الفتحات المخرمة واصفا لنا الطريق وكأنه مرشداً سياحياً:

– هناك على اليمين بعد تلك الإشارة يقع سجن أوكالوسا... وهناك بعد تلك الأشجار يقع سجن سانتاروزا... وأما خلف محطة البنزين هذه، يقع سجن واكولا... وهكذا.

عجباً، فعلى الرغم من صغر سنه نسبياً، إلا أنه ذو خبرة واسعة في عالم السجون، وهو ملم بكل أسمائها، وأماكنها وأدق تفاصيلها، حيث قضى في كل سجن منها سنة أو إثنتان. يا له من سجين متعدد الأنظمة. وفي كل مرة تتوقف فيها الحافلة عند سجن ما، يبدأ "خبير السجون" بالتعليق من جديد:

– هذا أبشع السجون! نسأل الرب ألا ننزل هنا!

أو:

– هذا سجن جيد نوع ما ولكنه صغيرا الحجم.

أو:

– هذا سجن ليس جيد فلا تجد فيها نساءً كثر.

ويقصد هنا السجانات الشرطيات. وبعد أن توقفت حافلتنا العديد من المرات عند كل محطة، لم يبقى إلا سجنا واحدا وأخيرا، ولم يبقى في الحافلة سوى ثمانية سجناء بينهم أنا، فقال أخينا المرشد السياحي:

– أبشروا! فنحن في طريقنا نحو أفضل سجن في ولاية فلوريدا، سجن القرن. فليس هناك أي سجن قد تبقى في طريقنا.

لقد بدى الفرح على وجهه وكأنه متوجه إلى أحد النوادي الليلية وليس إلى السجن. فقال متباهيا:

– لقد قضيت ثلاثة سنوات في سجن القرن في أواخر التسعينات، وكان المكان رائعاً جدا ومليئا بالهواتف النقالة والخمرة المحلية، والحشيش، بل وحتى العاهرات!

ثم أخذ "المرشد السياحي" يغير نبرة صوته مقلداً ومحاكيا مضيفات الطائرات:

– أيها السادة! تبقى من الوقت عشرة دقائق للوصول إلى منتجع القرن، فأعدوا العدة للهبوط! وشكرا لكم لإستعمال حافلة سجون ولاية فلوريدا للطيران المدني... باي باي.

فراح الجميع يضحك بشكل عفوي ومتواصل، وكأننا نحضر مسرحية للفنان محمد نجم.

فتوقفت الحافلة على بعد خمسون متراً من بوابة سجن القرن الرئيسية، وظهر أحد السجانة حاملاً ذلك الجهاز ذاته لتفتيش الحافلات من الأسفل. فقام بتمرير الجهاز للتأكد من خلوه من أية متفجرات أو أسلحة أو حتى شخصا مختبئا. وبعد الإنتهاء من تفتيشه، فُتحت البوابة الرئيسية، فدخلت الحافلة ثم توقفت في المواقف المخصصة لإنزال المساجين وأطفأ السائق المحرك. توقفت محاولا المرور بين الكراسي في منتصف الحافلة، فالتفت نحوي أحد المساجين وكان أسودا في الثلاثينات من العمر وسمين قليلاً. فرأى القرآن تحت ذراعي فسألني مبتسماً:

– مسلم؟

أجبت:

– نعم.

– الحمد لله، وأنا كذلك.

ثم قام بمساعدتي للمرور بين تلك الكراسي معرفا بإسمه:

– معك كريم عبد القدوس.

عجباً، العرب في أمريكا عموما والفلسطينون خصوصا يقومون بإختيار أسماء أجنبية مثل: "توني"، "جيمي"، "سام"، "مو" " (كإختصار لإسم محمد)؛ أما الأمريكيون الذين يعتنقون الإسلام وخاصة المساجين منهم يقومون بإختيار أسماء عربية لأنفسهم. فقد إعتنق كريم واسمه الحقيقي "جيم جونسون" الإسلام منذ خمسة عشر عاما، عندما كان في أوائل العشرينات من عمره، وذلك على يد سجين عربي في إحدى سجون الولاية حينذاك، وهذه تعد المرة الثانية له في سجون الولاية. ومنذ ذلك اليوم، قمت بالتقرب من كريم وبدأ هو بمساعدتي وتعليمي أمور السجن

وخباياه. فحمدت الله وشكرته على تسخيره هذا الشخص ليكون عونا لَي في أزمتي. فتذكرت قوله تعالى، الآيات 2 و3 من سورة الطلاق: "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ". حقا، كان كريم هو مخرجي من تلك الظلمات وعوني في بداية مغامراتي في سجون الولاية.

فتح أحد السجانة الأبواب الخلفية للحافلة، وبدأ السجناء بالنزول الواحد تلو الآخر نحو الخط الأصفر المخصص لنا للوقوف. فقال أحد السجانة بعد رؤيته لأخينا المرشد السياحي:

– جون! هذا أنت من جديد؟

فأجاب جون ضاحكاً ومازحاً:

– إفتقدتكم فقررت زيارتكم! كما أن غلاء المعيشة في الخارج جعلت الحياة صعبة للغاية!

فراح جميع السجانة والسجناء بالضحك المتواصل عليه. فقال له السجان:

– إنزل أيها الأحمق!

ولكن ثمة هناك شيئا غريبا ًيحدث عند نزولنا. فلم يكن هناك سبابا ً أو كلمات بذيئة أو وقاحة أو إهانات، ولم يكن هناك تخويف، ولا تحديق وزعيق ولا أوامر مذلة ومهينة مثل، "أنظر إلى الأسفل". فما الحاصل هنا؟ لا أعلم في الواقع، لقد كان السجانة في هذا السجن محترمين نوعا ما. فعلى غير العادة أخذوا بكل هدوء يفكون قيودنا ويزيلون السلاسل من على أجسامنا، وبعد الإنتهاء قال أحدهم بإحترام:

– لا أودكم أن تمروا بهذا ولكن يجب علي إتباع الإجراءات.

مشيرا ًأنه يجب علينا التعري لتفتيشنا للتأكد من خلونا من أي ممنوعات كالأسلحة والمخدرات. علمت لاحقا بأن معظم سجون ٍالولاية تعامل المساجين بنوع من الإحترام، مدركين بأن هؤلاء المساجين سوف يقضون وقتا ًطويلا من أعمارهم في هذه السجون فلا حاجة لجعل حياتهم جحيما أكثر مما هي عليه.

وفعلا، بدأت حياة جديدة في هذا السجن، سجن القرن، حياة مليئة بالمغامرات والأحداث أبطالها السجانة والمساجين، وقصصها أغرب من الخيال. أتود سماع بعضها؟ اقلب الصفحة إذن.

حظيرة الخنازير

يعتبر سجن القرن جديداً نوعا ما مقارنة بالسجون الأخرى. فقد تم افتتاحه في منتصف التسعينيات على عكس سجون الولاية الأخرى، التي بنيت في الستينيات و الخمسينيات، وبعضها الذي بُني حتى قبل الحربين العالميتين الأولي والثانية. ولكن لدى كل تلك السجون عامل واحد مشترك وهو عدم وجود أجهزة تكييف على الاطلاق. تخيل غرفة في مبنى من المواد الصلبة، والطابوق، والحديد المسلح، والاسمنت، والصلبوخ، والسكريت، وليست فيها نافذة. ولا يوجد فيها سوى فتحة مربعة صغيرة في أحد الحوائط مركب عليها شيئا يشبه شفاط الحمام. وهي تعد الفتحة الوحيدة بين السجين وبين العالم الخارجي.

وتخيل معي، بالاضافة إلى ذلك، وفوق كل تلك المرارة، أنه ليس هناك عوازل في الحوائط للحماية من حرارة الشمس صيفا (والتى قد تصل درجات الحرارة فيها إلى أواخر الأربعينيات في معظم الأوقات)، أو برودة الجو شتاء (قد تقترب من درجة الصفر في بعض الاحيان). تلك هي غرفة السجين في سجن القرن! فعلى سبيل المثال، قد تكون درجة الحرارة في خارج ذلك المبنى ما يقارب ال 45 درجة مئوية، بينما هي 50 مئوية في داخل الغرفة، والسبب في ذلك هو احتفاظ الطابوق بالحرارة المنبعثة من أشعة الشمس طوال اليوم.

في سجن القرن، يبقى السجين وشريكه الآخر من السجناء، والذباب والصراصير من حولهم كل منهم يلهث محاولاً إدخال الكمية التي يحتاجها من الأكسجين اللازم للحياة والعرق يتصبب منهم بغزارة. نعم، فالذبابة في سجن القرن تتصبب عرقا. لعلمك حتى حوائط الزنزانة تتصبب عرقا. حيث أن درجة الحرارة في داخل الزنزانة تكون عالية جداً لدرجة أنها قد تفقدك الإحساس، وتشل قواك العقلية، وتفقد حواسك الخمس خواصها أو بالأحرى تفقد صلاحيتها. فاذا ما حطت ذبابة على وجه السجين وراحت تمشي عليه جيئة وإيابا، وأخذت تسرح وتمرح على وجهه، فمن شدة الذوبان لن يكون للسجين طاقة أو إرادة لأن يحاول هشها من على خده. يراها بطرف عينه تمشي على خده فيتجاهلها.

وتُراك في معظم الوقت تجلس في داخل الزنزانة، شبه عار إلا من السروال الأبيض الداخلي القصير، بينما يتصبب العرق منك ومن كل شئ من حولك، من أقلام وأوراق أو كتب أوحتى مقبض الباب أو بطانة الفراش، الكل مبتل ودبق، ويلتصق باليد وكأن الصمغ قد طبع عليه. والمسألة بغاية الجدية والخطورة! فهناك العديد من السجناء ممن يعاني من أمراض متنوعة، وأن هذا النوع من الحرارة والرطوبة له تأثير خطير على حياتهم، وترى سيارة الإسعاف —في الواقع مرة بالأسبوع—تدخل السجن لاخلاء أحد السجناء وأخذه إلى أقرب مستشفى، والسبب ارتفاع ضغط الدم، أو التعرض لنزيف داخلي من شدة الحرارة، أو السكتة الدماغية، أو السكتة القلبية، او الإختناق، أو الجلطة في الدم... الخ .

ووفقا للدراسات التي قامت بها جريدة "أمريكا اليوم"، فإن ما يقرب من 18 شخصاً قد ماتوا في سجون ولاية فلوريدا في سنة 2013 فقط من شدة الحرارة. والطريف في الموضوع هو أن لدى سجن القرن (كما هو الحال في سجون الولاية العديدة) حظيرة خاصة لتربية الخنازير، وأخرى للمواشي، وثالثة للدواجن تستخدم كطعام للمساجين، وذلك لتخفيف تكاليف إطعام المساجين. صدق أولا تصدق إن جميع تلك الحظائر مكيفة تكييفا مركزيا! لا كذب ! بالإضافة إلى ذلك، لدى سجن القرن مكانا مخصصا لتدريب وإيواء الكلاب البوليسية المدربة على شم وكشف أنواع من المخدرات، وحتى الهواتف النقالة (عن طريق شم ماده الليثيوم الموجوده في بطاريتها) وهي الأخرى مكيفة. فها هي تلك الحيوانات تعيش وتنعم تحت جهاز التكيف المركزي برداً و سلاماً، والفضل في ذلك يعود لإنسانية الأمريكان، وطبعا جمعيات حقوق الحيوان، بينما يُصاب الانسان بالأمراض المستعصية من كل صنف ونوع، نتيجة لإرتفاع درجات الحرارة الشديدة. فيا لحظ الحيوانات!! لها من يدافع عنها، ولكن من يدافع عن الإنسان وحقوقه؟ هل من مجيب؟

ونتيجة لذلك ظهر في محيط السجن نوع جديد من التنافس لا يُدركه من يعيش خارج أسوار السجون الأمريكية. حيث يتنافس السجناء للعمل داخل حظيرة الخنازير وما يتخلل العمل من تنظيف وجمع وحمل براز الخنازير، حتى ينعم السجين بساعات يقضيها بعيدا عن الحر، ومشاركة الخنازير ذلك النعيم وتلك الجنة.

إن المكان الوحيد المكيف الذي يسمح للمساجين الدخول فيه هو مبنى الكنيسة، فترى الكنيسة تكتظ بالمساجين صباحاً وفي فترة الظهيرة، وكأنهم قد نزل الإيمان والتوبة عليهم. ولكن عند النظر إليهم عن كثب، تجدهم نائمون وفي سابع نومه في مدرجات الكنيسة غير عابئين بالدروس الدينية نهائيا، لدرجة أنه في إحدى المرات، وبينما كان أحد المتطوعين المدنيين متواجداً يحدثهم عن "الرب اليسوع"، بدأ أحد المساجين بالشخير، وبدأ شخيره يعلو شيئا فشيئا، وكأنه قطار قادم من بعيد، إلى أن غطىّ على صوت محدثهم مما اضطره للسكوت لوهلة، إلى أن قام أحد السجناء المتواجدين بوخزه في جنبه لايقاظه من سباته العميق.

"وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ!" (الكهف: 18)

بدو شوية زيت زيتون وعصرة ليمونة!

ماهو أكبر مطعم قد أكلت فيه أو حتى سمعت عنه فقط؟ تخيل بمطعم يستوعب مايقارب 1500 شخص في خلال ساعة واحدة فقط، ويقدم ثلاثة وجبات للعدد نفسه يوميا! أظنك عرفت عن أي مطعم أتحدث، أهلا بك في مطاعم سجون الولاية الإصلاحية. في كل سجن من سجون الولاية، هناك مطبخا مركزيا بحجم ملعب كرة السلة؛ وعلى كل جانب من ذلك المطبخ، يمينا ويسارا هناك صالة للجلوس وتناول الطعام؛ ولكل صالة بابان، أحداهما للدخول والآخر للخروج؛ وتتسع كل صالة لـ 100 شخص في كل حين.

وعندما يحضر وقت الطعام، سواء للإفطار أو الغداء أو العشاء، تُفتح أبواب العنابر جميعها، العنبر تلو الآخر (عدا الحبس الانفرادي بالطبع)، فيقوم المساجين بالاصطفاف في طوابير منظمة ومرتبه وكأنها طوابير مدارس المتوسطة؛ وكل طابور يتبع خطاً اصفرا قد رسم على شوارع السجن لذلك الخصوص، ويجب على السجين الالتزام التام بنظام السير وعدم التخلف عن الطابور، وإلا لن يسلم من عقاب السجانة الواقفين بجانب الطريق كأنهم رعاة البقر، فتجدهم يستخدمون أسلوب الصراخ والزعيق أو حتى الصفير للمتخلف، ولا يتأخرون عن وضع الأساور الفضية علي يديه وسحبه للحبس الانفرادي... إذا تطلب الأمر.

بينما يدخل طابور إلى المطعم من خلال باب الدخول، يقوم طابور آخر بالخروج من باب الخروج في الوقت نفسه. وهناك بلا شك العديد من الطوابير التي تنتظر دورها في الدخول لتناول الطعام وهكذا. وبعد إنتهائنا من الطوابير المدرسية، ها نحن نواجه من جديد طوابير أخرى إلا أنها—على عكس الطوابير المدرسية—تخلو من تحية العلم و"عاش الأمير"، وتلك الذكريات المدرسية التي اعتدنا عليها في بلداننا العربية!

يدخل الطابور إلى الداخل حتى الوصول إلى النافذة، فتدفع صينية مليئة بالطعام. على السجين سحبها وأخذها، ثم الإتجاه الى الطاولات للجلوس، بحيث يجلس كل أربعة أشخاص على الطاولة الواحدة، ويُحسب للجالسين على الطاولة أقل من خمسة دقائق للانتهاء من الطعام. إن المقولة الشهيرة في السجن هي "إن للسجين فم واحد: إما الأكل أو الكلام". وبناء عليه الكلام ممنوع في المطعم منعاً باتاً، فتجد الجميع يأكلون دون التحدث أو الكلام، و كأننا في حظيرة الدواجن، حيث تأكل الدجاجات دون النظر إلى من حولها ودون التحدث فيما بينها.

وإذا ما إنتهت الدقائق الخمسة أو أقل قليلا، جاء السجان لأحد الصفوف من الطاولات وضرب بيده على الطاولة الأولى، وهي إشارة لانتهاء موعد الطعام، لذا يجب على كل المساجين المتواجدين في الصالة التوقف حالاً عن تناول الطعام والتوجه إلى سلة المهملات لرمي ما تبقى من طعام، ووضع الصينية في المكان المخصص لها، ومن ثم التوجه إلى المخرج والخروج من الصالة في طابور مرتب ومنظم. فإن لم يفعل، ستكون الأساور الفضية بإنتظاره والحبس الانفرادي يناديه.

وماهو نوع الطعام المقدم للمساجين عموما؟ يمكن لأهالي السجين الدخول على صفحة سجن الولاية المركزي على الإنترنت، إن تملكهم الفضول لمعرفة مكان ابنهم، وما يُقدم له من طعام هناك. وسيصابون بالعجب من قائمة الطعام الغنية الموجودة على الصفحة الرسمية للسجن على الانترنت، وكأنه طعام فندق خمسة نجوم، ولكنها لا تحتوي إلا على أسماء وهمية للمأكولات التي تُقدم، مما قد يوحي للأهالي بأن ابنائهم يتناولون أفضل الوجبات وأكثرها صحية، وذات قيمة غذائية عالية مليئة بالبروتينات والألياف والفيتامينات. كما قد توحي أسمائها بتنوعها الثقافي وإنتمائها لدول مختلفة. وإليكم ببعض الأسماء الموجودة في قائمة الطعام المقدمة إلينا: الرز الأسباني، وجبة الياكاسوبي، المعكرونة اليابانيه، الدجاج المقلي بالطريقة الجنوبية، الاسباغتي الإيطالي، برغر الليويزياني...الخ. يالها من قائمة طعام مليئة بالأسماء الرنانة التي يسيل لها اللعاب!

ولكن، كما هو الحال مع كل ماهو أمريكي، فشتان بين القيم والمسميات والواقع، حيث يُقدم للمساجين في سجون ولاية فلوريدا (والتي يزيد عدد المساجين فيها عن الـ 100 الف سجين) لحما صناعيا مصنوع في مختبرات الدولة واسمه تي في بي (TVP) وهي اختصار لثلاث كلمات إنجليزية (Texturized Vegetable Protein) وتعني "بروتينات الخضروات المنسجة". وهي عبارة عن لحم مصنع من بروتينات الخضروات والبقوليات. ففي فترة السبعينات، أدت "إنسانية" الأمريكان، بعد رؤيتهم لتفشي الجوع في كل مكان في العالم، لإيجاد حل لتلك المجاعات، فعكفوا في مختبراتهم لزمن طويل. وبعد التجارب العديدة، قدموا للعالم اختراعهم الجديد للقضاء على الجوع وهو: منتج يشبه براز القطط الناشف، لايمكن طبخه إلا بعد نقعه في الماء لينتفخ أولا ثم تشكيله لما تريده أن يكون، على شكل دائري شبيه بالبرجر، أو على شكل لحم مفروم، أو على شكل قطع كالكبدة، أو حتى على شكل تونا. ولكن لم يقع العالم في فخ تلك الشركات الأمريكية الإنسانية "السامية"، حيث رفضت معظم دول العالم (وحتى أثيوبيا في عز أيام مجاعاتها) استخدام هذا النوع المصنع من الطعام، والسبب هو أنه منتج غير صحي ويسبب الكثير من الأمراض.

فماذا صنعت تلك الشركات الأمريكية لحل مشكلة تكدس اللحم الصناعي وعدم رواجه في الأسواق الخارجية؟ قامت بكل بساطة ببيعه على سجون ولايات أمريكا المختلفة بسعر التكلفة. وقد ذيلت المنتج المصنع بالعبارة التالية: "يجب خلطه مع لحوم طبيعية". وطبعا لا يخفى عليكم السبب الذي يحتم خلطه بلحوم طبيعية وهو التخفيف من حدته وآثاره المدمرة على الجهاز الهضمي. ولكن على ما يبدو قد وقعت تلك النصيحة على آذان الأطرش. لتوفير المزيد من النقود (لسرقتها طبعا)، تم تقديمه للسجناء على وضعه الخام دون خلطه مما كان له أثره السئ على المساجين. فعند تناول اللحم المصنع ومن أول مرة يشعر المرء بمغص وألم مبرح في المعدة وكأن حصانا قد قام برفسه على معدته، وإمساك شديد يجعله عاجزا عن الحركة أو المشي فيبقي طريح الفراش يتلوى من الألم وكأنه ربيانة، ويصيح مناديا الغوث ولا من مجيب. وأما الغازات واضطراب المعدة فحدث ولا حرج، فلك أن تتخيل الروائح الكريهة المنبعثة التي قد تسبب الشعور بالغثيان أو فقدان الوعي أحيانا.

حقا إنه لحم ضار بالصحة، وكانت عواقب استخدامه على البشر، وعلى المساجين خصوصا، وخيمة. فقد كلف الولاية الكثير من المال كعلاج لأمراض جديدة ظهرت على المساجين حينها وذلك بعد أن قام عدد من المساجين برفع قضايا ضدها. ولم لا؟ ومكتوب على أغلفتها: "غير صالح للاستهلاك الآدمي". وبناء عليه، رفض الكثير من المساجين تناول ذلك اللحم الغريب الموجع الممرض، وراح الكثير منهم بإلقاءه في سلات مهملات المطعم، مما خلق معضلة أخرى لسلطات سجون الولاية. حيث بدأت مزارع تربية الخنازير المجاورة للسجون بفسخ عقودها المبرمة مع الدولة، والتي يتم بموجبها شراء أصحاب المزارع لمخلفات الأطعمة من سجونها واستعمالها كأطعمة لخنازيرها. وهل تعرف لماذا؟ بسبب رفض الخنازير أكل تلك اللحوم الصناعية. مما اضطرت السلطات في سجون الولاية أخيرا لحظر استعمال تلك اللحوم. ولكن هل ياترى جاء هذا القرار من أجل مصلحة المساجين أم الخنازير؟ مازال هذا السؤال يُؤرقني عند التفكير فيه.

وبعد أعوام عديدة من تناول هذا اللحم الخبيث، تم استبداله بالبقوليات بجميع أنواعها وأشكالها وألوانها. فانتهت بذلك معاناتنا مع اللحم المصنع إلا أن معاناتنا مع الغازات واضطراب المعدة لم ينتهي بعد، فما أن تمشي في أروقة السجون حتى تسمع فرقعات البطون وكأنها مهرجان للألعاب النارية مع فارق الروائح بكل تأكيد. وفي مرة من المرات بينما كنا في المطعم، جلس بجانبي سجين عربي من لبنان اسمه فادي، وهو رجل في أوائل الخمسينات من العمر. أخذ فادي يشتكي من الطعام المقدم وهو الفول المدمس مع رغيف التوست، فقال فادي اللبناني: "والله مابيعرفوا الأمريكان فن الطبخ! هالفول بدو شوية زيت زيتون وعصرة ليمونة وشوية فلفل أسود وملح". وبما أن الكلام ممنوع منعا باتا في المطعم، قام أحد السجانة الواقفين خلف طاولتنا بأخذ الصينية المملؤة بالطعام ثم قام بسكب كل مافيها على رأسي ثم قام بطردي من صالة الطعام، معتقدا أنني أنا من كان يتكلم على الطاولة. ولك أن تتصور منظر الدهشة على وجهي.

بهلول البطل

لربما لا تعجبك العبارة التالية ولكنها صحيحة كل الصحة، خاصة في سجون أمريكا عموما: "لقد أعطى أبو قعقاع (أسامة بن لادن) هيبة شديدة للمسلمين عموما وللعرب على وجه الخصوص، هيبة لم يستطع أي زعيم عربي، ولا حتى جمال عبدالناصر من اعطائها للعرب". فبمجرد معرفة المساجين غير المسلمين بأن السجين الذي معهم عربيا مسلما، تبدأ أوصالهم بالارتعاد خوفاً منه، ويبدأ خيالهم الواسع يصور لهم قوة خارقة تجعل منه بطلاً أسطورياً. فيقوم المساجين بإحترامه كل الاحترام لأنه من بلاد بن لادن، لدرجة تخجل تواضعه. ابن لادن، على عكس التوقعات، شخصية محبوبة جداً من قبل هؤلاء المساجين خاصة السود واللاتينيين منهم، لدرجة أنهم يقومون بوشم صورة وجهه على أكتافهم وظهورهم وصدورهم.

وبمجرد تعرف المساجين على شخص عربي مسلم يقومون بنزع قمصانهم فخراً للتباهي بالوشم الذي يحمل صورة ابن لادن الذي يزين أجسادهم، فترى وجهه في المنتصف وسلاح الكلاشنكوف موشوما على الأطراف. وعند دخولي إلى العنبر الجديد في سجن القرن متجها نحو السرير المخصص لي—ولكوني عربياً ومسلماً—قام بعض السجناء بحمل أغراضي بالنيابة عني، كما قام آخرون بتنظيف السرير المعدني من الغبار والقاذورات لكي أضع فراشي عليه. وحتى عندما بدأت بترتيب فراشي أصر أحدهم على ترتيبه لي. وبعد الانتهاء من ترتيب أغراضي جلست بينهم، وبدأت الأسئلة تنهال علي:

– هل تعرف بن لادن شخصيا؟

فأجبت لاعبا الدور طبعا:

– لا ولكنه صديق ابن عمي من أيام حرب الروس.

ثم سأل أحدهم مبتسما وبدأت عينيه بالإتساع من نشوة الشعور بالإعجاب والانبهار:

– حقا!!!

فأجبت بكل هدوء:

– نعم.

فراح الجميع يتجمهر من حولي وكل منهم يحمل فضولا لسؤالي عن أبو قعقاع وكأنه ممثل هوليوود: "وما هي وجبته المفضلة؟"، "وهل يحب لعب الكرة؟"، "وهل هو مليونير فعلا؟"، "وهل سيتغلب على أمريكا؟"...الخ. وبعد الكثير من الأسئلة، اقترب مني أحدهم متحدثا معي بصورة شخصية وبصوت منخفض قائلاً:

- سوف يُطلق سراحي بعد شهور، وعندي استعداد للتفجير، فقط أريد المساعدة من أحد اصدقائك، للانضمام إلى القاعدة والانتقام من الحكومة الأمريكية.

فسألته ضاحكا ومقهقها بصوت عال:

- هل أنت عميل من الـ اف بي آي، أم من الـ سي آي اية؟

فضحك وضحك الجميع لردة فعلي هذه، فأجابني بحرقة:

- اسمع! لقد سجنتني هذه البلدة عشرون عاما ظلما وعدوانا، فضاع كل شئ وانهدم بيتي و مات كل من أبي وأمي على حسرتي، ولم يسمحوا لي حتى بحضور جنازتهما.

فراح مضيقًا بعد أن باتت الذكريات تؤلمه وتتجدد في ذهنه من جديد مما عكر من مزاجه:

- أنا عندي استعداد لتفجيرهم، فقط أطلب العون.

كان هناك الكثير من المساجين ممن يشعر بأعماقه بالظلم ويرغب بشدة بالانضمام إلى القاعدة أو الطالبان أو حتى الاثنان معا. ومنهم من يريد مني تعليمه فنون القتال!!!!! فقد سألني أحدهم عما إن كنت أتقن صنع القنابل والمتفجرات فكانت إجابتي:

- نعم القليل.

فراح أحدهم يقول لي معظما:

- ياللتواضع.

لقد ظن هؤلاء بما أنني عربي، فلابد أني بارع في فنون القتال، وحرب الشوارع وصناعة المتفجرات. لا أخفيكم لقد سررت جدا من انطباعاتهم المسبقة غير الصحيحة فتعمدت عدم تصحيحها، ورحت أسرد لهم مغامرات وهمية وعمليات قتالية بطولية ضد الجيش الأمريكي في أفغانستان والعراق. فذكرت لهم تفاصيل من نسج الخيال، فأسرت بقصصي عن ساحات المعركة وشجاعة الطالبان وأهل الفلوجة كل حواس النزلاء في ذلك العنبر، وجعلتهم يلتزمون الصمت لساعات متخيلين المشاهد ثلاثية الأبعاد. وربما التخيل بأنهم يشاركونني البطولات في تلك المعارك. فقال أحدهم مؤكدا على صحة ماسردت:

- إن ما يقوله صحيح. فعندما كنت في حرب فيتنام رأيت أمورا مشابه.

ثم راح يتحدث عن الآثار الموجودة على وجهي وخاصة خدي الأيمن، معتقدا أنها نتيجة استعمال الجيش الأمريكي لقنابل النابالم الحارقه (وهي قنابل محرمة دوليا استخدمتها أمريكا في حربها في فيتنام) مما جعل لكلامي مصداقية كبيرة غير مدركين أن الآثار التي على وجهي ما هي إلا حفر ما بعد حب الشباب التي كنت أعبث بها وأفرقعها يوميا عندما كنت صغيراً. واستكملت الدور قائلا:

- هذا صحيح. هذه آثار قنابل النابالم الحارقة.

وماذا كنت لتفعل لو كنت مكاني في منتصف هؤلاء المجرمين والسفاحين، الذين اعتادوا احترام من يفوقهم قوة، والتسلط على من يشعرون بضعفه وانكساره؟ وهم الآن يتوقعون مني تعليمهم فنون القتال، والإرتقاء لمستوى الإنطباع المسبق عني. كنت أمام خيارين أحدهما هو أن أقول الحقيقة المرة وهي أنني لم أصنع شيئا في حياتي أبدا لا قنبلة ولا غيره! وأن الشئ الوحيد الذي أتفنن في ضربه هو العود! وأنني عندما كنت صغيراً تعلمت عزف الكمنجه والأورج والبيانو وليس الكارتيه والجودو والتيكاندو. وأن آخر معركة قد شاركت فيها في حياتي كانت في المرحلة المتوسطة عندما سرق أحدهم مقلمتي المدرسية. والخيار الآخر هو أن ألعب الدور وأسايرهم فيما يظنون؟ وبطبيعة الحال، اخترت لعب دور القوة أم عساك تريدني أن أقول الحقيقة لسفاحي أمريكا؟!

وبينما هم يبدون آرائهم عن العرب وبن لادن ومنهمكين في ما أعرفه من فنون القتال وحرب الشوارع تذكرت ذلك المسلسل السوري القديم "بهلول"، وبطله هو بهلول الجبان ذو الشعر الأسود الطويل والكثيف، الجبان الذي يخاف من ظله، والذي هاجر من قريته هرباً من الوصف الذي كان يطلق عليه دائما "الخواف". وفي الطريق ظهر له أسدا فقام بهلول بالصعود على الشجرة هارباً منه، فراح الأسد ينتظره في الأسفل للانقضاض عليه. فانكسر غصن الشجرة الذي يجلس عليه بهلول، فوقع بهلول على الأسد صدفة فقتله، وعندما رأى بعض المارة القادمين من القرية المجاورة بهلول واقفاً وبجانبه الأسد الميت صاح أحدهم قائلا: "بهلول ذبح الأسد! بهلول ذبح الأسد". أخذ الرجال بهلول إلى القرية وقاموا بتعيينه قائدا لجيشهم، ليعلم أبناءهم الشجاعة وفنون القتال وما إلى ذلك، وما كان ليفعل بهلول حينها؟ لم يكن بوسعه أن يقول لهم؟

ألف أمة وأمة

وبعد عدة أيام من دخولي إلى سجن القرن، طلبت من قسيس الكنيسة وضع اسمي في لائحة المساجين الراغبين بحضور صلاة الجمعة، حيث تسمح معظم سجون الولاية للمسلمين بممارسة طقوسهم الدينية، والصلاة في يوم الجمعة في القاعة الخلفية للكنيسة التابعة للسجن، كما تسمح لهم يوم الأربعاء بتقديم دروس دينية تحت اسم "التعليم".

إن الدين الإسلامي هو أسرع الأديان انتشارا في سجون أمريكا عموما، وسجون ولاية فلوريدا خصوصا، على الرغم من كره بعض السجانة له. وفقا لأحدث الدراسات، 80% من هؤلاء الذين يغيرون دينهم في السجون الأمريكية يختارون الإسلام. وكيف لا ينتشر وقد وعد الله سبحانه تعالى بذلك في سورة التوبة الآية 33 بقوله:

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ

ففي كل سجن من سجون ولاية فلوريدا، هناك مجموعة لابأس بها من المسلمين الذين يطلقون على أنفسهم لقب "الأمة" باللغة العربية، وهي ليست "أمة" بمعناها المعروف في معجم اللغة العربية، بل يمكننا القول بأنها "mini أمة"، حيث أن عدد أفراد المنتسبين للأمة الواحدة في السجون، لا يزيد عن الخمسين شخصاً، ويعتبر السود هم الاغلبية ولكن هناك بعض المساجين من اللاتينيين والبيض في تلك الأمة.

وتعد "الأمة" تنظيما منظما له قوانينه الخاصة. فعلى سبيل المثال, تقوم كل أمة في هذه السجون باختيار إمامها عن طريق التصويت والانتخابات الحرة النزيهة. فيكون إماما طوال فترة إقامته في السجن، ولا يبطل توليه الإمامة إلا بنقله الى سجن آخر، أو تحرره من السجن نهائيا أو بالطبع انتقاله إلى الرفيق الأعلى. ويجب على باقي المسلمين في ذلك السجن "مبايعة" هذا "الإمام" على السمع والطاعة، وبدوره يقوم الإمام بتعيين "الأمير". فلكل عنبر أمير ليهتم بشئون هؤلاء المسلمين في ذلك العنبر.

بالإضافة إلى ذلك، يقوم الإمام بتعيين كل من وزير المال (هو الشخص المسئول عن جمع الزكاة والصدقات)، ووزير الحرب (المسئول عن عقد الهدنة أو شن الحرب على العصابات المتواجدة في السجون أمثال النازيين الجدد والملوك اللاتينيين والحواريين السود ...إلخ)، والشريف (وهو الذي يقوم بالتحري وجمع الأدلة والتحقيق وانزال العقاب أيضا في حال قيام أحد المسلمين بخرق قوانين الشريعة الإسلامية كلعب الميسر وشرب الخمرة المحلية وغيرها)، ومدير المكتبة (وهو الشخص الذي يعتني بالكتب الإسلامية وعملية الاستعارة)...الخ.

وفي كل سجن من سجون أمريكا هناك "أمة" إسلامية كهذه. وهذا يجعل عدد الأمم الإسلامية بالمئات في سجون ولاية فلوريدا والآلاف منها في عامة أمريكا. إعلم بأن 99.99% من أعضاء هذه الأمم ينتمون للمذهب السني؛ وبين الحين والآخر تجد من يقول بأنه ينتمي

للمذهب الشيعي من منطلق إعجابه الشخصي بحزب الله اللبناني، ولكنه يصلي كما يصلي السنة من الألف إلى الياء. وأما بالنسبة لهؤلاء المساجين السنة، فإن أكثرهم يتبعون السلف الصالح، ولكن هناك قلة قليلة تتبع المذهب الحنفي فيأخذون أمور دينهم من منظمة إسلامية في جنوب أفريقيا يطلق عليها اسم "مجلس العلماء". ويعاني هؤلاء من قلة الكتب والمراجع الدينية مما يجعل من عملية الإلمام بالدين عملية صعبة أو ناقصة نوعا ما.

على أي حال، أقدم أخيرا يوم الجمعة ووضع اسمي في لائحة الحضور من قبل القسيس، فحضرت أخيرا. لكن وحتى قبل حضوري للصلاة شاع صيتي بين المسلمين في سجن القرن بأكمله في جميع العنابر. فدخلت القاعة وإذا بالابتسامات ترتسم على وجوه المسلمين، وبدأ الجميع بالسلام علي وتحيتي والترحيب بي بحرارة، حتى شعرت بخجل شديد من كم المشاعر الفياضة التي غمروني بها. وبعد السلام قال لي أحدهم أنه سوف يأخذني إلى "الإمام" للتعرف عليه و"مبايعته". فذهبت معه إلى أحد زوايا المكان وإذا برجل أسود نحيف وطويل جدا يجلس على الكرسي، وكأنه نسخة نيجاتف لأسامه بن لادن طبق الأصل. وقام بالترحيب بي قائلا: "السلام عليكم أكي!"

"أكي" تعني "أخي" ولكن يصعب على الأمريكيون نطق حرف الخاء. ثم قام بتقديم نفسه، "معك الإمام علي". الإمام علي؟ طالبا "البيعة"؟ يا له من أمر يثير الاستغراب؟ هل أنا في سجون أمريكا أم أن آلة الزمن أخذتني إلى الوراء ألف عام؟ وكما الحال مع المساجين الآخرين فـ "علي" هو إسمه بعد الدخول إلى الإسلام. أما اسمه الحقيقي فهو روبرت. أحمد لله أنه لم يطلب مني "مبايعته"، فماذا عساني أن أقول له، لوطلب مني ذلك لما استطعت مبايعته فقد بايعت آل الصباح الكرام، وحب الأسرة الحاكمة في الكويت يسري في عروقي وسقتني إياه أمي باللبن، وإلى أن ألف بالخرقة البيضاء، كفن وزارة البلدية (أم الأوقاف؟) سأدين بالولاء لهم.

قام الإمام بتعريفي بالوظيفة التي اختارها لي في هذه الأمة وهي تعليم اللغة العربية، لغة القرآن للمساجين المسلمين. وبالطبع قبلت الوظيفة فأصبحت مدرس للغة العربية الرسمي للأمة (رغم جهلي الشديد بقواعد النحو والصرف، و"البدليات" التي ليس لها أول ولا آخر). أقوم في صباح كل يوم أربعاء بتقديم دروس في اللغة العربية في القاعة المخصصة للمسلمين في خلف الكنيسة. ولكن في يوم من الأيام حدث ما لم يكن في الحسبان!

(56)

نيشن أُف إسلام

من الأشياء الغريبة التي أذهلتني في سجون أمريكا هي وجود فرقة ضالة تدعي الإسلام وتطلق على جماعتها إسم "نيشن أف إسلام" وهي عبارة إنجليزية تعني "أمة الإسلام". فمن هم هؤلاء الحمقى؟ في الأربعينيات من القرن العشرين هاجر شخص لبناني الأصل يدعى محمد فريد إلى أمريكا، وهو مسلم يدين بالمذهب السني، فراح واستقر في أحد حواري السود الفقيرة، وفتح محلا تجاريا صغيرا في أحد الحارات وبدأ بالعمل. وبينما كان يبيع ويشتري كان يحدث السود الفقراء عن الإسلام، وقد كان على دراية تامة بتاريخ العبودية في أمريكا وما يعانيه السود من اضطهاد وتفرقة عنصرية وتمييز من الحكومة والشعب الأبيض؛ وكان دائما يحاول الرفع من معنويات هؤلاء السود الفقراء بعبارات مثل "كنتم أهل تاريخ وعظماء" و "كنتم مسلمين" و"كنتم شعبا حرا" و " كنتم ملوكا وأمراء" و "كنتم مؤمنون تعبدون الله" و "إن عدتم إلى الإسلام، فسوف يجعل الله لكم مخرجا"... الخ.

فقام بعض أولاد الحارة السود بإعتناق الدين الإسلامي على يد هذا الداعية التاجر، وقد كانت عباراته مؤثرة بشكل كبير على أحد الأولاد وكان يدعى "إلايجا بوول". وبعد دخول إلايجا بوول في الإسلام، قام بتغيير اسمه إلى "إلايجا محمد"، وراح يتعلم الدين الإسلامي بشكل مكثف من محمد فريد، ولكن بعد فترة من الزمن اختفى محمد فريد، تاركا "إلايجا محمد" ولا شئ معه سوى القرآن.

وتحت ظل ظروف التفرقة العنصرية الممارسة من العرق الأبيض تجاه السود، وندرة الكتب الإسلامية حينها، بدأ "إلايجا محمد" بقراءة القرآن (باللغة الإنجليزية) بالطبع وراح يؤوله تأويلا لا يسمح به الإسلام. ومع الوقت بدأت ترهات "إلايجا محمد" بالظهور علناً. فقام باصدار جريدة أسبوعية وأطلق عليها إسم "محمد يتحدث". فبدأ الرجال والنساء السود بالاعجاب به وبدينه الجديد، وذلك تحت ضغوطات العنصرية بالطبع. ولكن ماهو دينه وكيف كانت عقيدته؟

أطلق على أتباعه لقب الجماعة الإسلامية. ولكن عقيدته كانت غريبة وبعيدة كل البعد عن الإسلام: فـ "الإله أسود"، و "النبي أسود"، و "أنا (إلايجا محمد) رسول الله"، و "سوف أظهر قرآنا جديدا"، و "ليس هناك جنة ولا نار"... الخ. وما هي أركان الايمان عند أخينا؟ "الإنسان الأول الأصلي كان أسود"، و"الإنسان الأبيض مخلوقا في المختبرات"، و"الرجل الأبيض هو الشيطان ذو العيون الزرقاء"... وما إلى آخر هذه الترهات والهرطقة. وما هي أركان الاسلام؟ لاشيء! لا صلاة ولا زكاة ولا حج، يقومون بالصوم في شهر ديسمبر من كل سنة لكي لا يتبعه حر الصيف... وهكذا.

وفي الستينيات من القرن العشرين، وبعد تضخم هذه الجماعة الضالة والمضلة، بدأ الأمريكيون عموما السماع عن الإسلام عن طريق هؤلاء الضالين، ولم يكن ذلك بالشئ الإيجابي للإسلام. فمن يريد الانضمام إلى ذلك النوع من الإسلام سوى الأسود المضطهد الغاضب على

العالم بأسره؟ ولكن الشئ الإيجابي الوحيد الذي قام به "إلايجا محمد" قبل موته هو ارسال إبنه "محمد والي" إلى جامعة الأزهر في مصر لتلقي التعاليم الإسلامية الصحيحة "على الطريقة المصرية على الأقل". وبعد رجوعه قام والده بتعيينه ولي العهد على تلك الجماعة. وبعد موت "إلايجا محمد" في عام 1975، استلم ابنه محمد والي مقاليد الحكم، وأول ما قام به هو الاتصال بصديقه آنذاك محمد علي كلاي (الملاكم الأسود)، فقال له:

– محمد، أنت تعلم أن أبي كان ضالاً؟

فأجاب محمد على كلاي:

– نعم هذا صحيح. وماتنوي فعله الآن؟

– سوف أغير إسم هذه الجماعة من "نيشن أف اسلام" إلى "مسلمي شمال أمريكا" لتضم جميع المسلمين البيض والسود والعرب والباكستانيين... الخ، فالعنصرية والتحيز لسلالة معينة أو عرق معين ليس من الإسلام في شيء.

إن تلك الجماعة الجديدة كانت بدايتها في 1975 ، إلا أنه لم يرضى جميع أعضاء تلك الجماعة السابقة عن فعلة الإبن، فراحت الجماعة بالتفكك إلى مجموعات أصغر. فقام رجل يدعى "لويس فرخان"، وهو طالب من طلبة "إلايجا محمد" في الجماعة السابقة بتأسيس جماعته الخاصة به وأطلق عليها إسم "نيشن أوف إسلام" (أي استخدم الإسم القديم نفسه الذي تخلى عنه والي محمد إبن "إلايجا محمد" منذ عدة سنوات). فراح لويس فرخان (وإلى هذا اليوم) باستعمال نفس تلك الترهات التي كان "إلايجا محمد" يستعملها: "الرب أسود"، و "النبي أسود"، و"إلايجا محمد" هو رسول الله" ... وما إلى ذلك من الهرطقات.

هذه قصة هؤلاء المسلمين السود العنصريون، ومازال هناك في سجون أمريكا القليل منهم. وهم في صراع دائم مع السجناء البيض ولا يحضرون صلاة الجمعة، ولا يشاركون في أعياد المسلمين. ولكن في ظل انتشار الكتب الإسلامية الصحيحة في السجن، بدا أغلب هؤلاء المساجين بالتحول شيئا فشيئا إلى مذهب أهل السنة.

مسلمين الخمسة بالمئة

هناك فرقة أخرى تدعى الإسلام وتطلق على جماعتها "مسلمي الخمسة بالمئة". بعد موت الزعيم "إلايجا محمد" واستلام ابنه "محمد والي" وتغيير إسم "نيشن أف اسلام" واستبداله بإسم "مسلمي شمال أمريكا"، ذهب أتباع "إلايجا محمد" كل في حال سبيله، وذلك لعدم رضاهم عما فعله الابن، وأخذ كل منهم بتأسيس الجماعة الخاصة به. فقام أحدهم بتأسيس جماعة وأطلق عليها إسم "ياهو بن ياهو" وقام الآخر بتأسيس جماعة أخرى وأطلق عليها إسم "النمور السوداء"، وقام ثالث بتأسيس جماعة عُرفت بمسلمي " الـ 5% ". فمن هم هؤلاء؟

كان مؤسس الجماعة وإسمه "كلارنس" من فقراء سود أمريكا في نيويورك. وبعد دخوله في الاسلام على طريقة "إلايجا محمد"، أصبح مع الوقت مدرسا في إحدى معابد النيشن (نيشن تعني الأمة). فما هي هرطقات هذه الجماعة الـ 5% ؟

أولا: يطلقون على أنفسهم لقب 5 % لأن البشر كما يزعمون مقسمون إلى ثلاثة أقسام: 10 % وهم أولئك الظالمون والطغاه الذين يستغلون البشر؛ 85 % وهم أولئك البشر المستغلون من قبل الطغاه؛ و 5 % وهم أعضاء تلك الفرقة وهم الذين يعلمون ماذا يجري من ظلم ويحاولون تحذير الـ 85 % من شر الـ 10%.

ثانيا: تخلى مؤسس هذه الجماعة عن إسمه الشرعي القانوني، إسم الولادة، واستبدله رسميا لدى المحاكم الأمريكية بإسم آخر وهو "الله" (ALLAH). وكما فعل مقنع العراق منذ ألف سنة، قام هذا الأخرق الأمريكي بالادعاء بأنه الرب والآله، والعياذ بالله. فراح يمشي في الحارات الفقيرة في نيويورك باحثا عن مؤمنين وفعلا، حصل هذا المعتوه على معتوهين آخرين آمنوا به وبقدراته "الإلهية".

ثالثا: لا يزعم هذا المعتوه فقط بأنه الإله بل زعم بذلك أيضا المتردية والنطيحة وما أكل السبع من أتباعه. فهم جميعا يزعمون أنهم آلهة. وأخذ يأول دلالات أحرف إسم الله بالإنجليزية، وأدعى بأن كل حرف من حروف إسم ALLAH يمثل جزء من أعضاء جسم الإنسان فعلى سبيل المثال:

الذراع ARM = A

الرجل LEG = L

الرجل LEG = L

الذراع ARM = A

الرأس HEAD = H

وهذا هو الدليل بأننا جميعا آلهة. ويالحماقة ذلك المعتوه!

رابعا: يدعي هذا السخيف بأن هناك معنى ضمني وأكثر أهمية مما يدل عليه في المصطلحات الإنجليزية لا يعرفها سواه. على سبيل المثال كلمات مثل:

Justice = JUST US

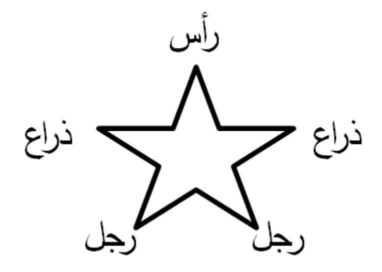
HISTORY = HIS STORY

USA = U (YOU) S.A. (SOUTH AFRICA)

FREEDOM= FREE DOME= free your mind

خامسا: ليس هناك جنة أو نار، وليس هناك بعث ولا حساب وعقاب، وليس هناك إله خارج هذا العالم، فإن الرجل الأسود هو الإله فلا تنظر في مكان آخر باحثا عنه، فإن قمت للصلاة فصلي لنفسك لأنك أنت الإله.

سادسا: أما بالنسبة إلى شعارهم فهو الهلال والنجمة الخماسية وكل ضلع من تلك النجمة وكل نقطة فيها تمثل الإنسان ذاته:



وهو الرب الإله، وهو بتلك الحروف بكلمة "الله" بالانجليزية.

والطريف في الموضوع أنه في يوم من الأيام، بينما يقوم مؤسس تلك الجماعة "كلارنس الإله" بزيارة إحدى عاهرات الحارات السود للدعارة، انقض عليه بعضاً من اللصوص فقاموا بطعنه حتى الموت وسرقوا كل مافي جيبه. فها هو ذلك الرب المزيف، "الإله في صورة إنسان" لم يستطع حتى الدفاع عن نفسه. وعلى الرغم من حماقة ذلك المعتوه إلا أنه لازال له أتباع. ولكن حمدا لله ليسوا بالكثيرين وخاصة في سجون أمريكا. وقد ذاع صيت صاحبنا المعتوه عن طريق أغاني "الراب" خاصة في أوائل التسعينيات علي أيدي هؤلاء المنتمين لتلك الجماعة الضاله أمثال المغني الأسود المشهور "جي زي" والآخر "ناز".

وفي يوم من أيام الأربعاء في سجن القرن، وبينما كنت أقوم بتدريس اللغة العربية للمسلمين السنّة في قاعة الكنيسة الخلفية، اشترك أحد هؤلاء المعتوهين في تلك الحصة، وقام بالتحدث عن نفسه وبأنه من الـ 5 %، وبأنه الرب وبأنه الإله وبأن لديه العلم الحقيقي لأمور الدنيا وما إلى ذلك، فأجبته بعبارة واحدة:

– إحمد الله واشكره أنك في أمريكا؛ فلو كنت في الكويت لوضعناك في مستشفى المجانين منذ زمن بعيد.

ولكن الحق يقال، إن أغلبية مسلمي الخمسة بالمئه ينتهون باعتناق الإسلام الصحيح والعقيدة الصحيحة والبدء في الصلاة والصيام خاصة عندما يقومون بقراءة كتب العقيدة الصحيحة، فجزى الله خيراً كل المساهمين.

أمير المؤمنين

كان عدد المسلمين الذين يواظبون على حضور صلاة الجمعة ومادة "اللغة العربية" في سجن القرن مايقارب الخمسون شخص. ولكن عدد المسجلين في سجلات السجون كمسلم كان يفوق ذلك الرقم بكثير: ما يقارب المئتين سجين. منهم من ترك دينه نتيجة لضغوطات أهله عليه. ومنهم من توقف عن الصلاة خوفا من تعرض السجانة له وخاصة بعد أحداث 11/9/2001 ، وما نتج عنه من تأزم في حال المسلمين في أمريكا عموما، وسجونها بالأخص. ولذلك لم يكن عدد المسلمين في صلاة الجمعة أو حتى في حصة التعليم كبيراً.

بالاضافة إلى ذلك، تقوم سلطات السجون عموما بنقل بعض المساجين من سجن إلى آخر وفقا لطلبات المساجين أنفسهم أحيانا. فإن كنت على "حسن السير والسلوك" لمدة عام واحدا، بامكانك طلب النقل إلى سجن آخر أفضل أو أقرب لأهلك ليسهل عليهم زيارتك في خلال عطلة نهاية الأسبوع . وهذا فعلا ما قد حصل مع صاحبنا "الإمام علي". فبعد بضعة شهور من وصولي إلى سجن القرن انتقل الإمام إلى سجن آخر فأصبح كرسي "الإمامة" شاغرا ". فقام الشريف بدعوة جميع مسلمي سجن القرن لاجتماع طارئ لتحديد مستقبل الأمة ومن سيخلف "الإمام علي" في إدارة شئون هذه الأمة المباركة. يعني بالمصري: "إللي مالوش كبير، يشتري له كبير".

فكان موعدنا بعد صلاة الجمعة . وبعد أن خطب وصلى بنا أبو بكر، ذلك "الشريف" الأسود (من مواليد ميامي ويرجع أصله إلى دولة هيتي)، بدأ الاجتماع بعد حمد الله والصلاة على الرسول، وكان عددنا خمسون شخصا حينها. وبدأ الكلام على النحو التالي:

– أما بعد... انتقل الإمام علي إلى سجن آخر فأسألكم الدعاء له لأن يوفقه الله. أما الآن فيجب على هذه الأمة اختيار إماما جديدا لها.

حينها، كان يجلس بجانبي رجل عربي من المغرب واسمه فهيم إبراهيم قد قدم لهذا السجن حديثا. فراح يداعبني هامسا في أذني قائلا:

– ما رأيك؟ هل تود أن تصبح خليفة المسلمين؟

ثم أضاف أبو بكر أنه بما أننا مسلمون لن نفعل كما يفعل الغرب وهو ترشيح أنفسنا، بل يجب على المسلمين اختيار من هو أهل للأمانة، ذاكراً كلام الله قائلا:

" إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا " (سورة النساء: 58)

ثم قام الشريف أبو بكر ومعه وزير الحرب ووزير المال ومدير المكتبة بالاجتماع لاختيار ثلاثة أسماء من المساجين المتواجدين في القاعة ووضع تلك الأسماء على لوحة السبورة لكي يبدأ كل مسلم باختيار "الإمام" عن طريق كتابة اسمه على قصاصة من الورق ثم وضعها في

داخل طاقية مقلوبة. لقد كان إسمي أحد تلك الأسماء الثلاثة المكتوبة على تلك اللوحة. على الرغم من أني لم آخذ الموضوع بجدية في بادئ الأمر إلا أنني بدأت بالتوتر والقلق للحصول على أكثر عدد من الأصوات. لقد بلغت القلوب الحناجر! حقا كان الله في عون مرشحي البرلمان، فهم يعانون كثيراً في انتظار اللحظة الحاسمة.

وبعد انتهاء التصويت قام الشريف أبو بكر ووزير المالية بفرز الأصوات و بدأ العد، وإذ بقصاصة تلو الأخرى مكتوبا عليها "ياسر". بينما يقوم الشريف بقراءة القصاصة يقوم وزير المالية بوضع خطاً عموديا تحت إسمي: " ياسر"... "وهذا "ياسر"... " ياسر أيضاً" ... وهكذا. فبدأ فهيم إبراهيم بالصراخ باللغة العربية مكررا "اكتساح! اكتساح!" ثم أمسك أعصابه ونظر إلي وقال بصوت هادئ:

- لا تفرح كثيرا، الفوز بالجنة!

بدا بارداً مستخفاً غير مدركا بأن قلبي بدأ يخفق بسرعة 300 كليو مترا بالساعة.

وبالنهاية فعلا، لقد اختارني سبع وأربعون شخصا من هؤلاء الخمسين لأكون عليهم "إماما" راجين الله أن أعمل بما أنزل الله. فقام الشريف أبوبكر بابلاغي بما يجب علي فعله الآن، فلقد كنت تائها كالأطرش بالزفة. وكيف لي أن أعرف ما هي مهامي وما المطلوب مني بالضبط؟ فكم مرة يرشح أحدنا ليصبح إماما؟ قال أبو بكر موجها:

- قم وقف هنا.

ففعلت. ثم قام المسلمون "بمبايعتي" على السمع و الطاعة. ولأول مرة في حياتي أحسست بأني شخص مهم على الرغم من تذكري لقول مدرس اللغة العربية عندما كنت في المهد صبيا، " ياغبي لن تفلح في حياتك أبدا".ولكن أنا الآن واقفا، وأمامي طابور من الرجال يتقدم كل منهم نحوي يصافحني بيده اليمنى ويضع يده اليسرى على كتفي قائلاً: " أبايعك... أعطيتك بيعتي... بايعتك..." ولكن والله لم أعرف الرد وما علي قوله لهؤلاء الرجال الذين قد بدت عليهم الجدية فكنت أرد بعبارات مثل: "شكرا" ... و"سررت بلقائك"... و"أحسنت".

ثم قال لي أبوبكر الشريف أنه حان وقت إلقائي كلمة بهذه المناسبة العطرة. فماذا عساي أن أقول؟ فتذكرت كلمة عادل إمام في فيلم طيور الظلام فقلتها؟

- سوف أبني لكم جامعا.

وبدأت بالضحك على المقولة بشكل عفوي فحاولت إخفاء ضحكتي ولكنني لم أستطع. ولكنهم لم يستوعبوا ماهو حاصل، فقمت بتغيير الموضوع بسبب عدم فهمهم للدعابة، وقلت وبوجه الـ poker face:

- لقد قبلت مبايعتكم وأسال الله العون.

ثم توقفت عن الكلام مرة أخرى بينما هم ينظرون إلي يتوقعون مني المزيد، عاجزا عن إيجاد الكلمات المناسبة التي تقال في مثل تلك المناسبات. فتذكرت شعار الحملة الإنتخابية لخالد العدوة في التسعينات. فقلت العبارة المكتوبة على ذلك الشعار:

- وإن أردت إلا الاصلاح ما أستطعت.

فراح أحد السجناء يصرخ مكررا: "تكبير!"... "تكبير!"... "تكبير!" بينما يرد زعقا الآخرون! "الله اكبر!"... "الله اكبر!"... "الله اكبر!".

وأخذ فهيم ابراهيم التحدث معي باللغة العربية الفصحى لمعرفته بجهلي باللهجة المغربية، فقال:

- وماهو شعورك الآن يا أمير المؤمنين؟

فأجبته:

- كفاك لعباً واستهزاء.

ولكنه أصر على قوله ومازال يداعبني:

- أليسوا مؤمنين؟

- نعم.

- ألست أنت أميرهم؟

- نعم.

-إذن أنت أمير المؤمنين.

فرحنا نضحك ضحكا على ما آلت إليه الأمور لهذا الحد!

يافرحة ماتمت

وفي اليوم التالي قال لي "الشريف" أبوبكر أنه يجب علي اختيار رجلين من المسلمين الموجودين في العنبر وتعيينهم حراسا لي (بودي غارد) فضحكت مما قال في بادئ الأمر. ولكنه لم يضحك أو يبتسم أبدا، فقد كان جادا في طلبه.

دعوني أعرفكم بأبي بكر. إسم أبو بكر الحقيقي هو "بيسكين" وهو من مواليد ميامي، إلا أن أصوله ترجع لدولة هيتي وهي أفقر دول العالم وأخطرها أيضا. فبعد الحصول على استقلالها في 1804 من الاحتلال الفرنسي، حل عليها غضب الفرنسيين والأمريكيين البيض. فكيف لهؤلاء السود "الزنوج"، كما يطلق عليهم في الدول الغربية، أن يطردوا أسيادهم الفرنسيين البيض ويعلنوا استقلالهم ويستردوا حكمهم؟ ياللوقاحة! ومنذ ذلك الحين قام الفرنسيون والأمريكيون بوضع حصار اقتصادي على دولة هيتي الواقعة في بحر الكاريبي، واستطاعوا من خلاله تدمير اقتصادها ولكن لم يستطيعوا تدمير إرادة أهلها.

ومع الزمن، قام العديد من سكان هيتي بالتسلل إلى أمريكا عن طريق البحر، ومن ثم إلى فلوريدا والتي تعد أقرب نقطة لهم. شيئا فشيئا ازداد عدد المتسللين لدرجة أنه تم تسمية منطقة كاملة في داخل ميامي باسم "هيتي الصغيرة". وعلى الرغم من أن أغلبية أهل هيتي أناس طيبون يبحثون عن لقمة العيش الحلال، إلا أن هناك الكثير ممن توجه إلى عالم الإجرام. وهذا بالفعل ما حدث مع "بيسكين" (أبوبكر)، فهو سفاح وقتال قتله منذ أن كان صغيراً. وقد حكم عليه بالسجن المؤبد عندما كان في سن السادسة عشر من العمر. وبينما هو في السجن تعرف على مساجين مسلمين وتدريجيا أعجبه الإسلام فاعتزل العصابة التي كان ينتمي لها واسمها "المافيا الهيتية" (ZMF) واعتنق الإسلام، ولكن مازالت شخصيتة تميل للعنف والشدة، ما يطلق عليه السوريون "الأبضاي" أو مايطلق عليه المصريون بـ "الفتوة". لذلك تم تعيينه بمهنة الشريف من قبل الإمام السابق.

وبعد نقاش طويل بيني وبين أبوبكر، واصرار شديد منه عليّ لقبول تعيين حراسة شخصية لي، ففعلت. لأنني في عالم السجون وهو مكان غير آمن بالطبع، وبصفته الشريف يجب تأمين حمايتي بكل ثمن؛ بالإضافة إلى ذلك، عاجلا أم آجلا سوف يعرف كل العصابات في السجن من هو الإمام الجديد للمسلمين، لذلك يجب توخي الحذر والاستعداد لذلك. وفعلا قمت باختيار أضخم رجلين مسلمين في العنبر أحدها يشبه "مايك تايسون" والآخر "اينفاندر هوليفيلد"، الملاكمين الأمريكيين الشهيرين. فراح الإثنان يرافقونني أينما ذهبت، من بداية فتح أبواب الزنزانة للخروج صباحا وحتى إغلاقها في تمام الساعة الحادية عشرة مساءً، حيث ترى هذان الرجلان يرافقاني في الأروقة، وفي الكنيسة، وفي ساحات الملاعب، وحتى أثناء استعمالي للحمام: تراهما يقفان خارج الحمام ويراقبان تحركات المارة تحسبا لأي طارئ. لقد أصبحت حياتي مثيرة للغاية في تلك الفترة، فأينما أذهب يذهبان معي، ينفذان تعليماتي دون أدنى نقاش؛ وأينما أتوجه يقومان بافساح

الطريق لي بين أروقة السجون، وعند جلوسي مع أحد زعماء العصابات الموجودة في السجن، تراهم يقفان عن اليمين وعن الشمال يحرساني.

فزاد احترام كل من في السجن لي وأصبح الكل يهابني، فبإشارة من إصبعي تنفذ الأوامر مما جعلني أشعر بالثقة بالنفس لدرجة أنني أصبحت أمشي على شاكلة رؤساء الدول وألوح بيدي للسجناء ببطء كما يفعلوا؛ كنت أتصرف بهذه الطريقة لا إراديا وأحدث نفسي قائلا، "تعالي يامه شوفي ابنك بهلول بيعمل إيه".

وللسلطة نشوتها وبريقها الخاص الذي لا نستطيع تجاهله أو انكاره. فأصبحت أعقد اجتماعات طارئة كل يوم أو يومين، وقمت بطرد وعزل بعض الوزراء والأمراء المحسوبين على الإمام السابق. ولم أعلم سبب قيامي بذلك، ولكن أليس هذا مايفعله كل زعيم عند توليه السلطة؟ وقمت بتعيين فهيم ابراهيم المغربي المسجون بقضية اختلاس وزيرا للمالية! وقمت بتعيين سجين كل مؤهلاته أنه يجيد القراءة والكتابة مديرا للمكتبة، على طريقة ما يحصل في بلادنا العربية: الرجل غير المناسب في المكان غير المناسب. وبدأت أتخبط في قراراتي، هل تراني كنت أدرك الغاية مما أفعل، أم أني أفعل أولا ثم أختلق لي غاية وهدف نبيل لأفعالي؟ باختصار كنت أعمل ما أعمله لحكمة لا يعلمها سوى بعض الحكام العرب. وأخيرا فطنت للهدف الوحيد من وراء كل ذلك: " الدمااااار الشاااااامل!!!!!"

لقد انتهى الأمر بفهيم ابراهيم بخسارة كل أموال المسلمين على طاولة القمار في عنبره. أما أمين المكتبة الجديد، فانتهى به المطاف ببيع بعض الكتب الاسلامية ذات الصفحات الملساء لاستعمالها من بعض متعاطي المخدرات من المساجين للف الحشيش. فقلت كفى لابد لي أن أنقذ ما يمكن إنقاذه. فأمرت بعقد اجتماع طارئ مع كبار الأمة طالباً من القدماء بقبول وظائفهم السابقة "لمصلحة البلد".

وآخيرا، وصلت شهرتي إلى الضابط المسئول عن كشف رجال العصابات وعملياتهم، والذي يعتبر الشخص المسؤول عن جمع المعلومات عن العصابات سواء عن طريق المراقبة أو عن طريق "الجرذي" (rat) وتعني الواشي، وهو لقب يطلقه المساجين على المساجين المتعاونين مع السجانة، وهم الذين يعملون لصالح الشرطة، عن طريق نقل المعلومات المتعلقة برجال العصابات، بشكل مفصل من حيث المكانة في العصابة، والوظيفة، والعمليات التي قام بها داخل أسوار السجن.

وما دخل المسلمين بهذا كله؟ للأسف يعامل السجانة الأمريكيون السجناء المسلمين وكأنهم أفراد عصابة والسبب هو عملهم المنظم، واجتماعاتهم المستمرة، ووظائفهم وأهدافهم التي تفسر من قبل السجانه على أنها عصابية وليست عقائدية صرفة. فعلى سبيل المثال، عند دعوة المسلمين لغير المسلمين للدخول في الإسلام يعتبر السجانة ذلك "تجنيد" وليس دعوة في سبيل الله... وهكذا.

إذن وصلت المعلومة لضابط العصابات بأن هذا العربي المسلم الجديد (إبن عم بن لادن) هو الزعيم الجديد للمسلمين. وبعد زمن ليس ببعيد، وبينما كنا في ساحة الملاعب نستعد للعب كرة السلة، ظهر ضابط العصابات ومعه مجموعة من الحرس ومعهم تلك الأساور الفضية اللامعة من بعيد والغازات المسيلة للدموع. وصاح الضابط مناديا:

- السجين ياسر البحري...

ولكني لم أجب وكأني أصبحت أخرسا، فقال أبو بكر نيابة عني:

- وماذا تريد ياسيد سمينز؟

- ليس شأنك.

ثم اقترب السجانة نحوي وقاموا بالالتفاف من حولي ووضعوا الأساور الفضية على معصمي فقال الضابط:

- أنت ذاهب للحبس الإنفرادي تحت ذمة التحقيق.

- لماذا؟

- تجنيد الآخرين في السجن لعمل أعمال تخريبية في الخارج مستقبلا.

فقامت أوصالي ترتعد، فرحت محدثا نفسي، "يافرحة ماتمت!"

(60)

الإنفرادي: كلاكيت ثاني مرة!

لقد كان السجن الانفرادي بسجن القرن مختلفا قليلا عن سجن الاستقبال بواشنطن، فلم يقم السجانة بتعريتي قبل نقلي إلى الانفرادي، كما أنه لم يكن "إنفراديا" بالمعنى الصحيح للكلمة، والسبب هو وجود شريك في الزنزانة. وهذا بحد ذاته يخفف من وحشة المكان، وخصوصا إذا كان الشريك ليس مختلا عقليا أو شاذاً! فتراه يسليك بقصصه ومغامراته، وأنت أيضا تسليه بحكاياتك وذكرياتك، وكلاكما أحيانا يضطر للكذب لتمضية الوقت لإضفاء أجواء من المتعة في هذا المكان اللعين.

بالإضافة إلى ذلك، هنا يُسمح لك بحوزة الأقلام والأوراق للكتابة والتسلية كما يسمح لك باستعمال جهاز المذياع لسماع الأخبار وما يجري في العالم من حولنا، مما يجعلنا ننسى أننا في مكان أشبه بقفص الدواجن والطيور لصغر حجمه. كما يسمح لك بالخروج من زنزانتك ثلاثة مرات في الأسبوع للاستحمام مع الإبقاء على القيود. وفي ذلك مغامرة أخرى، فهل سبق لك أن قمت بالاستحمام بينما أنت مقيد؟ لا أظن ذلك.

وبما أني قضيت ما يقارب الشهرين الكاملين في تلك الزنزانة الإنفرادية، فقد دخل وخرج منها العديد من السجناء من شتى الأنواع، كالأسود، والمكسيكي، والأبيض وحتى الكمبودي. وفي إحدى المرات شاركني الزنزانة شخص أبيض أطلق على نفسه لقب "بيونسيه" وكان يعاني من اضطراب في الهوية الجنسية. وعلى ما يبدو أنه لم يكن كذلك عندما كان حرا طليقا قبل دخول السجن، فقد كان محاميا وأبا لولدين وزوجاً مثاليا. وفي إحدى الليالي بينما كان يقوم بقيادة سيارته ثملاً عائداً من إحدى الحانات، اصطدم بسيارة أخرى وفيها عائلة مكونة من ثلاثة أشخاص فماتوا جميعا. وبعد أن قامت عائلته بدفع الأموال الطائلة للمحامين، انتهى به المطاف بالسجن خمسة عشر عاما بتهمة القتل الخطأ، وحينئذ كان يبلغ السابع والعشرون من العمر. فأدخل المحامي الأبيض الناعم إلى غابة الذئاب، فراح الذئاب باستغلاله واغتصابه داخل أسوار السجن، واعتاد مع مرور الأيام على ذلك، حتى أنه انتهى "بالزواج" بصديقه الأسود الضخم، والعياذ بالله.

في صباح كل يوم من أيام الانفرادي، وبينما أنا مختبئ تحت البطانية، يستيقظ "بيونسيه" ويبدأ روتينه اليومي بتفريش أسنانه واستعمال الحمام. وبعد الانتهاء يقوم بوضع المكياج على وجهه، وهو عبارة عن مكياج محلي مصنوع من حبات شوكولاته الـM&M الملونة، والتي كانت تهرب له إلى داخل الزنزانة بشكل مستمر. يقوم بتصفيف حبات الـM&M على كتاب قد وضعه في حضنه. فيقوم بإذابة الألوان والأصباغ التي تحيط بالشوكولاته من الخارج بوضع قطرة من الماء على كل حبة منها على حده، ثم يضع أحد أصابعه على كل منها مستخرجا اللون المطلوب، فالأزرق لتظليل الجفون، والوردي للخدود والأحمر للشفاه، وهكذا. وبعد أن ينتهى من التلوين يقوم بأكل الشوكولاته وأحيانا يقوم بتقديم بعضها إلي. يا للكرم!

- لا، شكرا.

فإليك بالصورة الكاملة للمنظر. بما أنه لا يوجد تكييف في الزنزانة والحرارة عالية جدا والرطوبة في أعلى مستوى لها، يسيح المكياج على وجه بيونسيه ثم تقوم الذبابات بالاجتماع محاولة الهبوط على وجهه بينما يقوم صاحبنا بالتلويح بيديه محاولا تنفير الذباب. ياله من منظر. فيتحول منظر صاحبنا من "بيونسيه" إلى "بيومي".

وبعد خروج بيونسيه من الحبس الإنفرادي أخيرا، ولله الحمد والمنة، أدخل رجل في الأربعين من العمر، اسمه "بوشو" وهو مكسيكي الأصل، ويُعد من زعماء العصابة اللاتينية التي تدعى "إم أس-13". صعد بوشو سلالم الهرم عن طريق سجلاته الإجرامية وانجازاته في السجون إلى أن أصبح زعيم تلك العصابة على مستوى شمال ولاية فلوريدا. وترجع أصول أفراد هذه العصابة إلى أمريكا اللاتينية الوسطى (دول مثل هندوراس، والسلفادور، ونيكاراغوا، وبنما، وكوستاريكا... الخ). وبدأت هذه العصابة بالزحف نحو المكسيك، ومنها إلى الولايات المتحدة، وبخاصة الولايات الجنوبية لأمريكا مثل تكساس، وفلوريدا، وأريزونا. وهي عصابة عنيفة جدا لدرجة أنها جعلت جميع العصابات اللاتينية تخضع لها كعصابة "الملوك اللاتينية" وعصابة الـ "نيتا".

ووفقا لإحدى الدراسات الأمريكية، فلدى هذه العصابة مايقارب من الـ 70 ألف عضو في جميع الدول اللاتينية الوسطى، أي أكبر ثلاثة مرات من عدد أفراد الجيش الكويتي بأكمله. وما يعرفك بهم هو الوشم المرسوم على خلفية الرأس تحت الشعر وهو رقم " 13 "؛ فإن قام أحدهم بحلق شعره تماما سيتسنى رؤية الشعار رؤيا الشمس. ها هو زعيمها على مستوى شمال ولاية فلوريدا يشاركني غرفة الحبس الانفرادي بسجن القرن.

في بادئ الأمر، ظن بوشو بأني لاتيني أيضا (فيتشابه العرب واللاتينيين كثيرا) فبدأ بالتحدث معي باللغة الإسبانية (اللغة الدارجة في أمريكا اللاتينيية). فقمت بالرد عليه أيضا بالإسبانية (فقد تعلمتها من اللاتينيين الآخرين) ولكنه علم وبسرعة بأني لست واحدا منهم والسبب هو لكنتي بالطبع، حيث كنت أتحدث الإسبانية وكأني بنغالي يحاول التحدث باللهجة الكويتية. والغريب في الموضوع أنه عندما عرف بأني عربي مسلم، فرح فرحاً شديداً، وراح يكشف لي عن رجله اليمنى، واذا بوشم لصورة أسامة بن لادن عليها. قال لي أنه من شدة حبهم لابن لادن كانوا يطبعون صورته على كل عبوات الكوكايين الذي يتاجرون بها وكأنه شعار علامة الجودة.

وبعد حديثنا اليومي في الزنزانة عن السياسة والحروب الأمريكية في العراق وأفغانستان والقاعدة وابن لادن وصدام حسين وعن الإسلام أيضا، أبدى بوشو اهتمامه بالدين الاسلامي ولكنه قال مازحاً:

- لا أستطيع اعتناق الإسلام لأني أحب أكل لحم الخنزير.

فضحكنا، فقلت له لربما يوما ما سوف يصبح مسلما، فقال:

- هناك شرط واحد: وهو أن أنضم إلى الطالبان وأقاتل الأمريكيين.

فضحكنا من جديد ولكنه كان شخصا ودودا ومتواضعا للغاية، فإن لم أكن على دراية مسبقة بأنه زعيم الـ إم أس-13 لما صدقت ذلك أبدا. وفي إحدى الليالي، قام السجانة بأخذ بوشو إلى مبنى المحاكم في المنطقة المجاورة لمواجة تهمة "القتل العمد" وذلك بسبب طعنه سجينا آخرا خمسة عشر طعنة في أنحاء متفرقة من جسده.

كما أدخل معي في الانفرادي العديد من المساجين من فئة "المتردية والنطيحة وما أكل السبع"، فمنهم من يفز من نومه ليلا ويبدأ بالصراخ والهذيان بسبب إصابته بمرض حرب الخليج (PSTD) ظناً منه أنه مايزال في الفلوجة. ومنهم من يعاني من فصام وهلاوس بصرية فيكلم نفسه ويحاورها وكأنه يحدث شخصا آخر! ومنهم من يأكل أظافر أصابع يديه وقدميه حتى ينزف دما، وهكذا.

وأخيرا جاء دوري لمقابلة المحقق للتحقيق بتهمة "تجنيد المسجونين لعمل عمليات إرهابية في خارج السجن". أُدخلت إلى مكتبه مقيدا، ولكنه لم يكن عبوساً بل كان على عكس ذلك بشوشاً جدا ومرحباً، فلم يبدو أنه يصدق تلك الإدعاءات ضدي، فقال لي:

- قل لي بصراحة! هل قمت بتجنيد المساجين لعمل عمليات إرهابية في الخارج؟

فقلت له:

- وهل ستطلق سراحي إن قلت الحقيقة؟

- نعم.

- سيدي، وكيف أقوم بتجنيد المحكومين بالسجن المؤبد لعمل أعمال تخريبية بالخارج، وهم لن يروا الخارج أبدا ما داموا أحياء ؟!؟!؟!

فعلا، هناك أعداد كبيرة من 1000 إلى1500 شخص مسجون في هذا السجن محكوم عليهم بالسجن مدى الحياة. فصمت قليلا، ثم أجاب مبتسماً:

- معك حق؛ كلام منطقي.

وفعلا في صباح اليوم الثاني، حضر أحد السجانة إلى باب الانفرادي وقال هاتفاً:

- ياسر البحري! خذ حاجياتك فسوف تغادر الإنفرادي اليوم.

فشكرت الله! ظهر الحق وزهق الباطل:

جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (الإسراء : 81)

حان موعد الرحيل

توجهت فرحا نحو العنبر المخصص لي بعد إطلاق سراحي من السجن الإنفرادي حاملاً على ظهري اللفة وبعض الكتب، وعند دخولي من باب العنبر الرئيسي، رآني مسلمي العنبر فبدأ الكل بالتكبير:

- "الله اكبر!"... "الله اكبر!"... "الله اكبر!"

كانوا فرحين بعودة "إمامهم" دون إدانة، فجاء أحدهم مسرعاً لحمل أغراضي، وقال أبو بكر(الشريف):

- الحمدلله الذي جاء بك إلى عنبري.

فتطوع هو ومسلم آخر بحراستي 24 ساعة يوميا رغم اصراري بأنه لا حاجة لي بذلك. وبعد أسابيع من عودتي بدأت بتعليم مسلمي العنبر أمور الدين على قدر المستطاع، وبدأت بالصلاة بالمسلمين عموما في صلاة الجمعة وقيادتهم، ثم اقترح أبوبكر أن أقوم بطلب نقلي إلى سجن آخر "سجن واكولا"، وهو "سجن مبني على أساس الدين والإيمان" وفيه مسلمون كثيرون ويحتاجون إلى أحد ليساعدهم في أمور الدين، فقلت له:

- يجب علي الانتظار لسنة كاملة تحت حسن السير والسلوك.

فأجاب:

- إلا هذا النوع من السجون سيتم نقلك إليه خلال شهرين.

هناك ثلاثة أسباب تضطرني إلى طلب النقل. أولهما هو أنه قد شاع صيتي بأنني "الزعيم" فبدأت تظهر تحرشات ومضايقات عنصرية من قبل بعض السجانة وخصوصاً عند معرفتهم بأنني عربي، فكثر التهديد بالحبس الانفرادي وحتى رفع قضاياً رسمية ضدي بتهمة تجنيد المسلمين للحرب على أمريكا. والسبب الثاني هو أن سجن واكولا يبعد 25 دقيقة فقط من تالاهاسي مقارنة بسجن القرن الذي يبعد 4 ساعات. وهذا يعني أنه يمكن لأختي وزوجها وكذلك أخي طارق من زيارتي أسبوعيا. وأماالسبب الثالث هو حاجة المسلمين هناك لمن لديه القدرة على إيصالهم بأهل الخير وتوفير الكتب الإسلامية والسجاجيد وغيرها من أمور يفتقر إليها المسلمين في ذلك السجن.

وفعلا بعد شهرين كاملين قامت السلطات بنقلي إلى سجن واكولا. ولكن ما المقصود بقولي أنه "سجن مبني علي الايمان والدين"؟ إن صاحب فكرة السجون المؤسسة على مبدأ الإيمان كان شخصا يدعى "شارلز كولسين"، وهو عضو سابق في إدارة البيت الأبيض. فعندما كان ريتشارد نيكسون رئيسا لأمريكا في أوائل السبعينات، كان كولسين عضوا فعالا في حكومتة لدرجة أنه كان

ذراعه الأيمن. وكان يطلق عليه لقب "البلطجي" لأنه كان المسئول عن الأعمال القذرة كالاستغلال والابتزاز و خاصة ضد أعداء نيكسون!

وعندما عُزل نيكسون من الرئاسة رجع كولسين إلى تكساس مسقط رأسه. وفي أوائل التسعينيات أدين شارلز كولسين باختلاس أموال الدولة والتهرب من دفع الضرائب وحكم عليه بثلاثة سنوات سجن. وفي داخل سجنه كتب كتابا إسمه "مسيحيا قد وُلد من جديد". فأصبح الكتاب الأكثر مبيعا، فراح كولسين باستخدام ريع الكتاب لإنشاء جمعية خيرية أطلق عليها اسم "صداقة المسجونين". إن هدف تلك الجمعية "الخيرية"، كما كتب كولسين في إحدى مقالاته، هو "وقف زحف الإسلام في سجون أمريكا". وبذلك تعد هذه السجون هي، كما زعم أخينا، "المصل الوحيد ضد مرض الإسلام السرطاني".

ومنذ ذلك الوقت بدأ كولسين بترويج فكرة "السجون المؤسسة على الإيمان" (وقصده المسيحي طبعا). فمن تتوقع وقع في شباك هذا البلطجي؟ جورج دبليو بوش (الإبن). فعندما كان حاكما لولاية تكساس، قام أخيه جب بوش (حاكم ولاية فلوريدا آنذاك) بتطبيقها في ولاية فلوريدا؛ فبدأت تلك الفكرة بالانتشار في معظم سجون ولايات أمريكا. وهل تعلم من هو أكبر المتبرعين بالأموال الطائلة لتلك الفكرة ولجمعية كولسين "الخيرية" ؟ إنه رجل يدعى "أريك برنس" وهو المالك الأصلي للشركة الأمنية المشهورة المسماه "بلاك واتر" (المياه السوداء)، تلك الشركة التي قام جنودها عام 2007 بإطلاق الرصاص على العراقيين المدنيين في ميدان الصقور في بغداد وقتل الكثير من الأبرياء. فعجبا لتلك العلاقة التي تجمع بين هؤلاء: شارلز كولسين، وجورج دبليو بوش، وأريك برنس.

فبعد أحداث 11/9/2001، كتب شارلز كولسين في إحدى مقالاته، "إن الأعمال الإرهابية القادمة ضد أمريكا سوف تكون على أيدي هؤلاء المسجونين المتعصبين الذين أعتنقوا الإسلام في السجون". بالإضافة إلى ذلك، يزعم أن مشروعه "السجون المؤسسة على الإيمان" هو الحل الوحيد لإيقاف المسجونين من الدخول في الدين الإسلامي عن طريق توفير كتب وبرشورات ومقالات وكتيبات تواجه الدين الإسلامي وتكشف الإسلام على حقيقته (على حد تعبيره) بأنه دين العبودية والإضطهاد وما إلى ذلك من تُرهات الغرب.

ها أنا قد حط جناحي في ذلك النوع من السجون، لا علم لي البته بمحتواه، وكأني طفل صغير يضع رجله على أحد الألغام، لاعلم له أنه سوف ينفجر ويقبره في أي لحظة "يا غافل لك الله".

الحاله كسيفه

وبعد نزولي من الحافلة والمرور بالإجراءات الروتينية المهينة والتي اعتدت عليها الآن كالتعرية ونظر السجانة في فتحة الشرج للتأكد من خلوه من أي متفجرات أو أسلحة أو مخدرات أو أي شئ مخالف لقوانين سجون ولاية فلوريدا الإصلاحية؛ وبعد إعطائي "اللفة" ورقم سريري المخصص لي في العنبر، سمحت لي الفرصة للذهاب إلى ساحة الملاعب الخلفية. وإذ بي أرى ثلاثة شبان ينظرون إلي وهم يبتسمون، فاقترب أحدهم وسألني بالعربية:

– الأخ عربي؟

فأجبت:

– نعم.

فضحك وأخذ يصرخ قائلا للآخرين:

– ألف مبروك! ألم أقل لكم أنه عربي.

ثم نظر إلي وقال أنه عرف بأنني عربي من شكلي وأنه قام بالمراهنة معهم وقد كسب الرهان. فاقترب الجميع وراح كل منهم بالتعريف بنفسه: محمد المصري من مواليد ولاية نيوجرسي، وأيوب الفلسطيني من رام الله، وعمر بنغازي من ليبيا. أما بالنسبة لقضاياهم، فبنغازي مجرد لص يحب سرقة السيارات الفاخرة على الرغم من غنى أهله في أمريكا، وهذه هي المرة الثانية له في سجون الولاية. أما أيوب الفلسطيني، فأرادت زوجته الأمريكية البيضاء التخلص منه للتكويش على البيت والسيارة والهرب مع صاحبها الأبيض، لذلك اتهمته زوراً وبهتاناً بأنه قد قام بالتحرش بابنتها الصغيرة جنسياً، وتم الحكم عليه بـ 25 سنة سجن.

أما محمد المصري فقضيته تختلف قليلا عن الآخرين، فقد كان صغيراً في السن (25 عام) ومهندسا للاتصالات. وكأي شاب في هذا السن، قام بالتعرف على إحدى الفتيات على صفحة الانترنت، فوقع في غرامها. وبعد العلاقة الطويلة في غرفة الشات قرر زيارتها في بيتها في فلوريدا. فقالت له:

– قبل أن تقوم بالسفر لرؤيتي هناك سر أود أن أفشيه لك، أنا أبلغ السادسة عشرة من العمر وليس الثامنة عشر كما قلت لك سابقا.

فسافر محمد المصري للقائها غير عابئ بصغر سنها، وبأنها تعد قاصراً، الأمر الذي يعد غير قانوني. وعند دخوله إلى بيتها وجد الشرطة في انتظاره. والغريب في الموضوع أنه لم تكن هناك أصلا فتاة على الخط الآخر من المحادثة. وأن الموضوع منذ البداية كان كمينا من رجال الشرطة للإيقاع به. وبعد محاكم وجلسات وأموال طائلة أنفقها والديه لانقاذه من هذا المأزق، تمت إدانته

وحكم عليه بخمس سنوات سجن بتهمة "محاولة معاشرة بنت قاصر". ولا حول ولا قوة إلا بالله. صدق أولا تصدق إن أكثر العرب المسجونين في سجون أمريكا لهم تهم شبيهة بتهمته وتهمة كل من أيوب ومحمد المصري.

بدأت بالتحدث مع محمد المصري، قائلا:

– وما حال المسلمين هنا؟

فأجاب:

– حالة مزرية للغاية.

– ماذا تقول؟

– ليس هناك كتب للتعليم ولا سجاجيد للصلاة.

– كيف وهذا سجن مؤسس على الإيمان؟

فضحك المصري قائلا:

– نعم الإيمان المسيحي فقط.

فأخذتني العزة، فأقسمت بالله العظيم لأوفرن صناديق من الكتب الإسلامية أولها عند البوابة الرئيسية للسجن وآخرها في كافيه شيشا في تالاهاسي! ولكن يجب علي فعل ذلك دون الظهور على شاشات راداراتهم لكي لا يحصل لي ماحصل في سجن القرن. فبدأت بتقييد أسماء المساجين المسلمين في قائمة وتقديمها هاتفيا لكل من زوجتي وأختي إيمان المقيمة في الإمارات العربية المتحدة، و أختي أميرة المقيمة في تالاهاسي، وأخي طارق في تالاهاسي أيضا، لكي يقوم كل منهم بإرسال الكتب الإسلامية المختلفة من قرآن وكتب السنة والأحاديث، وكتب السيرة باللغة الإنجليزية طبعا، وفي المقابل يقوم المذكورين بارسال الكتب المطلوبة بإسم المساجين المسلمين على شكل طرد يحتوي الواحد منهم على أربعة كتب، وهكذا.

لقد تمت العملية بنجاح باهر، وبعون الله استطعنا بناء مكتبة إسلامية في داخل الكنيسة في المكان المخصص للمسلمين، وتحتوي على المئات من الكتب الإسلامية والعشرات من السجاجيد والطواقي وحتى المسابيح ذات الكراكيش الحمراء. فاغتاظ القسيس المسئول عن الكنيسة عند رؤيته للمكتبة الإسلامية، كما اشتد حنق بعض السجانة، فراحوا يبعثون جرذانهم (جواسيسهم) لتقصي الحقائق لمعرفة الشخص المسؤول عن وجود هذا الكم الهائل من الكتب. وبعد التقصي اكتشف السجانة أنني وراء كل ذلك. ولم أستسلم لتهديداتهم، حيث قام أخي بالتبرع بما يقارب الـ 500 كتابا عن الإسلام عن طريق إرسالها في صندوق البريد الأرضي مباشرة إلى الكنيسة وكتب عليها، "تبرعات للمكتبة الإسلامية في سجن واكولا". فثار غضبهم، وقاموا أولا

بإلقاء الصندوق بكل ما فيه في حاوية المهملات، ثم قاموا بتقييد يدي بالسلاسل وسحبي إلى ضابط الخفارة. فقال لي:

- انفرادي تحت التحقيق.

فقلت:

- وماذا فعلت الآن؟

- الاشتباه في الإنتماء إلى القاعدة وتجنيد المساجين لهم.

- القاعدة؟ أي قاعدة؟ وما القاعدة؟!

فبدأت معدتي بالتقلص وبدأت الأمعاء بالإرتخاء فصرخت:

- لا للقاعدة! نعم للقعّادة (التواليت)!

الإنفرادي: كلاكيت ثالث مرة!

بينما كنت مقتادا إلى الحبس الإنفرادي، كان أخي عبدالله في طريقه من الكويت إلى أمريكا لرؤيتي، فلم يتمكن من ذلك بسبب منع الزيارة لمن هو معاقب بالحبس الإنفرادي. تكلف الرحلة من الكويت إلى أمريكا ما يقارب الثلاثة آلاف دينار، وتشمل تذاكر الطيران والإقامة، أنفقها أخي في سبيل أن يحظى بلقائي ولو لساعة واحدة. ولكنه للأسف أصبح كل شيء هباءً منثوراً، والفضل في ذلك يعود لعنصرية هؤلاء البيض في سجن واكولا. فأخذ أخي عبدالله المسألة بروح رياضية، فقام بإرسال رسالة لي تحتوي على العديد من الأوراق البيضاء والطوابع لكي أتمكن من مراسلته والتواصل معه.

وبالنسبة لي، فهذه ليست المرة الأولى التي أقضيها في الحبس الإنفرادي، وطبعاً لن تكون الأخيرة، فهي مسأله واقعية لعربي مسلم في سجون أمريكا. هل تعلم بأنه وفقاً لأحدث الإحصائيات الرسمية لدى الحكومة الفيدرالية الأمريكية لعام 2015، هناك ما يقارب الـ 100 ألف سجين في الحبس الإنفرادي في شتى أنحاء أمريكا. لعلك تتساءل عن عدد المسجونين في سجون أمريكا عموما؟ إنها حقا أرقما خيالية، حيث يبلغ عددهم المليونين ونصف المليون. ويعتبر الرقم أكبر بكثير من عدد المساجين في الصين، وروسيا الدولة البوليسية، وحتى كوبا تلك الدولة الشيوعية الإشتراكية. أما بالنسبة لعدد الأمريكيين تحت الملاحظة، سواء المحكوم عليهم بحظر التجول، أو السجن المنزلي أو تحت رقابة المجتمع، فالرقم يفوق العشرة ملايين.

إلا أن هناك ميزه لهذا السجن الإنفرادي، فهو مكيف تكييفاً مركزياً ونظيفاً نظافة رهيبة لم أرها مسبقا. حتى المراحيض والمغاسل تعمل بصورة ممتازة، فتشعر وكأنك في إنفرادي "خمس نجوم" مقارنة بالزنزانات الإنفرادية الأخرى. ولكن ثمة هناك مشكلة واحدة بسيطة في هذا المكان وهي "العنف" لدى السجانة. فتراهم لأي صغيرة أو كبيرة يقومون بإستعمال القوةِ والعنف والغازات سواء المسيلة للدموع أو الخانقة أو تلك الحارقة للجلد كرادع وعقاب، وأحياناً للتسلية والترفيه عن أنفسهم. وهذا ما حدث لي في أحد الأيام.

تخيل بأنك في غرفة إنفرادية في الطابق العلوي من السجن وهناك سجينا آخر في الغرفة المجاورة لك يقوم بإحداث الشغب كالركل برجله على الباب مسببا إزعاجا في العنبر. لا تنصدم إذا جاء السجانة مسلحين بشتى أنواع الغازات، وقاموا بفتح زنزانتك وافراغ محتوى قنينات الغاز الواحدة تلو الأخرى عليك أنت بالخطأ، عوضا عن الشخص الأصلي المحدث للشغب. ياله من حظ تعيس، أليس كذلك؟ وهذا بالضبط ما حصل لي في ثاني يوم من وصولي إلى تلك الزنزانة، ولكن ما حصل لي بعد ذلك كان أكثر من ذلك بكثير.

تخيل بأنك تستلقي على فراشك نائما بسلام وفجأة تسمع أحدهم يقوم بضرب باب زنزانتك بالخارج برجله، ويركله بشدة محدثا إزعاجا ذا صدى قوي. تراك تستيقظ من نومك محاولا معرفة ما هو حاصل، صحيح؟ فتجد أحد السجانة يقوم بركل الباب وهو منحني على الأرض، وتجد آخر

بيده كاميرا فيديو ويقوم بتصوير ركل الباب وأصوات الإزعاج والضجيج الصادر موجها كلامه للسجين قائلا:

- توقف عن ضرب الباب أيها السجين.

ولماذا الإنحناء والكاميرا؟ ينحني السجان الأول لكي لا يظهر بالتصوير، أما الكاميرا فهي لعمل حبكة درامية لإدانة السجين بتهم هو برئ منها تماما. ياللخبث! تعد الكاميرا أمرا مستحدثا في السجن الإنفرادي، ففي السابق لم تكن هناك كاميرات تصوير وكان السجانة يتفننون بتعذيب السجناء دون حسيب أو رقيب، كالضرب المبرح والرش بشتى أنواع الغازات مستغلين سلطتهم ونفوذهم. ولكن بعد رفع التظلمات والشكاوى من قبل أهالي السجناء، ألزمت السلطات السجانة بعمل إجراءات معينة في حال حدوث أي شغب. أولا عليهم تصوير الشغب، ثم تحذير السجين، ومحاولة إيقافه. أما إذا استمر الشغب فيسمح لهم بإستعمال العنف، والغازات لردعه والسيطرة على الشغب، الأمر الذي جعل السجانة يلجؤون للحيل والألاعيب، وتزييف الحقائق مذيلة بتصوير مفبرك وغير حقيقي لممارسة سلوكياتهم المريضة وعنفهم تجاه السجين.

وقد نلت من هذا السلوك الخبيث نصيب، فقام أحد السجانة في أحد المرات بحمل الكاميرا وتصوير الجزء العلوي من الباب، بينما قام آخر بالإنحناء والركل برجله أسفل الباب محدثا إزعاجا وشغبا مفتعلا. ثم قال السجان وكأنه يتحدث إلي:

- توقف يا ياسر وإلا سوف تستهل عليك العناصر الكيماوية.

نظرت إليهم من خلال النافذة الزجاجية في منتصف الباب رافعاً يدي للأعلى وقلت:

- لم أفعل شيئا.

ولكن دون جدوى. فتح الباب وقام السجانة برشي بمختلف أنواع الغازات التي يحملونها بأيديهم. ومهما حاول السجين الإختباء في زاوية الغرفة، إلا أنه لايستطيع الهرب من مصيره فهو بالنهاية محجوز في غرفة صغيرة وكأنه طير صغير في كف طفل عابث. وينتهي بالسجين المطاف منهاراً على الأرض وكأنه صرصور يحتضر! هكذا قضيت أيامي في السجن الإنفرادي في سجن واكولا.

وللعلم فقط فالغازات المستخدمة في الحبس الإنفرادي هي خليط الغاز المسيل للدموع، وغاز السعال، وغاز الرائحة الكريهة والغاز الحارق للجلد؛ وقد صممت خصيصاً لإستعمالها ضد المتظاهرين في الهواء الطلق وليس في غرفة حجمها لا يزيد عن 3×3×3 مترا . ولكنه حكم القوي والله إنه من قوة تلك الغازات يقوم السجناء الموجودين في شتى غرف الحبس الأخرى بالسعال والتضرر بسبب إستنشاقها عن طريق فتحات المكيف. ويالها من حالة.

إن الإجراءات المتبعة عادة بعد رش السجين بتلك الغازات، هي تقييد السجين وأخذه للحمام وغمر جسده بالماء البارد لكي يهدأ الهرش والحرقان. ولكن ابتدع السجانة طريقة أخرى للتعامل مع السجين لاشباع رغباتهم المريضة، وهي أن يقوموا بسكب الماء الحار على جسده الملتهب لكي يزداد جسده حرقة وتعذيباً. فتراهم يضحكون ويمرحون على صوت صراخ السجين

وتألمه. وشعّرت تحت الماء الحار بأني أموت وأحيا، فكل ذرة في جسدي تستغيث، وكل فتحة من فتحاتها أشعر بها وكأنها تتقطع بالسكاكين، وصعُب علي فتح عيناي من شدة الحرقة. أما جلدي، فشعرت به يلين ويسيح وكأني دجاجة تم طهيها في ماء مغلي. والمضحك المبكي، وجود ممرضة تلاحظ وتراقب ما يجري عن بعد، مع مراعاتها لقياس نبضات القلب وفحص الضغط للتأكد من سلامة السجين. فتسمعها تقول للسجانة بعد استخدامها السماعة الخاص بقياس ضربات القلب:

- إنه بخير.

وبخير كلمة مطاطة، تعني لمن لا يعرف المراد المقصود منها أن السجين، بكل بساطة، لا يحتضر ويمكنكم أخذه في رحلة في قطار الموت من جديد. فإن لم يكتفي السجانة عند هذا الحد من التعذيب ولم يشبع المنظر رغباتهم المريضة سيقومون بإعادة كل ما حدث من تعذيب خطوة بخطوة بعد نصف ساعة فقط من إنتهائهم من المرة الأولى.

وتنتهي الرحلة عادة بفتح الكوة التى في منتصف الباب، وإلقاء الطعام بكل إهانة على الأرض، والنظر بكل استخفاف وإذلال للسجين الذي يجلس على الأرض بانكسار محاولا التقاط أنفاسه، وكأنه عائد للتو من سباقٍ للجري، ثم يقول السجان مستهزءاً:

- هل تحب وجبتك بالفلفل الحار؟

ومعنى هذه العبارة قم بالإستعداد فها نحن قادمون خلال دقائق!

وعندما قدموا لي للمرة الثانية، قررت مواجهتهم والتصدي لهم. فأخذت جميع الشراشف والملاءات وقمت بتبليلها بماء المرحاض والسبب هو تعمدهم إيقاف الماء عن الحنفية دقائق قبل مجيئهم إلي. ثم قمت بلفها حول جسدي كالحجاج، أحدهما لجسدي والآخر لأغطي به رأسي ورقبتي ووجهي، وكأني الفارس الملثم أو أحد طوارق أفريقيا. ثم قمت بالوقوف في أحد زوايا الغرفة وبيدي الوسادة أحتمي بها وكأنها درع للحماية. فبدأت أصوات السجانة بالإقتراب شيئا فشيئا! فاشتد الوطيس وبلغت القلوب الحناجر. واقتربوا محاولين التسلل من جوانب الزنزانة، فسمعت تحذيرات المسجونين في غرف الحبس المجاورة:

- "إنتبه!"... "إنتبه!"... "هاهم خلف بابك!"... "إحذر!"...

ثم قاموا بفتح بابي. وقبل أن يرشوني بالكيماوي، سقطت الوسادة من يدي اليمين من شدة الرعشة والخوف. فابتسم السجانة لطرافة الموقف (بالنسبة لهم طبعا). ثم بدأوا باستخدام الغازات إلى أن غبت عن الدنيا، واطفأت أنوار بصري، وأصبح الليل سرمداً، وتوقف قلبي عن النبض... إنتقل ياسر البحري إلى رحمة الله تعالى عن عمر يناهز 34 عاماً.

ثم فتحت عيني، وإذا بي في مكان أبيض ناصع البياض، وكانت هناك أضواء تكاد أن تعميني من شدتها. وبعد ذهاب الزغللة من عيناي رأيت أناساً آخرين يرتدون اللباس الأبيض

كنت أدرك أنهم مجموعة من الأطباء والممرضين، أو ظننتني مت حقا؟ للأسف لم أمت على الرغم أن الموت أكرم مما أرى من هؤلاء الظالمين الطغاة. سألت أحدهم:

- أين أنا؟

فأجابني:

- أنت في المستشفى.

الطوارق

لقد إعتقدوا بأنني أحتضر، لذلك تم أخذي إلى المستشفى حيث قاموا بعمل الإجراءات الطبية اللازمة لإبقائي على قيد الحياة، كالتنفس الصناعي والجلوكوز. وبعد الإنتهاء والتأكد من أن للعمر بقية، قام السجانة بإرجاعي إلى الإنفرادي مجددا. والحمد لله مسبب الأسباب، إن عدم تمكن أهلي من لقائي جعلهم يقلقون علي، مما جعل الطوارق (طارق أخي وطارق زوج اختي) يقومان بالإتصال بالسفارة الكويتية محاولين إقناعها بالتدخل خاصة وأن التهمة الآن هي "الإشتباه في الإنتماء لمنظمة وتجنيد الأفراد لها". فهذه تهمة يعاقب عليها القانون بـ 15 سنة أخرى، وأنا في غنى عن تحمل المزيد من التهم والقضايا.

وعلى السفارة أن تتدخل الآن على الأقل، فهي لم يكن لها أي دور في قضيتي منذ بدايتها في عام 2007، على الرغم من اتصالنا واستنجادنا بها. فقد كان ردهم دائما سلبيا، كقولهم:

– لابد وأنه مذنب.

أو:

– هذه جناية ولا دخل للسفارة بها.

أو:

– هذه ليست بأول مرة ولن تكون الأخيرة لكويتي يعتقل.

فتذكرت كلمات أحد موظفي السفارة السفيه الأحمق لذوي أحد الكويتين الذي فقد بعد رحلة للبحيرة:

– وماذا تريدني أن أفعل؟ الغوص في البحيرة باحثا عنه؟

فما هو رجائي من هؤلاء الأشخاص غير المناسبين في تلك السفاره المحترمة؟ وحتى عند طلب المساعدة المالية لدفع تكاليف أتعاب المحاماه، رفضت. ولكن والله، لو يعلم "العود" عما يفعل هؤلاء الموظفين في السفاره لطردهم واحداً تلو الآخر.

وفعلا، وبقدرة قادر، إستطاع الطوارق بالتواصل مع أشخاص مهمين بالكويت للإتصال بالسفارة بواشنطن وتوصيل المعلومة لهم وأن وجب عليهم فعل شيء بخصوص هذه التهمة الجديدة. فقام "رقم واحد" في السفارة (مشكورا) بتدارك مدى فقامة الموضوع و بالإتصال بمدير السجن محاولاً الإستفسار وطالباً منه التدخل. وبينما كنت أصلي العشاء، وشرعت على الإنتهاء منها بالتسليم، رأيت وجه أحدهم، وإذا بمدير السجن شخصيا ينظر إلي من خلال النافذة الزجاجية، فقال:

– هل أنت بخير؟

- كلا... لست بخير.

- واشنطن دي. سي. قد قلبت الدنيا عليك.

وراح مضيفا ً:

- لقد إتصلت بنا السفارة طالبة التدخل وحمايتك.

- شكرا.

- لا تخف. سوف نقوم بإخراجك من هنا قريبا ً سالما.

فعلا، وبعد يومين فقط، فُتحت أبواب الزنزانة وإذا بأحد السجانة ممن تفنن في تعذيبي يقول لي باستخفاف:

- براءة! براءة!

فقلت:

- ستطلقون سراحي كليا؟ (قلتها جديا والإبتسامة تعلو وجهي!)

- كلا... أيها الأخرق! سوف نقوم بنقلك إلى سجنك القديم، سجن القرن

- لماذا؟

-لا تريد إدارة السجن وجودك هنا، وأنت تعلم لماذا.

لعله قصد إعدادي لمكتبة إسلامية في القاعة المخصصة للمسلمين خلف الكنيسة. فاقسمت بالله العظيم بأني لن أتوقف عن ذلك ما دمت حيا ولو كره المشركين! وتم نقلي من جديد إلى سجن القرن مكبل الأيدي والأقدام.

اللعب مع الكبار

وصلت أخيرا إلى سجن القرن، وبعد المرور بالروتين المعتاد، دخلت أخيراً إلى عنبر "ج" المخصص لي، وإذا بهؤلاء المسجونين المسلمين ينتظرون دخولي، فقال أبوبكر:

– لقد علمنا برجوعك فأهلاً وسهلاً .

لقد أصبح أبوبكر "الإمام" بعد أن تم نقلي إلى سجن واكولا منذ عدة شهور، لكنه الآن يريد التنازل عن "الإمامة" لي، فحاولت أن أشرح له أني في مهمة جادة لبناء مكتبة للمسلمين ولكنه قال:

– " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا " (النساء: 58).

ثم أضاف:

– أنا أحب وظيفة الشريف أكثر، فالإمامة مسئولية لا أستطيع تحملها.

فقلت:

– ولا أنا... الله يحفظك.

وبعد الإصرار، وافقت بتردد فقام السجناء المسلمين بالتكبير من جديد:

– "الله أكبر!"... "الله أكبر!"... "الله أكبر!".

فراح بعضهم يحمل أغراضي إلى سريري بينما قام أحدهم بجلب الطعام قائلاً:

– لعنهم الله! لقد أماتوك جوعاً.

فعلا، لقد فقدت 35 كيلوغراما نتيجة الحبس الإنفرادي في سجن واكولا والذي استمر الشهرين فقط. فقال أبوبكر بأنهم علموا بما حصل لي منذ وقت عن طريق أحد السجناء الذين انتقلوا من سجن واكولا إلى سجن القرن. قال أبوبكر:

– لقد قال لنا ذلك السجين أنه لم يرحمك الكفار.

فأجبت:

– لا، ولكن لا بأس إن شاء الله! (محاولا إخفاء العبرات التي كادت تخنقني).

فراح ينصحني قائلا:

– ياسر، يجب عليك تهدئة الأوضاع. نعلم أنك تحب الدعوة في سبيل الله ولكن إعلم أن الدين الإسلامي له رب يحميه.

كذلك كان لسان حال كل من يحيطون بي "الطوارق" وزوجتي المحبة أيضا. طلب مني الجميع التهدئة. وبالفعل بدأت بالتأني والتحلي بالصبر، فقمنا بتأجيل إحضار المزيد من الكتب الإسلامية، ولكنني تذكرت كلام الله:

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (الأنفال: 30)

فقبل الحادي عشر من سبتمبر من عام 2001، كانت المكتبة الإسلامية المخصصة للمسلمين—في كنائس السجون عموماً، وسجن القرن خاصة—عامرة بشتى أنواع الكتب الإسلامية والمجلدات نتيجة لتبرعات أهل الخير، وخاصة سفارة خليجية. لكن بعد أحداث الحادي عشر، قام موظفي الـ FBI بسحب جميع الكتب بزعم عرضها على قسم الرقابة في الـFBI. نعم هناك قسم للرقابة في أمريكا. وقد قام هذا القسم بالتخلص من أي كتاب إسلامي يحتوي على كلمة "جهاد"، حتى وإن كانت تلك الكلمة الواحدة تقع في مجلد من عشرة أجزاء. والنتيجة؟ أنهم قاموا بالتخلص من 99.99% من الكتب الإسلامية في سجون أمريكا والله أعلم، مستمعين إلى ما قاله شارلز كولسين بأن الإسلام يجعل السجناء السود يصابون بالتعصب والتطرف.

ومنذ ذلك الحين وحتى أن بعث الله العبد الفقير إلى الله لسجن القرن في عام2010، لم يكن هناك سوى عشرة كتب إسلاميه قد بليت أوراقها من كثرة الإستعمال، فبدى بعضها وكأنها مخطوطات من أيام الدولة العباسية. ولكن بعد إجتماعي مع "مجلس الشورى" المكون من ثلاثة سجناء آخرين، إتفقنا على التالي:

1– إدخال كتب إسلامية، كتابين في كل مرة تحت إسم سجين آخر حتى لا يتم إدانتنا. فقمت بإعطاء زوجتي قائمة بأسماء المسجونين وعناوين الكتب المطلوبة.

2– إستعمال أسماء المساجين غير المسلمين، وإرسال كتب إسلامية مباشرة لهم آملين قراءتها والهداية.

3– دفع بعض المال مع البقشيش لسجناء غير مسلمين لكي يقوم أهاليهم بإرسال كتب إسلامية لهم، ومن ثم نقوم بشرائها منهم لضمها للمكتبة.

4– دفع البقشيش إلى السجين الموظف في غرفة السجانة لتوزيع الطرود، لأخذ الكتب الإسلامية المرفوضة والمرمية في سلة المهملات، ثم جلبها إلى العنبر خلسة بعد إنتهاء عمله في غرفة السجانة.

وهكذا، شيئا فشيئاً، قمت ببناء المكتبة الخاصة بالمسلمين. وقبل أن أكمل لك الحديث، هل لك أن تخمن كم أصبح عدد الكتب في المكتبة الإسلاميه لسجن القرن؟ لقد وصل عدد الكتب —بعون الله الواحد القهار—إلى 400 كتاب إسلامي باللغة الإنجليزية والإسبانية أيضا. منها كتب في السيرة النبوية والحديث، والطهارة، والصلاة، والعقيدة، والتوحيد ...إلخ.

وبقدرة قادر إزداد عدد المهتدين إلى الدين الإسلامي بشكل عجيب لدرجة أنه في كل صلاة جمعة، هناك ما يقارب الثلاثة أو الأربعة ممن ينطقون الشهادة.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (النصر: 3)

لقد لعبنا مع الكبار وهزمناهم. لقد أخذت على عاتقي إعداد مكتبة إسلامية وقد تحقق لي ذلك بعون من الله وفضله والحمد لله رب العالمين.

(66)

" يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا "
(النصر: 2)

عندما كنت في سجن المقاطعة مواجهاً "تهم الإغتصاب"، قالت لي أختي حنان:

- أبلغت شيخا من شيوخ مكة المكرمة بحالك فقام بإعطائي دعاء ليفرج الله همك وهو على النحو التالي: إقرأ سورة يوسف يوميا ثم قل حسبي الله ونعم الوكيل ألف مرة، وإن شاء الله الفرج قريب.

وفعلا، قمت بقراءة سورة يوسف وقول الدعاء ألف مرة يوميا، لمدة 730 يوما، ولكن قدر الله وماشاء فعل. لقد "رفعت الأقلام وجفت الصحف"، فقد كتب علينا ما كتب فرضينا بالمولى ورضينا بالقدر. ولكن على الرغم من كثرة قراءتي لتلك السورة العظيمة من سور القرآن الكريم، إلا أنني كنت اقرأها دون التركيز على ما تحمله من صور وعبر ومغزى، فقط محاولا إيجاد الخلاص من تلك "الكارثة" أو ذاك "البلاء" ولم أدرك حقا معانيها حتى سنوات لاحقة، حين رجعت إلى سجن القرن، وذلك من خلال خطب الجمعة التي ألقيتها على المسلمين.

بعد أن حدث ما حدث لسيدنا يوسف عليه السلام كتآمر إخوته عليه وإلقائه في"غَيَابَتِ الْجُبِّ"، وبعد بيعه "بِثَمَنٍ بَخْسٍ"، وبعد أن "رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ"، سجن عليه السلام. والمهم هنا هو ما فعله سيدنا النبي يوسف عليه السلام وهو في السجن. هل صاح وبكى؟ هل تذمر واشتكى؟ هل انحرف وانتهى؟ هل يأس من رحمة الله؟ هل راح يفعل المنكرات؟ هل فكر بالإنتحار؟ كلا، لا هذا ولا ذاك، بل قام سيدنا يوسف عليه السلام بالتالي:

1- الصبر على ما أصابه.

2- العيش والتصرف كمسلم مطيع لربه، فقد ابتعد عن أفعال السجناء وحماقاتهم.

3- إستغلال وقته فراح يدعوا إلى الله بالموعظة الحسنة.

فعندما رآه السجناء الآخرون صبورا مهذبا ومحسنا وصالحا وكريما، بدأوا باللجوء إليه والإستعانة به. لابد وأنه كان بشوش الوجه ولم يكن عبوسا ينفر من حوله مما دعى الآخرين للإقتراب منه وطلب مساعدته. وبالتأكيد لم يعرض عنهم أو يطردهم قائلا، "اتركوني وشأني" أو"إللي فيني كافيني"؛ على العكس، على الرغم من الظروف القاسية ورغم المحن، ظل سيدنا يوسف سمحا وملبياً لطلبات المسجونين ولكن كان في نفس الوقت كاسباً الوقت لكي يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى:

" قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا " (يوسف: 37)

وبعد إكتساب الوقت وبعد أن إستدعى إنتباههم، قام بدعوتهم إلى الله عن طريق التحدث إلى عقولهم والمنطق لكي يعبدوا الله الواحد القهار الذي لا إله إلا هو.

فقلت سبحان الله! كيف لم أنتبه إلى ذلك ولقد قرأت تلك الآيات آلاف المرات؟ وقلت، "رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا"، فرحت محدثاً نفسي أنه يجب علي فعل ما فعل سيدنا يوسف عليه السلام، فعلي بالصبر، والعلم والتهذيب، والدعوة في سبيل الله.

وبما أنني "أمير المؤمنين"، أمرت بعقد اجتماع طارئ بعد الإنتهاء من حصة التعليم في يوم الأربعاء يضم جميع السجناء المسلمين. وعندما بدأ الاجتماع قمت بحمد الله وشكره ثم قرأت على السجناء القرارات التالية:

أولا: يجب على كل مسلم من كل عنبر أن يقوم بدعوى صديق له غير مسلم لحضور صلاة الجمعة لسماع كلام الله.

ثانيا: يجب على كل مسلم أن يقوم بأخذ كتيب صغير عن الإسلام من مكتبتنا الإسلامية وإهدائه إلى أي نزيل غير مسلم في عنبره.

ثالثا: يجب على كل مسلم أن يقوم بإعطائي إسم وعنوان أخ أو أخت له خارج أسوار السجن لكي نرسل لهم قرآنا وكتابا عن الإسلام مباشرة من المصدر (المكتبات الإسلامية على الإنترنت مثل مكتبة دار السلام وغيرها). وذلك لكي لا تقتصر نشاطاتنا على السجناء فقط.

ولله الحمد، فقد استجاب الجميع ومن دون تردد، حيث قام الكل—على حسب سعته— مشكوراً بتبليغ الرسالة. وبعد أسابيع قليلة، بدأت النتيجة بالظهور، حيث بدأت قاعة المسلمين بالإمتلاء، وأصبحت مكتظة بالسجناء الذين يودون معرفة المزيد عن الإسلام، مما حدا بمدير السجن للحضور شخصيا ليرى الحاصل في سجنه، وإن لم يعجبه ما قد رآى. ولكن أليس هو كلام الله

" لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ"؟ (التوبة:33)

وبدأت زوجتي بإرسال الكتب الإسلامية، ونسخ من القرآن الكريم لأهالي السجناء في خارج أسوار السجن لربما يسلم أحدهم. ولم لا؟ فوفقا للإحصائيات، "من كل ثلاثة من الأمريكيين هناك واحد يقوم بتغيير ديانته". فلم لا يكون الإسلام هو الخيار؟ قلت يوما لزوجتي العزيزة مازحا عبر الهاتف:

– ما هو شعورك وأنت الآن في قائمة الـFBI للأشخاص المراقبين؟

إنها رائعة حقا زوجتي الخدومة، وجعل الله أعمالها في ميزان حسناتها، قل آمين! ومنذ ذلك الحين؟ قام العشرات والعشرات من السجناء السود واللاتينين وحتى البيض بنطق الشهادة بالعربية أولا ثم بالإنجليزية، وأحيانا حتى بالأسبانية! ياله من منظر رائع يسر له الخاطر.

وكانت العادة هي إعطاء أسماء َعربية وإسلامية للمسلمين الجدد. وكنت أطلب منهم أن يختاروا أسماءهم التي تعجبهم بأنفسهم. فكنت أُعطي المهتدي الجديد ثلاثة أسماء ومعانيها، فيقوم بإختيار ما يشاء منها. ولكن هناك من أراد إختيار أسماء لأشخاصٍ لربما لم يكونوا بالمعتدلين. فهناك من إختار إسم " أسامة " لنفسه، وهناك من إختار أسماء مثل "القذافي" أو "مختار بن مختار" أو "الزرقاوي" أو حتى "عدي"، رغم تنبيهنا لهم عن شخصيات حاملي تلك الأسماء.

وفي يوم من الأيام، قال أبوبكر "الشريف":

- يجب على المهتدين الجدد أن يبايعوك بالإمامة!

فقلت له موبخا:

- مصدق نفسك حضرتك؟ ! فضها سيرة، الله يخليك.

- إنسى وخد البنسة وتمشى وخد المقشة.

- اتركنا من سالفة البيعة الله يخلي لك أمك.

ومن سرق ساعة مالك؟

إن قيمة النقود في سجون أمريكا عموما تختلف عن قيمتها الفعلية المتعارف عليها خارجه. وبما أنه لا يسمح للمساجين بإستعمال النقود الورقية المتداولة خارج السجن، لذا ترتفعٍ قيمتها عشرةٍ أضعاف قيمتها الحقيقية. على سبيل المثال، تساوي ورقة فئة العشرين دولارا المائة دولارا داخل السجن. لأنها ببساطة ليست متوفرة بتلك السهولة. إذن كيف يقوم السجناء بشراء حاجاتهم من غرفة الكانتين ؟ يتم ذلك عن طريق البطاقة الإلكترونية، ففي أسفل هوية السجين المصدرة له من قبل السلطات، يقع هناك "الباركود"، ذلك الخط الأسود الطويل، مما يجعل بطاقة الهويه بطاقه بنكية أيضاً، يمكن من خلالها الشراء من نافذة الكانتين. ويتمٍ خصم تلك النقود من الحساب الشخصي للسجين، فلا يحتاج أهل السجين سوى إيداع نقودا في "حسابهٍ الشخصي" عن طريق الحوالة، وذلك يخوله شراء ما يحتاجه بقيمة لا تزيد عن 100 دولارا أسبوعيا.

وبسبب قلة تواجد وتداول النقود الورقية في السجون، وزيادة الطلب عليها كقوة شرائية في السوق السوداء في داخل السجون (نعم هناك سوق سوداءٍ في السجون) ترتفع قيمة النقود الورقية. فإن كانت بحوزتك ورقة نقدية فئة العشرين دولارا ، تجد المسجونين الآخرين على استعداد لشرائها منك بـ 100 دولاراً توضع في حسابك الشخصي. أما بالنسبة إلى السوق السوداء، فهي من صنع السجانة عموما الذين لديهم الاستعداء لجلب أي شيء لك مقابل المال، بحيث يكون الدفع نقدا عادة. ولكن أحيانا يقبل السجانة بحوالة من أهالي السجين ولكن ليس مباشرة لحسابهم بل تحت أسماء مستعارة للبقاء تحت شاشات الرادارات.

وماذا يمكنك الشراء من السوق السوداء؟ كل شيء تقريبا، السجائر وهي الآن ممنوعة في سجون فلوريدا والعلبة الواحده يبلغ سعرها 100 دولارا (نعم 100 وهذا ليس بخطأ مطبعي) والحشيش والخمرة والصور الخلاعية والساعات والأساور والقلادات والخواتم! والملابس النسائية الداخلية والمكياج. كما يمكن في بعض الأحيان الدفع مقابل معاشرة السجانات النساء، فكل شيء له ثمن. فهذه أمريكا وليست مكة المكرمة!

وهنا يسمح لنا بالدخول إلى صلب الموضوع، موضوع الساعة التي غيرت مجرى كل شي في سجن القرن في العام 2010. أخٍينا مالك واسمه الحقيقي هو فيكتور جونسون وهو من جزيرة في البحر الكاريبي، كان مسلما يحب المقتنيات اللامعة البراقة، كالساعة الذهب.. والخاتم الذهب... والقلادة الذهب... إلخ. وقد دفع مالك المبالغ الطائلة للحصول عليها من السجانة، حتى ان لباسه الحكومي يختلف عن لباسنا، فلونه فاتح، وقد تم إعداده خصيصا له، ويوضع على سريره في صباح كل يوم وكأنه في فندق شيراتون الجزيرة.

وفي أحد الأيام، وبعد الإستحمام والرجوع إلى زنزانته، لم يجد مالك ساعته في المكان المخصص لها، فقد سرقها أحدهم. ولكن لا يعلم بالطبع من سرقها، فهناك شك من قبله ببعض

السجناء ولكنه بالنهاية مجرد شك ليس باليقين. فار دم مالك وغضب غضباً شديدا، ليس لفقدانه الساعة فقط، ولكن لسبب أكبر وأهم، ألا وهو ضياع هيبته وإحترامه، وهو يُعد أمر شخصي جداً في سجون أمريكا. وإن لم يفعل شيئا أو سامح أو غفر للجاني فعلته فسيكون مهدد بالسرقة من جديد، وعدم إحترام الآخرين له. بمعنى آخر هو الآن كما يقول المصريون "خرنج " يجب عليه فعل شئ ما، ولو كان ضرب أو حتى طعن الشخص الخطأ، حتى لا يُقال عنه بأنه "ضعيف الشخصية". ولكن صاحبنا مالك لم يعرف ما يجب عليه عمله، وبما أنه مسلم ومحسوب على المسلمين، وجب عليه أخذ مشورة المسلمين أولا ومن ثم إتخاذ القرار.

وبما أني أنا "الإمام" و "الزعيم" يجب علي إيجاد حلا وإتخاذ القرار المناسب. عادة في مثل تلك الظروف أعمد إلى إحالة الموضوع إلى "الشريف" لكي يقوم بالتحقيق والتحري وجمع المعلومات، ثم عرضها على "مجلس الشورى"، ثم عرضها على الوزراء، ثم إعادتها إلى "الشريف" للتحقق من جديد، وهي حيلة تعلمتها من بعض الحكام العرب، أدخلهم في دوامة روتينية قاتلة، حتى يقدم الموضوع وتنسى القضية برمتها، والناس تمل من الموضوع. ولكن هذه الطريقة لم تنجح في حالة أخينا مالك وساعته الذهبية تلك، ساعة الهنود الصفراء. وبما أنه صاحب الشأن، وهي بالنهاية مسألة كرامة بالدرجة الأولى، راح هو بالتحري والسؤال وحتى عرض "المكافأة" لمن يدله على الفاعل. وأيضا تحذير الآخرين لعدم شرائها، فهي ساعة "عليها دم" أي مسروقة منه وسوف يقطع يد من يلبسها. فأمرت بإحضار مالك لي، فحضر. فقلت له:

- مابك يا مالك؟

- سرقت ساعتي الثمينة، ويجب فعل شيء ما حتى لا تتكرر الحادثة من جديد. تعلم يا إمام، نحن في سجون أمريكا ولسنا في بلادنا. إن لم نفعل شيئا، سوف يقضى علينا وينتهي بنا الأمر فنكون مثار سخرية واستهزاء الجميع .

كان منطق مالك سليما، وحجته الفلسفية عميقه لا يمكن دحضها. فها هو قد وضعني في مفترق الطرق. فماذا تفعل إن كنت مكاني، أنت "حامي الديار"؟ أتقول "المسامح كريم"، أم المواجهة والعراك وربما الموت في المعركة؟ فهذه معركة في سجون أمريكا وليست في "هدة" مدرسة عبدالرحمن الدعيج المتوسطة بنين، خاصة وأن المشتبه به من أفراد "عصابة الملوك اللاتينية".

العصابات

هناك العديد من العصابات في سجون ولاية فلوريدا، وأمريكا عموماً، بعضها على المستوى المحلي والبعض الآخر على المستوى العالمي. فعلى المستوى المحلي، هناك عصابات السود مثل عصابة الدماء، وعصابة الشوكة، والحواريون، والحواريون السود، والكربت، وأبناء يهوه، والنيشن. أما على المستوى العالمي فهناك العصابات اللاتينية مثل الملوك اللاتينية، والنيتا، و إم أس-13. وهناك العصابات العالمية مثل النازيين الجدد، والأمة الآرية. وهناك العصابات العالمية أصحاب الدراجات النارية مثل ملائكة جهنم (أولئك الرجال السمينين ذوي اللحى الطويلة والوشوم الكثيفة). صدق أو لا تصدق، كل تلك العصابات متواجدة في سجون أمريكا بالعشرات والمئات في كل سجن.

ولكل عصابة منها زعيمها العالمي وزعيمها المحلي على مستوى الولاية وعلى مستوى المدينة، وهكذا. بالإضافة إلى ذلك، لكل عصابة قوانينها وقواعدها وأيضا حقوقها وواجباتها، وعقاب وحساب، ومحفزاتها أيضا. وأيضا، لكل عصابة إجتماعاتها وندواتها لإتخاذ القرارات لشن الحروب أو الإغتيالات أو حتى عقوبة أحد أفرادها أو التدخل لحل المشاكل بين أفرادها. في حالة الحروب مثلا، يبدأ أفراد العصابات بالحفر في ساحات الملاعب لإستخراج سكاكينهم المخبأه مسبقا لذلك اليوم. أما في حالة الإغتيال، فتقوم العصابة بإرسال أحد أفرادها لطعنٍ الشخصٍ حتى الموت بينما هو نائمً أو في الحمام أو وقت الإستحمام. أما في حالة تلقين أحداً ما درسا ليكون معه طوال العمر فلا ينساه، تبعث العصابة أحد أفرادها ليقوم بـ "تشريط" (تشخيط) وجهه. فلابد أنك تتسأل وما هي تلك العملية؟

إن "تشريط الوجه" هي عملية يقوم بها أحد أفراد العصابة بالإيعاز من زعيم العصابة، يتم من خلالها إستعمال موس حاد كأمواس الحلاقين لعمل خط عميقا في وجه الضحية بينما هو نائم أو في خلال الإستحمام، أو بينما هو واقف في طابور الطعام أو الكانتين، أو حتى بينما هو في الكنيسة للتعبد. فبينما الضحية في حال سبيله يقف في الطابور، يأتي أحد أفراد العصابة من غير "إحم ولا دستور" فيقترب من خلف الضحية ويقوم بضرب وجهه بذلك الموس الحاد. ولن يدرك الضحية ما قد جرى، ولن يشعر بشي إطلاقا سوى بحرارة فجائية تلهبه في وجهه لا يعلم سببها أو مصدرها. ولن يدرك بأن أحدهم قد قام بضربه بالموس إلا بعد أن تتخضب ثيابه فجأة بالدماء. ولكن يكون وقتها الأوان قد فات؛ فقد اختفى الجاني بسرعة البرق بين الجمهور.

أما بالنسبة لردة فعل السجانة حيال اعتداءات السجناء على بعضهم البعض، فهي بطيئة جداً وتشبه إلى حد كبير ردة فعل سيارات الإسعاف التابعة لبعض المستشفيات الحكومية في دولة الكويت. فبعد أن يفقد السجين ثلاثة أرباع دمه، ويصبح في حالة يرثى لها، يقوم السجانة بالنظر إليه نظرة باردة تخلو من أي شعور أو أدنى إحساس وكأنه نجس، بينما هو مستلقي في بحيرة من الدماء.

وهل تعلم أن هناك أنواع مختلفة لذلك الـ "التشريط" ؟

1- التشريط النصف الدائري: وتعني بأن شخصاً من عصابة ما قد اعتدى على شخصا آخر من عصابة أخرى.

2- التشريط العمودي: وتعني أن العصابة التي ينتمي إليها السجين نفسه قامت بعقابه لرفضه إطاعة الأوامر وعصيانها في أمر ما.

3- التشريط قرب الفم: وتعني بأن الضحية كان خائنا يوصل المعلومات للسجانين.

4- التشريط العرضي: وتعني أنه قد تم وضع علامة الإغتيال عليه.

وتعتبر عصابة الملوك اللاتينية من أشد العصابات عنفاً وإجراما في سجون أمريكا، وترجع أصولها إلى دول قارة أمريكا اللاتينية الجنوبية مثل فنزويلا، وكوبا، وكولومبيا، والإكوادور، وبيرو، والأرجنتين... إلخ. ولكنها نشأت وترعرعت في الولايات المتحدة ولها يد بأمور كثيرة مثل الدعارة، والمخدرات، ناهيك عن الإغتيالات وحتى التفجيرات. فإن أردت ترتيبها بين العصابات في أمريكا عموما وفقاً لإجرامها وعدد أفرادها، فهي تحتل المركز الرابع بعد عصابة الدماء، وعصابة الكربت، وعصابه الـ إم أس-13. ولكنها على الرغم من أنها عادة في هدنة مع "عصابة الدماء"، أقوى العصابات الأمريكية السوداء، إلا أنهما يكرهان بعضهما بعضا كره اليهود والفلسطينين.

إن علاقة المسلمين بعصابة الملوك اللاتينية، هي طيبة من بداياتها، ولكن بعد أن بدأ الكثير من أفراد عصابة الدماء بإعتناق الإسلام في سجون أمريكا بشكل ملحوظ، بدأت العلاقة بين الملوك اللاتينية والمسلمين بالتوتر نوعا ما. ولكن أنا. "إمام الأمة الإسلامية" وزعيمها، كانت علاقتي بزعيم الملوك اللاتينية طيبة للغاية.

ولكن لماذا بدأ أفراد عصابة الدماء الشريرة بإعتناق الإسلام؟ إن السبب الأول الرئيسي هو دخول "جيف فوت" و "تي روس"، الزعيم العالمي لعصابة الدماء ونائبه، في الإسلام حديثا مما دعى أفراد العصابة الآخرين للدخول بالإسلام. في الواقع، بعد دخول الزعيم ونائبه الإسلام، بدآ بتأسيس جماعة إسلامية في داخل تلك العصابة وأطلقا عليها إسم "الراكعين". ومنذ ذلك الحين بدأ العديد من أفراد العصابة (وحتى العصابات الأخرى خاصة السود) بالدخول في الإسلام.

أما السبب الثاني فهو تأثير الإعلام الأمريكي على الأمريكيين عموما والذي يظهر المسلمين وكأنهم وحوش ومجرمون وغير متحضرين، وكأنهم مجموعة من قتاليين القتلة والإرهابيين. لقد أراد الإعلام الأمريكي أن ينفر الأمريكيين من الإسلام فراح يركز على سلبيات المسلمين، فلا ترى في إعلامهم سوى مشاهد لقتلى وجرحى وقنابل وتفجير وطالبان والقاعدة، وبوكو حرام، والشباب الصومالي، وداعش، والحقاني، وأبوسياف، والشيشان...الخ. ولكن ما حصل كان عكس التوقعات. ولم لا وكلام الله:

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (الأنفال: 30)

فعوضاً عن إبتعاد الأمريكيون عن الإسلام، بدأوا بالإقتراب منه ودراسته والإعجاب به. فوفقاً لإحصائيات الحكومة الفيدرالية لتعداد السكان وأجناسهم وأعراقهم ودياناتهم لعام 2014، فإن الإسلام هو أسرع الديانات إنتشاراً في الولايات المتحدة على الرغم من الدعايات السلبية ضده. وكيف لا ؟ وكلمة الله هي العليا؟

إن صور ومشاهد المسلمين ذوي اللحى بملابس المغاوير وعلى أكتافهم أسلحة الكلاشنكوف وعلى صدورهم أحزمة طِلقات الرصاص قد أثارت الحماسة لدى الكثير من السجناء عموما، فأراد البعض أن يكون جزءاً من تلك الجماعات، لذلك أحيانا تسمع هنا وهناك بعضا من السجناء السود ممن يود تشكيل ما يطلق عليه بـ "القاعدة السوداء" أو " الدواعش السود"، وهكذا. على أي حال، يُقال أن من سرق ساعة مالك هو أحد أفراد عصابة الملوك اللاتينية.

(69)

الساعة مقابل السلام

سأل الشريف أبوبكر:

– ماذا ستفعل؟

فأجبته:

– سهلة بإذن الله. سأطلب إجتماعاً بـ "الزنجي"، لكي أحل الموضوع بالنقاش فلا أريد حرباً مع اللاتينيين.

"الزنجي" هو رئيس عصابة الملوك اللاتينية على مستوى ولاية فلوريدا وأصله من كوبا، وهو صديق مقرب لي حيث تعرفت عليه خلال مباريات كرة القدم في أحد السجون. بالإضافة إلى ذلك، إن الزنجي (كما يطلق عليه لسمار لونه)، هو أصلا مسلم بالخفاء. وهو أمر لا يعلمه إلا القليل جدا من أتباعه.

حط الزنجي على أرض فلوريدا حافي القدمين عندما كان في الخامسة عشر من العمر. عندما كان في كوبا، قرر هو وصديقه الهجرة إلى ميامي للعيش كعيشة آل باتشينو في فيلم "سكار فيس" والذي قام أحمد زكي بإستنساخه في فيلم "الكابوريا". فركب هو وصاحبه على قوارب البحر المطاطية الدائرية الشكل وبدءا بالتجديف بقدميهما متجهين ليلاً إلى فلوريدا، التى تبعد حوالي 130 كيلو متر تقريبا، فوصلا بعد أن تحولت بطات أرجلهما إلى بالونات من شدة إنتفاخهما بسبب التجديف الرجلي.

وعوضا عن العيش في فيلم من أفلام هوليود مثل "سكارفيس" أو "العراب"، راح الزنجي ينتقل من سجن إلى آخر في فلوريدا. من سجن الأحداث إلى سجن البالغين وهكذا. وفي السجن تدرج الزنجي في سلم القيادة والزعامة عن طريق ضرب هذا وطعن ذاك وتشريط وجه هذا وقتل ذاك. وبينما كان مشاركا لزنزانته مع أحد المسلمين، بدأ الزنجي بتعلم الدين وثم إعتناقه، فأصبح مسلما على الأقل لفترة من الزمن. ولكن قامت أفراد عصابته بتهديده إما أن يبقى ملكا لاتينيا أو يتم تشريط وجهه هو الآخر. فاختار الملكية على الإسلام. ولكن ظاهريا فقط فلقد قال لي في إحدى المرات بأن قلبه "مطمئن بالإسلام"، وأنه لن يموت دون النطق بالشهادتين.

على أي حال، قمت بإرسال مرسالي لطلب رؤيته والإجتماع معه، ولكن، وللأسف، جاءت الأخبار بأنه قد تم نقله إلى السجن الإنفرادي بالأمس. فإجتمعت بذراعه الأيمن ويطلق عليه "ديابلو" (أي الشيطان بالأسبانية)، وهو شخص سيء الطباع. قمت بالشرح له بأن الساعة تعود لأحد المسلمين وأننا نريد حلا سلميا للموضوع، ولكنه رفض التجاوب والحل السلمي قائلا:

– ما دليلك على تورط أحد أفراد عصابتي بالموضوع ؟

– لقد رآه أحد المسلمين يخرج من غرفة مالك بينما كان مالك في الإستحمام.

ولكن الشيطان أصر بأن ذلك ليس بدليلا كافيا ً، وبأنه يجب التأكد قبل التجني والادعاء على أحد أفراد عصابته "المحترمه". وبعد محاولات عديدة فاشلة نظر إلي بنظرة مفاداها:

– إنت مالكش حاجة عندي! وأعلى ما بخيلك إركبه!

فرجعت إلى أبوبكر خائبا ً، فقال لي أبوبكر أنه يجب علينا تلقين هؤلاء درسا ً لن ينسوه أبدا ما داموا أحياء. الآن، تريد الأمة الإسلامية الدخول بحرب من الممكن أن يُطعن بها الكثير، ويُقتل بها الكثير ويُشرط وجه الكثير، ومن أجل ماذا؟ من أجل ساعة صفراء باهته اللون لا يزيد سعرها عن خمسة دنانير عند بسطة الهنود؟! ولكن، قد أصرت الأمة الإسلامية بأنها مسألة كرامة ورادع للغير

– فإن لم نفعل شيئا ستكون سمعتنا سيئة في السجن.

وبينما نحن نتناقش الموضوع بجدية في ساحه الملاعب، ظهر مالك ومعه الخبر اليقين قائلا:

– أحد الملوك اللاتينيه يحاول بيع الساعة لسجين ما في أحد العنابر!

فصاح أبوبكر:

– وماذا تريد أكثر من ذلك ياشيخ؟

فقلت محدثا نفسي:

– ويحك يا البحري! لقد طلع الموضوع وزاد عن حده، فها هم هؤلاء الحمقى يدفعونك للموت لأجل تلك الساعة الصفراء التافهة!

هذا هو بهلول في ساعة العرض. فماذا تعتقد أنه سيفعل؟

(70)

هوشه! هوشه! هوشه!

لقد تم قذفي بين المطرقة والسندان، فلم يكن لدي أي خيار آخر سوى إعلان الجهاد على الملوك اللاتينية، كما فعل محمد مرسي (رحمه اللة) على أثيوبيا بسبب السد على نهر النيل، مُرغم أخاك لا بطل. فإن لم أعلن الجهاد، لربما تقوم الأمة بعزلي وخلعي، أو حتى تشخيط وجهي، والعياذ بالله. بالنهاية، ها أنا هنا وسط هؤلاء القتالين قتله والسفاحين وليس بين ربع "ناصر بوطاقيه" أو ربع "علي ترف" أو "عيال عداس" بعد الهدّه.

فقمت بجمع المسلمين والقيت عليهم خطبة عصماء. وبعد الحمد والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذكرت للمسلين الآية 39 من سورة الحج:

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ

وآية أخرى من القرآن:

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ (الأنفال: 60)

وهنا ضجت أصوات المسلمين بالزعيق:

- "الله أكبر!"... "الله أكبر!"... "الله أكبر!"...

وكأنهم يقولون لي:

- أخيرا! وما بغى صاحبنا!

ولكن والله لقد كدت أن أجهش بالبكاء من شدة الحزن، لأني والله أعلم قد وقعت على شهادة وفاتي في ذلك الوقت العصيب، ومن أجل ماذا؟ ساعة صفراء قد صدأ أطرافها؟

فقام أبوبكر ووزير الحرب بالطلب من المسلمين الآخرين إعداد العدة، وتحفير الأرض في ساحات الملاعب، وإخراج سكاكيننا المخبأة فيها، وشراء سكاكين أخرى من تجار السكاكين، وأيضا البدأ بتصنيع السكاكين الأخرى وفرارة الرومان. وهل تريد معرفة كيفية فعل ذلك؟ إنها عملية سهلة للغاية: أحضر عددا من فرش الأسنان البلاستيكية، وبطارية وسلك قصير، وأمواس حلاقة، وكلينكس، ومساكة أو منقاش حب الشباب. أما خطوات العمل فهي على النحو التالي: إصنع فتيلة من الكلينكس وقم بوضع السلك على البطارية من الجهتين لتشتد حرارتها ثم إشعل الفتيلة عن طريق تلك الحرارة، وقم بتكسير أمواس الحلاقة، وإخراج الأمواسِ الحادة منها. ثم امسكها بالمنقاش وضعها فوق النار حتى يسخن الموس ويصبح لونه أحمرا من شدة الحرارة. ثم أغرسه بجانب فرشاة الأسنان من الأسفل ثم دع الفرشاة حتى تبرد الأمواس. ها أنت في أقل من خمسة دقائق لديك سكينة تشرط فيها من تشاء دون حساب.

أما بالنسبة إلى فرارة الرومان فهي سهلة للغاية. تبيع نافذة الكانتين أقفال حديدية ثقيلة لإستعمالها في إقفال الدرج الخاص بالسجين في الزنزانة وحفظه من السرقات. خذ حزام بنطلونك المعطى لك من قبل السجن وقم بتمريره في فتحة القفل بعد إغلاقه، ثم إمسك الحزام من طرفيه والقفل في منتصفه. سهل للغاية اليس كذلك؟ نعم ولكن والله إن تدميره شامل. فإن ضُربت جمجمتك به، لتتفتت كما يتفتت قشر البندق، فيرج دماغك رجا... يجعلك ترتعش كمريض الزهايمر, مدى الحياة.

وهكذا قام المسلمين بإعداد العدة لشن الحرب على عصابة الملوك اللاتينية، وقمت بإصدار أوامر الإستنفار والحجز الشامل، فالقتال سيكون في ساحات الملاعب الخلفية في ظهر يوم الغد الخميس، وذلك بعد يوم واحد من لقائي "بالشيطان" صباحاً.

فعلمت الملائكة ورئيسهم الشيطان بموعد الحرب، فقاموا هم أيضا بإعداد العدة لها. ولكن إزدادت الأمور تعقيدا، فعندما علم أفراد عصابة الدماء بأن أفراد العصابات اللاتينية الأخرى قد تتدخل في صالح الملوك اللاتينية، قرر زعيم عصابة الدماء وزعماء العصابات السود الأخرى مثل الكربت والحواريين السود دخول الحرب في صفوف المسلمين.

وبقدرة قادر تراكمت التحالفات فانقسم السجن بأكمله إلى قسمين, نصفه مع المسلمين، وأغلبهم سود أمريكا، والنصف الآخر مع الملوك اللاتينية وأكثرهم لاتينيين. عجبا لتلك الساعة الحمقاء! سوف تشعل حرب عالمية ثالثه بين جميع عصابات سجون فلوريدا والتي لا محالة سوف يسقط بسببها العديد من القتلى والجرحى. فرحت مستلقيا على سريري في العنبر أفكر بالموضوع بينما يقف الحراس من حولي لحمايتي وكأنني بن لادن في تورا بورا. فقلت محدثا نفسي:

– ومالعمل الآن يا بطل؟ أنت تعلم بأنه بعد ساعات قليلة، سوف يضرب الإعصار بالبركان فيتدمر كل شيء في طريقهما.

فعادت ريما إلى عادتها القديمة، وبدأ الجسم بالإرتعاش، والأوصال بالإرتعاد، وبلغت القلوب الحناجر، ولم تعد الأمعاء قادرة على مسك ما فيها، فتوجهت إلى المرحاض مباشرة. وبينما كنت جالسا في المرحاض، إشتعل مصباح توماس أديسون فوق رأسي فجأة. وإذا بها فكرة عظيمة لإنقاذ الموقف، سهلة وبسيطة. فقلت لنفسي فرحاً:

– لعلمك يالبحري! ورب الكعبة إنك داهية!

فقمت بأخذ ورقة السجن لتقديم الطلبات فكتبت عليها ما يلي:

– إلى السيد حضرة الضابط المسئول عن العصابات ونشاطاتها، ستكون هناك مجزرة كبيرة بين العصابات بعد ظهر الغد في ساحات الملاعب الخلفيه. كل عصابات السجن متورطون بها. أوقفها! فإن لم توقفها، سوف تتحمل مسؤلية كل هؤلاء القتلى والجرحى في ذلك اليوم. التوقيع: فاعل خير

ثم قمت بوضع تلك الورقة في صندوق الطلبات والرسائل، راجيا الله حضور أحدهم لإنقاذ الموقف، متأملاً أنه بمجرد أن يقوم السجانة بقراءة تلك الورقة، حتى تبدأ إجراءات السجون الاحترازية من تحقيق، ووضع المتورطين في الموضوع في الحبس الانفرادي على ذمة التحقيق للتأكد من عدم وقوع أي حوادث، ومن ثم إطلاق السراح إن كان بلاغا ً كاذبا أو النقل إذا ظهر أي شك في الموضوع، أو العقاب في حال الإدانة. وكل ما أرغب به هو كسب الوقت لتهدئة الأمور، حتى ينسى موضوع الإنتقام وموضوع الحرب برمته، وموضوع تلك الساعة السخيفة الغبية.

- فالإنفرادي أهون من القتل.

ما رأيك بهذه الحيلة ؟ لم يكن لدي أي حل آخر لوقف تلك المجزرة، وليس لدي أي استعداد للموت في سبيل تلك الساعة الرخيصة الباهتة. فحياتي بلا شك أغلى بكثير من ساعة الهنود تلك. لعلك تقول بأنه "جبان"؛ فأقول لك ما يقوله المصريين العظماء:

- جبان جبان، بس أعيش.

فأحيانا، "الفتنة أهون من القتل". وعلى فكرة، لولا حيلتي تلك، لما كان بوسعك الآن قراءة سطور هذا الكتاب.

إنفرادي: كلاكيت رابع مرة!

لا يمكن شرح مدى فرحتي في صباح اليوم التالي، عندما رأيت الضابط المسئول عن العصابات ومعه العشرات من السجانة يدخلون عنبري، فحاولت إخفاء فرحتي لكني لم أستطع. في الحقيقة إنها المرة الأولى التي أفرح فيها لإقتيادي للحبس الإنفرادي!

طلب السجانة من جميع السجناء الجلوس على أسرتهم، فقام الضابط بإخراج لائحة أسماء جميع زعماء العصابات لإلقاء القبض عليهم ووضعهم في السجن الإنفرادي. وعندما قام بنداء إسمي إبتسمت ولكني تظاهرت بغير ذلك لكي لا تنكشف الحيلة. فقمت بالتمثيل بأني مندهش وغاضب في نفس الوقت، قائلا:

– لماذا ؟ لماذا؟ ولكنى لم أفعل شيئاً!

ثم أضفت:

– لو كنت مكانك، لقمت بسجن ذلك الجرذي الذي كذب عليك.

مشيراً إلى كاتب الرسالة، أي أنا، وضحكتي تتردد في أعماق قلبي لها صدى لانهاية له. فشدني أحد السجانة الآخرين إلى الحبس الإنفرادي. وبما أن خطر العراك بين السود واللاتينيين تلوح بالأفق، كانت إجراءات السجانة هي وضع اللاتيني مع اللاتيني في الزنزانة الواحدة، والأسود مع الأسود، والأبيض مع الأبيض حتى لا يحدث عراك في داخل غرفة الإنفرادي. وبم إني عربي، أين قاموا بوضعي؟ بما أننا نشبه اللاتينيين، قام السجانة بوضعي في زنزانة فيها لاتيني من الملوك اللاتينية تلك العصابة ذاتها التي قد أعلنت عليه الجهاد.

ولكن، ولله الحمد، لقد كان ذلك اللاتيني هو صديقي الزنجي رئيس العصابة الذي لم أستطع مقابلته سابقا لحل المشكلة لأنه قد أدخل في الإنفرادي الليلة التي سبقت تلك الأحداث. فقال لي حين رآني:

– العربي!

وذلك ما يطلقه عليّ هؤلاء اللاتينيين، فرحت أكلمه بالأسبانية:

– كومو أيس تاس؟ (كيف الحال؟)

– بيين! إي تو؟ (طيب وأنت؟)

– بيين غراسيس! (طيب، شكرا للإهتمام)

ثم قال:

– أنا أشعر بملل شديدٍ هنا فليس معي في هذا المكان سوى شكيره.

فراح يشير إلى عنكبوت قد قام بتربيته وتسميته شكيره. فقال:

– مسكينة شكيره! ها هي في الإنفرادي معي لا حول لها ولا قوة.

وهذه أيضا عادة غريبة في سجون أمريكا حيث يقوم بعض المسجونين بالإحتفاظ بالزواحف أو الحشرات مثل العنكبوت، والسحلية الصغيرة، أو الضفدع وحتى الفأر الأبيض الصغير، وتغذيته والتحدث معه من باب التسلية. فإن علم السجانة بذلك، قاموا بدهس الزواحف بأقدامهم، فيقوم السجناء بالبكاء الشديد على فقدهم حيوانهم الأليف وكأنهم قد فقدوا عضواً من أفراد أسرتهم. فهل رأيت قتال قتله يبكي كالطفل على عنكبوته أو سحليته؟ ياللعجب.

وهناك أنواع عديدة من العناكب في سجون الولاية في شمال فلوريدا، والسبب في ذلك هو موقع السجن في منتصف الغابات. فيقوم المسجون ببناء بيت للعنكبوت من قنينة الدواء البلاستيكية فيفتح المسامات للتنسيم ويفتح بابا أو حتى نافذة دافعا النايلون الشفاف عليها حتى يتمكن من رؤية العنكبوت من الخارج. وعند شعور المسجون بالوحدة والملل يقوم بإخراج العنكبوت واللعب معه ومخاطبته وأحيانا توبيخه إذا ما حاول الهرب. بل أنه يقوم المسجون "برحلة صيد" عدة مرات يوميا باحثاً عن الذباب الحي لإطعام عنكبوته. ومنهم من يسمي عنكبوته بأسماء أشخاص مشهورون مثل: القذافي، وبن لادن، ومايك تايسون، وحتى الزرقاوي. وأحياناً يقوم السجناء بإحضار عناكيبهم للعراك والرهان.

فهذا هو صاحبنا الزنجي قد أطلق على عنكبوته اسم "شكيره" فتراه كل حين يقف وينظر إلى عنكبوته العالق بالجدار ويتغنى له راقصا:

- ♪ شكيره! شكيره! ♪

فياله من منظر!

على أي حال، لقد وصلت المعلومات له عما كان من المفترض أن يقع بين المسلمين وعصابته، فقال لي:

– والله! لو كنت في الخارج لما وصل الموضوع إلى هذا الحد. دعنا ننسى هذا الموضوع، وإن خرجنا من هنا، سأجلب لك الساعة شخصيا.

فقلت الحمد لله على حل الموضوع في ثلاثة دقائقٍ دون وقوع ضحايا أو جرحى؛ وفعلا إنقض الزنجي على الأرض بقرب فتحة الباب السفلى مكلماً اللاتينيين في عنبر الإنفرادي منهيا الموضوع نهائيا. وبعدٍ أسبوعين خرج الزنجي من الإنفرادي بينما ظللت أنا تحت ذمة التحقيق، ولكني لم أبقى وحيداً في تلك الزنزانة لمدة طويلة.

فقد أَدخل معي رجل أبيض طويل القامة ونحيف جدا، لا أسنان له على الإطلاق. وهذه مسألة أخرى يكثر وجودها في سجون أمريكا بشكل رهيب. فهناك الكثير من المسجونين الشباب ممن لاتوجد لديهم أسنان أمامية، والسبب الرئيسي لفقدهم أسنانهم الأمامية هو خوضهم لمعركة مع سجين آخر، أو بسبب قيام أحد السجانة برفسه أو لكمه على أسنانه، أو بسبب قيام مجموعة من السجانة بالإنقضاض عليه وضربه ضربا مبرحا ورفسه عدة مرات حتى تطايرت أسنانه. في الواقع، هناك جرة زجاجية شفافة في الكثير من سجون الولاية مملوئه بالأسنان البيضاء والصفراء وحتى الذهب منها. فيقوم السجانة بجمع أسنان ضحاياهم والإحتفاظ بها للذكرى وأيضا ليراه السجناء الآخرون لأخذ العبرة والعظة.

كانت تهمة صاحبنا الأبيض الطويل النحيف عديم الأسنان والإحساس وصاحب الرائحة الكريهة العفنة، هي "التشويش على أجهزة الشرطة اللاسلكية". فهذا العبقرى الأبيض (وبعض المساجين الآخرين) يتفننون بالأجهزة الإلكترونية على الرغم من قلة المعطيات. عادة، يمكن للسجين شراء راديو سوني لسماع الأخبار أو جهاز الحلاقة الإلكتروني. فيقوم هؤلاء العباقرة بتحويل هذان الجهازان إلى أشياء أخرى تدهشك حقا. فعلى سبيل المثال، عن طريق العبث باللوح الأخضر الموجود في داخل جهاز المذياع، يقوم هؤلاء بتحويله من الموجات الطويلة إلى الموجات القصيرة، فيمكن الإستماع لقنوات عالمية من شتى بلاد العالم، الصين، روسيا، وحتى ليبيا! ها أنا جالس في الإنفرادي في 2011 أستمع للقذافي يهدد شعبه عن طريق ذلك المذياع العجيب، قائلا، "هذه آخرتها؟ هذه آخرتها؟".

بالإضافة إلى ذلك، يقوم هؤلاء العباقرة بإخراج مكينة جهاز الحلاقة الإكتروني والعبث بها وتحويلها بقدرة قادر إلى مسدس للوشم. ولعلك تتساءل من أينٍ لهم الِحبر للوشم؟ يقومون بإذابة قطع الشطرنج البلاستيكية السوداء ثم يضيفون عليها زيتا مهربا من المطبخ، حيث يقومون بتحميته وخلطه إلى أن يتجانس تماما، علما أنها تعد تجارة رابحة في السجون لشدة رغبة السجناء بالوشم. بالإضافة إلى ذلك بإستطاعة هؤلاء العباقرة العبث باللوح الأخضر للمذياع وتحويله بأناملهم السحرية إلى جهاز "سكانر" يمكن من خلاله الإستماع لكل مكالمات الشرطة عبر أجهزتهم اللاسلكية.

وهذا ما قد قام به صاحبنا الأبيض، فبينما كِنا فيٍ الزنزانه سويا، إقترح علي، بما أني مسلم وعربي، أن يعلمني كيفية صنع قنبلة تصنيعا محلياً، مستعملا البطاريات والأسلاك واللوح الأخضر لجهاز المذياع، وقليلا من الأمونيا، وورقة تغليف الكاكاو (الكتكات) الألمنيوم، فكان جوابي بلا أدنى تردد:

- لا شكراً.

فمن منا بحاجه لذلك؟

دجاج الكنتاكي

وبعد أن حبست في الإنفرادي لمدة 45 يوم على ذمة التحقيق، تم إرسالي أخيراً إلى العنبر العام. ولكن هذه المرة، لقد كسرني الإنفرادي، فلم أعد الشخص نفسه. فقد قل الضحك وزاد التفكير السلبي والتوتر وزادت الهواجس، وأصبحت حساسا بشكل مبالغ فيه، أفسر كل كلمة أو نظرة تفسيرا سلبيا لم أعهده سابقا. كما قلت ساعات نومي فأصبحت أنام أقل من الخمس ساعات يوميا، وهذا ليس أمرا جيدا أو صحيا في السجون. فمن يريد أن يكون مستيقظا والناس نيام؟ فيزيد عليه وقت السجن وتزيد عليه همومه وأحزانه، فالنوم والأحلام نعمة عظيمة من نعم الله الكثيرة لا يعرف قيمتها إلا من عاش يقظة تعيسة وواقع أليم لم يختاره بمحض إرادته؟ الأحلام هي الطريقة الوحيدة للخروج من السجن بالنسبة لمن هم في مثل حالتي، حيث لا وجود للأسلاك الكهربائية أو الشائكة ولا أثر لبدلة السجن الزرقاء. فالنوم والأحلام رحمة من الله لتخفيف حجم الضغوط النفسية، فيلتقي المحروم بأهله وناسه وأحبابه، وحتى أصدقاء الطفولة. يراهم مجددا ويعيش معهم لحظات من المرح ويمازحهم بكل عفوية وتلقائية. ربي لاتحرمني من النوم والأحلام فهي متنفسي في غربتي وفي سجني الخانق الموحش.

جعلتني حساسيتي الشديدة أفكر في كل شيء، وأتذمر من كل شيء. فعلى الرغم من استمراري بممارسة الرياضة بشكل يومي، إلاأن وزني في تزايد مستمر. ليس لدي تفسير لتلك الظاهرة سوى أن جهازي الهضمي هو حزين مثلي. حتى "الإمامة" أصبحت تشكل لي هما كبيرا ومسئولية شاقة لم أعد أتحملها؛ فعلي تعليم المسلمين تعاليم دينهم وتقديم النصح لهم والصلاة فيهم؛ والحكم بينهم في حال حدوث نزاع والاستماع لمشاكلهم، مهما كانت سخيفة؛ وتحفيزهم للصبر على الشدائد، والفصل بينهم وبين الآخرين عند الضرورة؛ وتحمل المسؤولية والشجاعة في المواقف الصعبة؛ ومشاعر الترقب والقلق والخوف من العقاب والحبس الإنفرادي التي تلاحقني نتيجة تزعمي للمسلمين في السجن؛ واستعدادي وتأهبي الدائم لمواجهة أي اعتداء قد يواجهني من العصابات سواء بتشريط وجهي أو حتى طعني حتى الموت (كما حدث لذلك الإمام في سجن الاستقبال سابقاً).

فحياتي أصبحت مليئة بكل محفزات القلق والتوتر، وقد آن الأوان لاعتزال كل مسبباتها، والعيش بسلام داخلي يريحني من عبء المسئولية. فقد بدا على ملامح وجهي علامات التعب والإرهاق، واستنزفت كل قواي. فهل لي من سبيل إلى ذلك؟ لقد طال السفر، وزاد الإرهاق وكثر التفكير... دون جدوى.

حل علينا شهر رمضان المبارك من جديد، وكان شهر أغسطس من عام 2011 ، خامس رمضان لي بعيدا عن أهلي، وقد تبرع طارق زوج أختي بالتمر لإفطار 60 سجين مسلم يوميا ولمدة ثلاثين يوما، وأراد طارق أخي التبرع بوجبة عيد الفطر المبارك. ففي إحدي الليالي في رمضان أخبرت القسيس الأسود المسئول عن الكنيسة آنذاك بأننا

– نود طلب دجاج الكنتاكي للاحتفال بعيد الفطر؛ المطلوب منك، إذا سمحت، إحضار الطعام من المطعم.

فأجاب:

– لا مشكلة.

– حقا ؟

– نعم.

حصلت على الموافقة بسهولة وسرعة غير معهودة. وكانت فرحتي كبيرة بذلك. فعادة ما يجب على المسلمين تقديم طلب إلى مدير السجن مفاده رغبتهم بالتبرع لأبنائهم المساجين بوجبة عيد الفطر، ويضع مدير السجن شروطا تعجيزية، مما يدفع أهل السجناء المسلمين للاستسلام ونسيان الموضوع برمته، حيلة يقوم بها مدراء السجون ضد المسلمين بالذات. ولكن إذا ما قام السجناء المسيحيون بطلب إقامة حفلة بمناسبة الكريسماس، على سبيل المثال، فيحدث العكس تماماً، إذ لاحاجة لهم للمرور بتلك الإجراءات والإنتظار قرنا أو قرنين من الزمان للموافقة (كما يحدث مع المسلمين) بل كل ما يجب عليهم فعله هو الحضور فقط لتلك الحفلة فيجدون كل شيء قد أُعد وهُيئ.

عندما أخذت الموافقة من القسيس، قمت بالحال بإخبار أخي بتالاهاسي لعمل اللازم قبل أن يغير القسيس رأيه، فطلب أخي من مطعم دجاج الكنتاكي القريب من سجن القرن دجاجا يكفي لسبعين شخصا وقام بالدفع عن طريق بطاقة الائتمان. فحل العيد وكان أول ثلاثاء من شهر سبتمبر لعام 2011 ، والله لم تصدق أعيننا ما نرى من طعام فزادت فرحتنا بالعيد فرحتين. لعله بالنسبة للإنسان الحر الطليق أمرا عاديا ويحدث بشكل شبه يومي لا يجلب العجب والدهشة أو حتى البكاء، ولكن لهؤلاء المساجين فكان الأمر أشبه بالمعجزة. فها نحن في القاعة المخصصة للمسلمين في الكنيسة وأمام أعيننا 120 قطعة من صدور وأفخاذ الدجاج الشهية المقرمشة، و40 علبة من البطاطس المقلية، والمعكرونة بالجبنة، وسلطة المايونيز، والرز الأصفر، و 80 خبزة كنتاكي. هذا أمر عجيب. تذكر أننا في السجن خلف القضبان ولسنا على شاطئ البحر تحت أبراج الكويت!

فراح السجناء المسلمون ينهشون الطعام، وهم يذرفون دموع الفرحة. فتسمع أحدهم يقول وهو يشوح بيديه بإشارات النصر:

– ياسر! لم أرى دجاج الكنتاكي مرأى العين منذ 15 عام!

ويقول الآخر:

– لم أذق هذا الدجاج منذ 25 سنة.

وغيره:

– لن أنسى أبدا هذا اليوم مادمت حيا!

لا تنسى بأن هؤلاء مساجين لعقود عديدة وليس شهراً أو شهرين، ومعظمهم لن يرى شوارع العالم الحر أبدا، "فالمؤبد" في فلوريدا يعني السجن مدى الحياة. فلن يخرج من السجن إلا على الحمالة وإلى القبر مباشرة....أو الحاوية.

فأكلنا وحمدنا وشكرنا المولى، ثم أكلنا مجددا حتى امتلأت البطون، وأصبحت ككرات السلة، ولم يعد هناك متسع للمزيد من الطعام، فدعسنا قطع الدجاج المتبقية في جيوبنا لأخذها معنا إلى العنابر لأكلها مساءً أو في صباح الغد وبيعها على المساجين الآخرين. ثم حمدنا المولى بصدق من كل جوارحنا وبكينا بكاءً حاراً لشدة تأثرنا وتقديرنا لرحمة الله الواسعة التي شملتنا في أول يوم من أيام عيد الفطر. تلك كانت فرحتنا بالعيد، فقد كان عيد الفطر حقاً.

إنتشر خبر إحتفالنا بمناسبة العيد وتناولنا وجبة الكنتاكي في كل أنحاء السجن، وأصبح الموضوع حديث الساعة:

– لقد أكل المسلمون دجاج الكنتاكي بالأمس!

وإنتقل الخبر من سجين إلى سجين آخر...إلى آخر حتى طرق على طبلة أذن مدير السجن، فلم تكن أخبارا سارة أبدا. لقد غضب مدير السجن غضبا شديدا. أولا: لعدم علمه؛ وثانيا: لعدم مرورنا بالإجراءات التعجيزية الصارمة التي وضعها خصيصا للمسلمين؛ وثالثا: لتناولنا دجاج الكنتاكي. فراح يوبخ القسيس ويعامله وكأنه سجين مثلنا. وأما بالنسبة لي أنا "أمير المؤمنين" فعندما علم بأني كنت وراء تلك الوليمة، قام بحبسي بالانفرادي لعدة أسابيع ثم إبعادي من السجن بأكمله، مع تدوين ملاحظات سيئة في حقي في الملف الخاص بي في السجن مثل:

"شخص غير مرغوب به؛ شخص يهدد أمن السجن؛ شخص يعيق سير السجن وروتينة".

ولكن دعه يدون مايشاء. فإن أراد الله إطعام هؤلاء المساكين الدجاج الكنتاكي، لن يستطيع أي إنسان الوقوف في الطريق. أو بالمصري: "إللي الرب يطعمه، العبد ما يجوعهوش".

وها أنا ذا من جديد أركب الحافلة مقيدا من رأسي إلى قدمي في طريقي مرحلا إلى سجن آخر كنوع من العقاب وكنيته "المقبرة".

المقبرة

يطلق على سجن مايو اسم "المقبرة" لعدة أسباب: أولا: لأنه قد بني خصيصا لاستقبال وإيواء السجناء غير المرغوب فيهم من السجون الأخرى، والذين يشكلون تهديدا لأمن بعض السجون، وزعزعة لنظام سيره. ثانيا: يخلو السجن من أي وسيلة من وسائل الترفيه مثل ساحات الملاعب للتسلية أو غيره، ولا يوجد فيه سوى ساحة صغيرة فيها حارة دائرية تشبه تلك المخصصة لسباق الكلاب السلوقية. فليس هناك سوى أسرة شبيهة بالتوابيت، مصففة جنبا إلى جنب. أي باختصار، السجن ليس إلا "مخزنا آدميا"، سرائر كثيرة بجانب بعضها البعض، علوي وسفلي مكتظة بالبشر. ثالثا: يتآمر فيه السجانة دون حسيب أو رقيب لدرجة الافتراء، وإلصاق تهم جديدة بالسجين وتقديمه للمحاكمة الخارجية وإدانته أيضا لكي يقوموا بدفنه، "بقبره"، لسنين أخرى عديدة. رابعا: يكثر فيه أعضاء العصابات المختلفة، مما يؤدي إلى حدوث معارك كثيرة واغتيالات تودي بحياة المساجين. خامسا: يكثر في هذا السجن السجناء الذين يطلق عليهم لقب "الرماة المحترفين" وسوف أتحدث عنهم لاحقا. سادسا: والعياذ بالله! يقوم السجانة في هذا السجن بقتل بعض السجناء سواء في الزنزانة والزعم أنه انتحار أو في العيادة الطبية والزعم بأنها "وفاة طبيعية".

وفعلا عند وصولي إلى هذه "المقبرة"، سجن مايو، قام السجانة بوضعي في الحبس الانفرادي مباشرة "تحت ذمة التحقيق". عجبا! التحقيق في ماذا وأنا لم آتي إلا اليوم؟ ولكن الحمد لله رب العالمين، لقد رضينا بالمولى ورضينا بالقدر. وعند دخولي أروقة مبنى الإنفرادي، لفتت انتباهي البرودة الشديدة للمكان، فشعرت وكأنني أدخل إلى المغاسل المخصصة للأموات قبل وضعهم في "القبر". وساورتني الشكوك والظنون التى أكدتها الرائحة التى كانت تشبه تماما رائحة الكافور المستخدم للأموات. كان المكان غريب جدا، ويثير الريبة، مما جعلني أسير إليه بخطى متثاقلة وخصوصا بعد سماعي باسمه" القبر".

بدأت صور زوجتي وبناتي بالقفز في وجهي أينما نظرت. لقدأحسست بأنها النهاية التي لم أستعد لها بعد. هل هذه نهايتي؟ نهاية رجل شجاع؟ والذي عانى الكثير والكثير من الأهوال. ألا يجب أن تكون هناك نهاية أفضل من ذلك؟ كالنهايات السعيدة التي في الأفلام؟ أعود مثلا إلى أهلي وأسرتي مبتسما وأحضنهم جميعا وأعيش معهم فرحا إلى الأبد؟ وأذهب إلى الجمعية مع ابنتي "الصغرى" التي طالما حلمت بأخذي إلى هناك لتشتري لأبيها الحلويات؟ وأجلس مع ابنتي "الكبرى" الفنانة التي لطالما حلمت برسم وجه أبيها بأناملها الرقيقة؟ وزوجتي تنظر إلينا نظرتها الحنونة الآسرة، وتبتسم حامدة الله على عودتي إليها سالما... عدت وعاد اللقاء، عدت وعاد الأمل!

استلقيت على الفراش ومازلت اشتم رائحة الأموات، رائحة تشبه رائحة اللحم النيئ في ثلاجات اللحوم. فقمت بنطق الشهادتين وأغمضت عيني فتوقفت الأفكار واختفت الصور ساعات

ثقيلة، وطلع بعدها النهار. فإذا بباب الزنزانة يُفتح، وإذا بالسجانة يقذفون بسجين آخر في زنزانتي، رجل أسود صغير السن، لم ينطق ولا بكلمة واحدة حتى أني اعتقدت في بادئ الأمر بأنه أبكم.

في مثل تلك الحالات، لا أتحدث مع السجين الجديد عادة، بل أتركه وشأنه، فأنا لا أعلم ما قد تعرض له أو أصابه أو ما يفكر فيه حاليا. لربما يتطاير الجن في وجهه. فالأفضل هو إتباع نصيحة المصريين الممتازة: "إبعد عن وشه الساعة دي!". وبعد يومين أو ثلاثة بدأ السجين الأبكم بالتحدث وليته لم يفعل، فقد أحزنني حاله لدرجة البكاء معه. اسمه "ماسون" وهو أسود من دولة "هيتي" ذلك البلد الفقير في البحر الكاريبي. سُجن لأربع سنوات والمتبقي له على إنتهاء مدته أربعة أشهر.أربعة أشهر فقط ويعود لأهله حرا طليقا، ولكن حدث ما غير كل حساباته.

فقد وقعت مشادة كلامية بينه وبين أحد السجناء العنصرين البيض بينما كان يقضي فترة الحبس الانفرادي، فتجمهر بقية السجناء وضج المكان وراح كل منهما يتلفظ على الآخر بالكلام البذيء، وصاحبنا يرد الصاع صاعين مما أثار غضب السجان وحنقه، ورد ماسون على السجان بطريقة متهورة وبعدم احترام قائلا:

Fu@$ You!

"لن تستطيع أن تفعل بي أي شي، سأكون طليقا بعد أربعة أشهر".

فقرر السجان الإنتقام وتغيير ذلك الرقم. وفي اليوم التالي وفي أثناء عملية إطعام مساجين الانفرادي، قام السجان، وإسمه "كنج"، بتقطيع قميصه باتجاه البطن، ثم راح يدفع بعربة الطعام نحو زنزانة ماسون، حتى توقف أمام باب الزنزانة مباشرة. فقال:

– لقد حان وقت الغداء.

فقام بفتح الكوة الموجودة في منتصف الباب، لتمرير صينية الطعام من خلالها. ولكنه قام بذلك بينما كان معطيا ظهره للكاميرا الموجودة في زاوية السقف، ثم قام بالتمثيل. فبمجرد أن وضع صينية الطعام في الفتحة، قام بالقفز للوراء ممثلا بأنه قد تعرض لإعتداء في بطنه من قبل السجين ماسون عن طريق موسا حادة (كان قد رماه على الأرض في مقابل باب زنزانة المسكين لحبك الموضوع) ثم التفت نحو الكاميرا مشيرا إلى قميصه المقطع وبدأ بالصراخ:

– آه ... لقد ضربني بموس حاد ...آه لقد حاول قتلي.

ياله من ممثل رائع! حقا، إنه يستحق جائزة هوليوود الأكاديمية على تمثيله الإرتجالي. وبعد إبلاغ السلطات قام مدير السجن بالاتصال بقسم الشرطة الخارجي في منطقة مايو لاجراء التحقيق. فجرجر ماسون في المحاكم لعدة شهور ثم خسر القضية وحكم عليه بالسجن لمدة 30 عام. تخيل، من أربعة أشهر إلى 30 عام سجن. الآن فهمت المسألة؛ فإن عُرف السبب بطل

العجب، لا عجب في أن يُطلق مسمى المقبرة على هذا السجن، ولا عجب أن يصمت ماسون ويُضرب عن الكلام. فوالله لقد كانت لقصته واقعة كوقع الصاعقة، أو كدوي الرعد في السماء.

وجاء دوري للصمت كالأبكم من شدة حزني عليه وعلى ما أصابه، فقد كانت لديه ابنتان مثلي تنتظران عودته. وبينما كان ماسون يسرد لي قصته الحزينة، ترددت أصداء مدوية في أروقة الجناح لم نعلم لها سببا، ولكن بدأنا نرى شرطة المنطقة والممرضات والأطباء يدخلون ويخرجون من الجناح مرارا، وبعد قليل دخل مدير السجن شخصيا ليتفقد الأمر. علمنا بأنه أمر جاد ولكن ماهو؟ بالطبع لا نعلم، ثم بدأت فلاشات الكاميرات بالإضاءة مرارا، أحدهم يقوم بتصوير شيئا ما في الزنزانة المجاورة، فسألت ماسون:

- ماذا حصل؟

- لا أعلم. ولكن لابد وأنها لعبة أخرى من ألاعيب السجانة.

لم أُصدقه في بادئ الأمر. ولكن كان ظنه في محله. فبعد الذهاب والإياب والضجة والشرطة والممرضات، أُدخلت "النقالة"، ثم أُخرجت بعد قليل وعليها جثة إنسان ملفوفه بكيس أسود. فصرخت:

- لقد مات أحد السجناء!

فأجاب ماسون معلقا على ما قلته:

- لقد *قُتل* أحد السجناء!

في صباح اليوم التالي لتلك الحادثة المؤلمة، وفي خلال فترة طعام السجناء وجبة الإفطار، سأل ماسون السجان المُطعِم:

- ماذا حدث؟ هل أنت من قتله؟

فضحك السجان مجيبا:

- لا, لقد شنق نفسه.

وكيف لأحد أن يشنق نفسه في زنزانة لا علاّقة فيها، ولا حبل ولا حزام أو حتى حبل حذاء؟ كيف لأحد أن يشنق نفسه في زنزانة ليس فيها سوى سرير ارتفاعه قدمين؟ علمنا لاحقا بتفاصيل الموضوع، فقد تم قتل هذا السجين الأسود في سجن المقبرة لأنه تعارك مع أحد السجانة البيض العنصريين وقام بضربه ضربا مبرحا في سجن آخر خارج سجن المقبرة. وقد تم نقله منذ يومين إلى سجن مايو "المقبرة" كتصفية للحسابات، حتى يتم قتله وازهاق روحه دون حسيب أو رقيب، وهذا يعد أمرا متعارف عليه في هذا السجن، حيث يكتب على ورقة صفراء لاصقة عبارة "لعمل اللازم" على ملف السجين المُرحل، وهذا عادة يعني التخلص منه وقتله، والعياذ بالله.

اللص والجلاد

وفقا لاحصائيات جريدة الوال ستريت جورنال لعام 2015، أن 95% من وكلاء النيابة والمدعين العامين في الولايات المتحدة عموما هم من العرق الأبيض الأوروبي. بالإضافة إلى ذلك، وفقا لمجلة النيشن (الأمة) لعام 2014، يشكل البيض ما يقارب 98% من أفراد الجيش والشرطة (سواء الولاية أو الفدرالية) والسي آي ايه، وأيضا سجاني سجون أمريكا (سواء الولاية او الفيدرالية). كما أن 98% من الباحثين الإجتماعيين والممرضات والإداريات في سجون أمريكا هم من البيض، وذلك يشمل موظفي الصيانة وحتى المطاعم في السجون. أما السود، فهم يشكلون نسبة 80% من المسجونين في سجون أمريكا. ببساطة، أن الإدارة بيضاء والسجناء سود.

بالإضافة إلى ذلك، إن معظم السجانة في سجون الولاية هم من البيض، وعادة ما يكونون من الأرياف (بدو أمريكا ولكن بيض وشقر)، وهم رعاة البقر والماعز والخنازير والحيوانات الأخرى. أما بالنسبة إلى مستواهم التعليمي، فيكاد معظمهم ألا يحصلوا على الشهادة الثانوية. وحتى لغتهم الإنجليزية، فهي ليست بالفصحى التي تسمعها في قنواتهم الإخبارية أو حتى في الأفلام. تتلفظ أفواههم بينما هي مملوه بالسويكة بكلمات طويلة ممغطة ويبصقون على الأرض كل ثلاث ثواني، لاتكاد تفهمهم لكثرة أخطاؤهم اللغوية.

وأما بالنسبة إلى مستواهم الصحي واللياقة البدنية، فلعلك تعتقد بأنهم أصحاء، وذوي لياقة بدنية عالية (وذلك لمواجهة السجناء عند الضرورة)، ولكن الحقيقة عكس ذلك تماماً. فالسمنة متفشية بينهم لدرجة أن بطونهم تحتاج لعربة تحملها وتدفعها للأمام. وربما تجد واحدا من كل 50 سجانا لديه جسما مقبولا لشغل وظيفة كهذه، أما الباقون فأجسامهم سمينة إلى حد القرف. ومنهم من لا يمكن السمع فيستعين بجهاز يعينه على السمع. فكيف يمكن لذلك السجان سماع إستغاثات السجناء ونداءاتهم؟ ومنهم من لا يكاد يصل بصره لثلاثة أمتار أمامه، على الرغم من لبسه لنظارات طبية سميكة العدسات سمكها يقارب سُمك قاع قنينة البيبسي الزجاجية. ودائما ما يُمسك بالسجين الخطأ إذا ما قام أحد السجناء بأمر يخالف القواعد.

أما بالنسبة لقواهم العقلية، فحدث ولا حرج، فمنهم من يُكلم نفسه وكأنه مريض في مستشفى المجانين وليس سجانا، ومنهم من يزعق من غير أي سبب أو داعي. بالاضافة إلى ذلك، يقوم أكثرهم باحضار حبوبهم المهدئة وأخذ العشرات منها كل ساعتين أو ثلاث. بل أن منهم من وجب عليه تناول العشرات من الحبوب النفسية يوميا وإلا...

أما بالنسبة إلى تصرفاتهم وسلوكياتهم، فإن معظمهم عنصريون تكاد العنصرية أن تخرج من فتحات أنوفهم. فهم يكرهون السود والعرب كرهاً جما، ويحبون البيض حبا أعمى. وفي الحقيقة إن بعضهم ينتمون إلي جماعات عرقية بيضاء مثل: النازيين الجدد، والأمة الآرية، فترى

شعارات تلك الجماعات موشومة على ذراع هؤلاء السجانة ولا حرج. ولكن يجب قول الحقيقة: ليس جميعهم كذلك! 99.99% منهم فقط .

وهذه هي حالة العبد الفقير لله. فهو واقع تحت رحمة الريفي الأبيض، غير المتعلم والسمين والمريض نفسياً وعقليا، وفوق كل هذا فهو عنصري يعتقد بأنه هو وأمثاله خير البشرية. أما بالنسبة إلى ألاعيبهم، فإنها كثيرة ومتنوعة وخطيرة جدا تشعل الرأس شيبا. وإليك بعضا منها:

- الكذب على السجناء وتلفيق التهم محاولين إضافة سنوات جديدة لأحكامهم.

- يقومون باشهار أنواع التهم والإدانات لبعض المسجونين مثل التحرش الجنسي بالأطفال لكي يقوم السجناء الآخرين بضربهم وحتى طعنهم حتى الموت وإن كانت ادعاءات باطلة ليس لها أساس من الصحة.

- يقومون في وقت التفتيش بوضع السكاكين أو المخدرات والحشيش في أدراج السجناء من أجل وضعهم في الإنفرادي لشهور وسنين.

- يقوم بعضهم بالتبلي على أحد السجناء واخراج الإشاعة بأنه "جرذ" أي جاسوس للشرطة، لكي يقوم السجناء الآخرين بضربه وطعنه حتى الموت.

- يقوم بعضهم بنقل سجينا جديدا في زنزانتك لضربك أو حتى خنقك بينما أنت نائما على سريرك، لاحول لك ولاقوة.

- يقوم بعضهم بسرقة أغراضك في أثناء التفتيش، أغراض تافهة مثل كاكاو السنيكرز والتويكس.

- يقوم بعضهم بالبصق في طعامك قبل إعطاؤك إياه خاصة في الحبس الإنفرادي أو إلقائه على الأرض، أو حتى حرمان السجين من الطعام، ثم الادعاء برفض السجين تناول الطعام والاضراب عنه.

تلك هي فقط بعض الألاعيب التي يقوم بها السجانة عموما وفي سجن مايو خصوصا تجاه المسجونين الذين لا حول لهم ولا قوة. في حادثة شخصية، طلبت مني إحدى السجانات أن أقوم بطعن سجينا ما بينما هو مستلقي في سريره وعذرها؟

- إنه مغتصب للأطفال.

فكان جوابي:

- مستحيل انفذ مطلبك.

فقالت غاضبة:

- لم لا ؟ ألست من الطالبان؟

هل تعلـــم ؟

يقال "أن الحقيقة أحيانا أغرب من الخيال"، ولكن ماذا تعني تلك العبارة حقا؟ تعني أننا أحيانا نعتاد على مقولات كاذبة خيالية لا أساس لها من الصحة، وليس لها أي صلة بالواقع، فعند سماعنا عن أمور حقيقية تناقضها لن نصدقها، والسبب؟ لقد اعتدنا على الخيال، والحقيقة الآن تصبح " كذبا " فلن تُصدق. كذلك هو الحال بالنسبة لما نسمعه عن أمريكا وقيمها السامية، خاصة تلك المتعلقة بالعدالة مثل: المساواة، والحرية، والقانون للجميع، والعدالة العمياء، والناس سواسية وغيرها من الترهات الأمريكية العديدة.

أينما تذهب في أمريكا تجد صورا وتماثيل لتلك المرأة المعصوبة العينين، والتي ترمز بأن العدل والقانون للجميع، وأنها لا تميز بين الأعراق والأجناس، ولكنه والله كلام فارغ لدرجة السخرية. نعم مبدئيا تلك كلمات سامية ولكن تبقى مجرد كلمات: "صُنع في هوليوود". أما على أرض الواقع فشتان ما بين الواقع الأمريكي وما بين القيم المكتوبة على الورق، وإليك بعض من حقائق الواقع الأمريكي:

أولا: وفقا لدراسات قامت بها جريدة "وال ستريت جورنال" و جريدة "أمريكا اليوم" وأيضا وفقا لإحصائيات الحكومة الفيدرالية لعام 2015 ، هل تعلم أنه على الرغم من أن السود في أمريكا يشكلون فقط 12% من سكان أمريكا إلا أن 80% من السجناء هم من السود؟ (تليهم نسبة اللاتينيين ثم الأقليات الأخرى). أما بيض أمريكا فهم الأغلبية في عدد السكان ولكن أقل الأقليات في السجون. لماذا؟ ألا يرتكب البيض أي مخالفات أو اختراقات للقانون؟!

ثانيا: هل تعلم أنه، وفقا لأقدم مجلة في أمريكا وهي مجلة النيشن (الأمة) الليبرالية، أنه يُحكم على الأشخاص السود بنسبة 20% أكثر من البيض لنفس التهمة؟ فإذا كنت أسود وأنا أبيض، وكلانا ارتكب جريمة "السطو المسلح"، يقوم القاضي بالحكم علي بـ 10 سنوات سجن وأنت 12 سنة؟ وإن كانت تلك ما تقوله الإحصائيات ولكن الواقع أدهى وأمر. فمن خلال خبرتي في سجون أمريكا، لابد وأن النسبة أكبر من ذلك بكثير، فقد رأيت العديد من الحالات لأفراد من السود المحكوم عليهم بـ 30 عام لقضية عقابها قد يصل لخمس سنوات للأبيض. فأين تلك المرأة العادلة المعصوبة العينين؟ أم كانت العصبة غير محكمة على عينيها؟

ثالثا: هل تعلم أنه، وفقا لكتاب عالم الدماغ والأعصاب، ديفيد ايغلزمان، في كتابه "انكوجنيتو، عوالم الدماغ السرية" لعام 2011 ، تعطى مدة أحكام سجن أطول للقبيحين شكلا من تلك المعطاة لجميلي المنظر؟ وأيضا يعطى لقصيري القامة مدة أحكام أطول من طوال القامة لنفس التهم؟ فيالحظك العاثر إن كنت أسود قصير القامة وقبيح الشكل في أمريكا. يجب عليك عدم الخروج من صومعتك أبدا.

رابعا: وفقا للبرنامج الاخباري الإذاعي NPR، يقوم القضاة الأمريكيون بإعطاء عقوبات أكثر شدة للمحكومين في ظلال إنتخابات هيئة القضاة؟ هل تعلم بأن القضاة يقومون بالحكم

بأحكام مشددة والسنين الطويلة فقط لكي يتم ترشيحهم من جديد؟ في أمريكا، يسمح للقاضي بترشيح نفسه لمنصب القضاء، فيكون جزءاً من حملته الانتخابية بأنه "شديد على المجرمين". وفقاً لـ NPR ذاتها، وجد شريطا مسجلا فيه محاورة تدور بين اثنين من القضاة يتحدى كل منهما الآخر، من منهم سوف يصل أولا إلى "الألف سنة" من الأحكام يعطيها للمحكومين، قبل الآخر!

في بعض الدول العربية، على الرغم من وجود أمراض إجتماعية عديدة، إلا أن ذلك النوع من النفاق غير موجود، لأن حكوماتنا لا تتشدق بالمساواة أو القانون. فلا تراها تتغنى بكلمات سامية مثل الحرية والعدالة والمساواة، كما يفعل الأمريكيون! في الدول العربية، فالمسألة "على عينك يا تاجر".

دعنا نعقد صفقة

إليك على سبيل المثال المهزلة التي يقوم بها الشرطة بحق السود في أمريكا وهي مسألة أشبه بمصيدة الفئران وليست عدلا على الإطلاق والغرض تنظيف الشوارع من السود وملء السجون المربحة.

ففي أروقة المحاكم هناك مايطلق عليه بـ"الصفقة" (plea bargin)، حيث تقوم الشرطة بإلقاء القبض على شخص ما وزجه في السجن على ذمة التحقيق. فإن كان أسود، الأحتمالات انه لن تعطى له كفالة مالية للخروج. وإن أُعطيت له كفالة مالية، فإن المبلغ يكون عاليا جدا بحيث لا يتمكن من دفعه، ويحول ملفه إلى مكتب وكيل النيابة لدراسته ومعرفة ما إذا كان بإمكانهم إدانته. ولكن أحيانا قد لا يكون هناك الكثير من الأدلة في الملفات لإدانته. وهنا تبدأ حيل وكيل النيابة التي تدفعه لعقد صفقة. فعلى سبيل المثال، إن العقوبة القصوى لتهمة السطو المسلح هي 15 عام، فيقال له:

– خذ خمسة أعوام فقط من غير محاكمة. إن قمت بالتوقيع على هذه الأوراق بأنك مذنب، سنكتفي بخمسة أعوام؛ وإن لم توقع سوف نضطر لأخذك للمحاكمة، وإن خسرت القضية سوف نعطيك العقوبة القصوى وهي 15 عام.

بمعنى آخر، هي مسألة ابتزاز بحتة يقوم بها وكيل النيابة ضد الرجل المغلوب على أمره. وتكلفة المحاكمة الواحدة قد تفوق المئات الآلاف من الدولارات: من أجور القضاة، ووكلاء النيابة، والكتبة، وأجور محامين الدولة، وأجور رواتب أعضاء هيئة المحلفين، وأجور المواصلات من وإلى سجن المقاطعة... الخ.

ويحاول هؤلاء الظلمة حبس المتهم دون قضية أو محاكمة عادلة، ودفعه بأن يغامر بسنين من حياته، وعامل الخوف والانتقام يلوح وراء ظهره. واذا كان له محام خاص، سوف يؤكد له بأنه ليس هناك داع للخوف، فلا أدلة لديهم ضدك.

– لا توقع على تلك الأوراق اللعينة.

أما إن كان أحد هؤلاء السود المساكين أو اللاتينيين الفقراء، فمحامي الدولة سوف يقوم بالضغط عليه، وارغامه على التوقيع موهما السجين بأنه الخيار الأفضل له:

– وقع بالتي هي أحسن، إن لم تفعل سوف يقضى عليك لأنك لن تربح هذه القضية فلديهم الأدلة الدامغة.

فماذا تفعل ان كنت في موقف كهذا؟ لا عجب أن ترى العامل المشترك بين هؤلاء السجناء في سجون أمريكا هم من السود، الفقراء غير المتعلمين، ليس لأنهم مجرمين بل لأنه قد أُجرم بحقهم.

(77)

سفينة نوح

تقول القيم الأمريكية السامية بأن الناس سواسية أمام القانون كأسنان المشط، وهي عبارة صحيحة فقط عند معرفة الحيلة ورائها. فهناك قانونا واحدا للسود وآخر للبيض، دعني أوضح لك ذلك.

إن جاز لي التشبيه، أمريكا أشبه بسفينة نوح (عليه السلام)، فهناك زوجين اثنين من كل شيء واحد للبيض وآخر للسود. فخذ على سبيل المثال: المدارس، فهناك واحدة خاصة للبيض وأخرى للسود. وحتى الجامعات، في كل ولاية هناك جامعة للبيض وأخرى(A&M) للسود. أما بالنسبة للمناطق، فهناك منطقة للبيض وأخرى للسود؛ وحتى الأغاني واللباس، ونوعية الطعام، وحتى الكنائس للعبادة، هناك واحدة للبيض وأخرى للسود.

قس على ذلك القانون الأمريكي، سواء على مستوى الولاية أو على المستوى الفيدرالي. فعلى الرغم من أنه (مبدئياً) هناك قانون واحد، فهناك دائما تأويلان أو تفسيران أو تطبيقان، واحد للسود والفقراء، والآخر للبيض والأغنياء. وهي حقيقة يشهد عليها "جوزيف ستاك" الذي، بعد أن طفح كيله، قام في عام 2010 باختطاف طائرة شخصية، وقادها ثم اصطدم بها بمبنى الضرائب الفيدرالي في منطقة دالاس في ولاية تكساس، فقتل نفسه وثلاثة من الآخرين. فنرى رسالة على الإنترنت كتب فيها:

- هناك قانونا واحدا في أمريكا ولكن لكل قانون هناك تفسيران واحد للفقراء والآخر للأغنياء.

وحتى مسألة العقوبات، فهناك العقوبة القصوى للجريمة، وهناك العقوبة الأدنى لها. ولعلك تعلم الآن لمن تُعطى العقوبة القصوى لنفس التهمة. فهذا "براين" الأبيض قد حكم بخمس سنوات وهي (العقوبة كحد أدني) للسرقة، وهذا الأسود "جوني كراس" قد حكم عليه بـ 30عام (وهي العقوبة القصوى) لنفس التهمة السرقة. هذا هو نظام القضاء الأمريكي. فإن كان لك رأيا آخر، فحقا انت لا تعرف ولو ذرة عن العدالة الأمريكية. وجب عليك السكوت يا أحمق!

كما أن هناك الأبيض والأسود لكل شئ في أمريكا، كانت هناك أيضا نوعية المخدرات. فإن الكوكايين البودرة هو نوع المخدرات المفضل لدى العرق الأبيض. أما العرق الأسود فهم يفضلون الكوكايين الصلب. لعلك تتساءل الآن، وما الفرق؟ فالناس أذواق! صحيح ولكن القانون الأمريكي يُعاقب بإختلاف جذري عند الإتجار بالصنف الأول مقارنة بالاتجار بالآخر. فعلى سبيل المثال، إذا تم القبض عليك وبحوزتك كمية 1 أونصة (29 جرام) من الكوكايين البودرة، فإن عقوبتك هي 18 شهرا تحت الملاحظة وليس السجن. ولكن إذا تم القبض عليك وبحوزتك نفس الكمية من الكوكايين الصلب، فإن العقوبة هي السجن 30 عام. نعم 30 وهذا ليس بخطأ مطبعي.

وما الفرق بينهما، فكلاهما كوكايين؟ لاشيء. إن الكوكايين الصلب هو الكوكايين البودرة ذاته ولكن مخلوط بالـ "بيكن صودا" وذلك ما يجعله صلبا كالصخرة. والبيكن صودا ليس ممنوعا

حيازته. فلم كل ذلك الاختلاف في العقوبات؟ "إذا عرف السبب بطل العجب". فالكوكايين الصلب هو مايصنعه السود ويفضله، وهو الأكثر انتشارا بينهم، أما الكوكايين البودرة هو الأكثر انتشارا بين البيض؟ فما هو رأيك بالعدالة الأمريكية؟ لا عجب اذن أن يكبوا السود بالسجون كباً كباً، ويرحمون البيض وداً وداً.

وماهو موقع العرب عموما من الإعراب في هذه الدراما الأمريكية؟ يُطلق علينا الأمريكيون العديد من الألقاب. إلى كوننا "الارهابيين" فهناك ألقاب نشترك فيها مع سود أمريكا مثل "الشعوب الملونة" و"الرجل البني" و "عبيد الصحراء" أو "زنوج الصحراء" (sand niggers) .فما هو مخصص للسود من قوانيين وعقوبات وحتى الألقاب البذيئة، توظف على العرب والمسلمين الآخرين كالهنود والباكستانيين. أما في سجون أمريكا فيعامل العربي مثلما يعامل السود وأسوأ قليلا والفضل يعود إلى "الحرب على الإرهاب".

الشاي البارد المثلج

وكما تحدثنا سابقا، عندما وصلت سجن مايو مُبعدا من سجن القرن لعدم رغبتهم في وجودي لأني أعد "خطرا على أمن السجن"، تم وضعي في الحبس الإنفرادي في سجن مايو مباشرة. جلست فيه مايقارب الشهرين ورأيت ما رأيت من ظلم وعدوان، وانتهى التحقيق على خير والحمد لله العلي القهار فهو, "خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" (الأنفال: 30).

فأُرسلت إلى العنبر حيث السرير المخصص لي، وهو السرير22 العلوي، ويشبه هذا العنبر المهاجع العسكرية. فبمجرد الدخول من الباب الرئيسي تتراءى لك الأسرّة مرتبة ومصفوفة صفاً صفاً، بعضها فردي وبعضها الآخر ذات طابق علوي، مصفوفة على أطراف الحوائط (البيضاء والنظيفة للغاية) والتي يبلغ عددها 86 سريرا. وكما يحدث في الحبس الإنفرادي، يجب عليك الإستيقاظ من النوم في الصباح الباكر، وحلاقة ذقنك، وترتيب فراشك، ثم الوقوف بجانب سريرك منتظرا الضابط والرقيب للمرور لفحص ذقنك وفراشك.

وعند دخولي إلى العنبر وجدت فهيم إبراهيم، صاحبي المغربي، في العنبر، وهو الآخر قد قامت سلطات سجن القرن بإبعاده عن سجن القرن وجلبه إلى المقبرة. وبعد السلام طلبت منه إحضار بعض الماء البارد للشرب لأروي به عطشي. وفي تلك الأثناء قمت بوضع أغراضي في الدرج المخصص لي في أسفل السرير، وقمت بترتيب فراشي، وبعد دقائق عاد فهيم ومعه كأس من الشاي البارد فقلت له:

– شكرا ولكني أريد بعض الماء.

فأجاب مبتسما ابتسامة شبه حزينة:

– هذا ماء وليس بالشاي البارد.

ولكن كان لونه برتقاليا مثل لون الشاي! أهذا ماء للشرب؟ أم أنه ماء المرحاض الذي لم يُجر سيفونه بعد؟ لونه كلون الماء الذي يجلبه السجانة إذا ما طلب منهم القليل من الماء لشربه في الإنفرادي. ولكن أقسم فهيم إبراهيم بأنه جلبه من حنفية ماء الشرب المتواجدة في زاوية المهجع. وقال فهيم معقبا:

– أهلا بك في سجن مايو.

وتملكني الفضول فأنا رجل فضولي. ذهبت لكي أتقصى الحقائق وأتأكد بنفسي من الماء الذي يقوم هؤلاء الظلمة بإعطائنا لشربه؟ فلا أحد يستطيع شراء مياه معدنية من الكانتين لغلائها، وكأنها تتبع أسعار السياحة والفنادق الخمسة نجوم. وبعد الدراسات والفحوصات والقراءة عن الموضوع، وبمساعدة زوجتي الخدومة التي أرسلت لي شتى المعلومات من صفحات الإنترنت، إستطعت فك طلاسم الموضوع وغموضه. وياليتني لم أفعل!

وكما هي مقولة الممثل الأمريكي جاك نيكيلسون عن الحقيقة، "أحيانا، أنت لست مستعدا للحقيقة!". فبعد فحص مؤسسات وزارة البلدية الفيدرالية؛ وأقسام حماية البيئة EPA ؛ والأقسام المسؤولة عن المياه على المستوى المحلي لمنطقة مايو والمناطق المجاورة؛ ومنظمة حماية البيئة العالمية؛ وشركات المياه التجارية للمياه الجوفية في شمال ولاية فلوريدا؛ تبين وجود أنواع كثيرة من البكتيريا والجراثيم، ومسببات الأمراض العضوية في كل عينة من عينات مياه منطقة مايو وعددها 22 عينة.

بالإضافة إلى ذلك، وجود بكتيريا خطرة وتُدعى "إكولاي" (E–coli) في جميع تلك العينات. ولكن ما مصدر تلك البكتيريا الخطرة؟ إن مصدرها الرئيسي هو براز الحيونات مثل الفئران والبقر. فعند فحص المياه المتوفرة في سجن مايو من قبل فريق الصحفيين من القنوات الإخبارية مثل الـ سي إن إن (CNN) و إلـ إم إس إن بي سي (MSNBC) وخبراء البيئة من منظمة حماية البيئة (EPA)، وجد أن فيها خليط من براز الفئران وبراز البشر، وبنسبة عالية مسببة للمرض. وماهي الأمراض والأعراض التي تسببها البكتيريا الـ " إكولاي" تلك؟ أشهرها آلام الرأس، والغثيان، وآلام المعدة، والتسمم، وفي حالات نادرة قد تؤدي للموت.

وما هو الحل؟ إنها مسأله تتطلب حلا جذريا—كما تقرها منظمة حماية البيئة—ألا وهي بناء مصافي للمياه، وهو أمر قد يكلف الولاية المئات من الملايين من الدولارات. ولن تقوم سلطات سجون الولاية بعمل ذلك. فما هو حل تلك السلطات إذن؟ القيام بإجراء مؤقت وهو خلط تلك المياه مع مادة الكلور قبل ضخه في سجون شمال فلوريدا—والتى منها سجن مايو بالطبع —ولكن السلطات على علم يقيني بعدم جدوى ذلك الحل مما حدى بهم لتحذير موظفيهم:

– لا تشرب من هذا الماء أحضر قارورة مياه معدنية.

إن لضخ ذلك الماء المخلوط بنسبة عالية من الكلور ميزة واحدة فقط. ألا وهي عدم الحاجة لاستعمال الصابون عند الاستحمام. فرائحة وطعم ذلك الماء هو كرائحة وطعم الكلوروكس، تلك المادة المبيضة للملابس البيضاء. أما آثارها السلبية فتتمثل بدمع العين دون توقف، والإصابة بالحرقة والإحمرار، وآلام في الرأس وسقوط الشعر. وبعد زمن ليس ببعيد، يصبح مستخدمها أصلع الرأس، ولله الحمد.

(إلى تاريخ كتابة هذا الكتاب، سبتمبر 2015 ، مازال الماء مصفرا، ومازلنا نشرب منه لعدم وجود أي خيار آخر، والسبب؟

"وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ" (الأنبياء:30)

الرماة المحترفون

رقم سريري في عنبر أ هو 22 علوي، وهو السرير المقابل لغرفة السجانة ذات الحاجز الزجاجي، والتى تبعد حوالي 50 مترا عن سريري. وإضاءة غرفة السجانة خافتة جدا حتى أنه لايمكن رؤية من بداخلها بوضوح، فهي مصممة بطريقة تؤهل لمن بالداخل رؤية الذي بالخارج؛ أما الذي بالخارج لا يستطيع رؤية من هم بالداخل. على عكس إضاءات المهجع العالية جدا، والتى تشعرك وكأنك في ملعب كرة قدم للمحترفين المليء بالكشافات المضيئة.

وعلى يميني في السرير العلوي رقم 23 شاب أسود نحيف جدا، وكأنه من ضحايا مجاعة أثيوبيا في التسعينيات. لم يكن عضوا من أعضاء أي عصابة ولكنه ينتمي إلى كتيبة يطلق عليها "الرماة المحترفين". هناك في سجون أمريكا عموما فئة من السجناء يُطلِق عليهم الآخرين لقب "الرماة المجانين". وهؤلاء المساجين (الذين غالبيتهم من السود، والقليل من اللاتينيين والبيض) هم المهووسون جنسياً، الذين لا يستطيعون السيطرة على شهواتهم عند رؤيتهم للجنس الآخر، غير مبالين بالعواقب. وتلك العادة الوخيمة ما هي إلا من عواقب الحبس الإنفرادي لمدة سنة، أومنع الزيارة عنهم لمدة طويلة، أو حتى إلصاق التهم بهم والتجني عليهم.

وهؤلاء الرماة لا يأبهون البتة بعواقب أفعالهم. فأكثرهم محكوم عليه بالمؤبد على أية حال. فليس هناك ما يمكن خسارته، فلن يناله—في بعض الأحيان— سوى الضرب المُبرح على يد السجانة، وقد إعتاد على ذلك أصلا. فعند دخول إحدى السجانات النساء، أو إحدى الممرضات، أو حتى إحدى موظفات إدارة السجن، ينسى "الرماي" نفسه، ويشرد تماما وكأنه منوم تنويما مغناطيسيا. فإن كان في منتصف لعبة الشطرنج أو لعبة الورق مثلا، يبدأ بإقتراف الأخطاء وعدم الإنتباه لدرجة تمكنك من الفوز عليه في ثوان. فتراه هائما تائها لا ينظر إلا نحو تلك الآنسة (أو العجوز)، فيدور عليها وكأنها دوار"البدع". فإذا ما قامت تلك الآنسة أو العجوز بالدخول في غرفة السجانة ذات الحوائط الزجاجية للمراقبة، يبدأ الأعضاء الآخرين من "كتيبة الرماة المحترفين" بالصراخ:

- هناك جبنة في المصيدة!

وهي عبارة تُقال لإخبار الآخرين بأن ثمة إمرأة في غرفة السجانة للمراقبة. فيبدؤون بالتناوب على الأماكن المخصصة للاستحمام، وهي عبارة عن مساحة طويلة، رُصت فيها "الدش" أو "الشاور" وهي الحنفيات العمودية للإستحمام الواحدة بجانب الآخرى، فلا يفصل بين تلك المساحة المخصصة للاستحمام وغرفة السجانة سوى حائط، يبلغ طوله متر واحد، موضوعا كفاصل وسترة للمساجين عند الاستحمام. يدخل أحدهم ساحة الإستحمام ويبدأ بممارسة العادة السرية وهو عاريا مبحلقا تجاه غرفة السجانة للحصول على اللذة وإشباع شهوته الجنسية.

إعلم أنه لا تُعارض كل النسوة السجانات ما يفعله هؤلاء المهووسين من تخييل سقيم. فبعض السجانات يجدنه أمرا مضحكا للغاية؛ والبعض الآخر يستمتعن بالشعور بأنهن مرغوبات

أو"قمة في الإغراء"، وذلك لقلة حظهن من الجمال والجاذبية، فالقلة من الرجال (في العالم الحر طبعاً) من يتغزل بهن وذلك لقبحهن وسمنتهن وأحيانا لفقدهن لأسنانهن الأمامية.

وفي إحدى الليالي، قمت من نومي للذهاب إلى الحمام، فوجدت الشاب الأسود النحيف تحت الغطاء وعيناه تبحلقان بغرفة السجانة والتي تبعد عنا 50 مترا، ويده تتحرك تحت الغطاء وكأنه يمارس العادة السرية. ولكن الأضواء كانت خافته في كل العنبر وأيضا في داخل غرفة السجانة، فماذا بإستطاعة ذلك الأحمق أن يرى؟ لا أعلم. وفي أثناء توجهي نحو الحمام، مررت بجانب غرفة السجانة فألقيت نظرة لمعرفة من بداخلها فلم أرى أحدا. لم أرى سوى مكنسة الأرض اليدوية ذات الخيوط المشرشرة كانت قد وضعت رأسا على عقب (عصايتها إلى الأسفل) فبدت لذلك الأسود المهووس من بعيد—وتحت الأضواء الخافته—وكأنها إمراة ذات شعر طويل.

وفي صباح اليوم التالي قررت أن أوجه لذلك الشاب المهووس نصيحة لوجه الله، موضحا له مساوئ ممارسة العادة السرية، وأن عليه الصبر وإشغال نفسه بممارسة هواية مفيدة أو ممارسة الرياضة. لكنني لا أظن أنني وُفِقت في إقناعه، فالأمراض النفسية متفشية بشكل كبير جدا في السجون الأمريكية. قال لي بأنه حاول ذلك سابقا ولم تصلح الفكرة:

– حتى في وقت الإحتلام، أراني أحتلم بأني أمارس العادة السرية، أيضا!

ضعه في الشنطة الخلفية

يوسف الحلو هو شاب فلسطيني من الضفه الغربية، كان يعيش في مدينة تامبا في منتصف فلوريدا. تم إعتقاله مرات عديده لتجارة المخدرات، وأُعطي أحكاما مختلفة آخرها كان حكم بالسجن لمدة 25 سنة، أي أنه سوف يخرج من السجن عندما يبلغ الـ60 من العمر. وبعد قضائه سنين في سجون الولاية المتعدده، نُقل أخيرا إلى سجن مايو، ووضع معي في العنبر "أ". كان أصدقاء يوسف يقومون بزيارته في عطلة نهاية الإسبوع بشكل مستمر، وبعد قضائه ساعات معهم في القاعات المخصصة للزيارة والتي تسمح بالإختلاط مع الأهل، يقوم الحلو (والذي، على فكرة، لا يطابق شكله إسمه) بالعودة إلى العنبر متجها لإستعمال المرحاض مباشرة، حيث يقضي وقتا طويلا هناك.

في باديء الأمر، إعتقدت بأنه يعاني من الآلام بالمعدة. ولكن بعد فترة من الزمن، إضطررت لسؤاله، فكان جوابه دائما، "معدتي ليست معتادة على تلك النوعية من الأطعمة". ولكن أحيانا يذهب الحلو إلى قاعات الزيارات لفترة قصيرة جداً، ثم يعود متجهاً مباشرة للمرحاض فيعتكف عليه. ولم يكن ذلك بالشيء الغريب الوحيد الذي كان يقوم به الحلو. فتراه دائما في محادثات سرية مع مساجين آخرين، سواء في العنبر أو ساحات الملاعب، فيعقد إجتماعات مغلقة مع شتى أنواع المساجين، كالأبيض، والأسود، والطويل، والقصير، والنحيف، والسمين، والطيب، والشرير، والقبيح... إلخ.

بالإضافة إلى ذلك، كان الحلو كثير التحدث عبر سماعة الهاتف الحكومي المعلق على حائط العنبر، وهو يحمل بيده اليسرى قصاصة من الورق وفيها أرقام ما! أحيانا كنت أدعوه للصلاة في زاوية العنبر، فكان يرفض ويجيب بأنه مشغول ثم يقول:"إدع الله أن يوفقنا يا زلمه".

وفي يوم من الأيام، ناداني للجلوس على سريره ليريني شيئا ما:

– تعال، اقترب.

ففتح الدرج الخاص به الواقع تحت سريره وإذا بداخله هاتفا نقالا بحجم الولاعة، على الرغم من أنها ممنوعة في سجون الولاية منعا باتا، وعقاب الحيازة على هاتف نقال شديد: سنة كاملة بالحبس الإنفرادي. فقلت له:

– ويحك يالحلو. من أين لك هذا؟

فراح يبتسم قائلا:

– الرزق يحب الخفيه.

وقام ببيعه بـ 1000 دولاراً على الرغم من أن سعره لا يتعدى الـ 100 دولاراً في خارج أسوار السجن. وفي وقت آخر، وبينما نحن على سريره نتحدث، ظهر أحد السجناء وبدا على وجهه

الغضب فراح يصرخ بوجه الحلو قائلا:

- البضاعه تبعث رائحة كريهة وكأنها رائحة البراز!

فقام يوسف الحلو محاولاً تهدئته وخفض صوته، لكي لا يسمع الآخرين حوارهما. وبعد أن رحل السجين الغاضب، سألت الحلو عما يجري، فرد علي قائلا:

- زباين ما بنخلص منهم.

فلم أفهم ما يدور حتى وقعت الفأس بالرأس.

ففي إحدى عطل نهاية الإسبوع، ذهب الحلو كالعادة إلى قاعة الزيارات، ولكن لم يعد هذه المرة إلى العنبر. وبعد برهة من الزمن، دخل السجانة إلى العنبر وإلى سريره وقاموا بجمع أغراضه من درجه، أي تم نقله إلى الحبس الإنفرادي. فسألت أحد السجانة مستفسراً:

- أيها السجان، ماذا حصل للحلو؟

لقد أفشى أحد الجواسيس الذين يعملون لصالح السجانة ما كان يقوم به الحلو. فقد كان يذهب إلى قاعة الزيارة لكي يستلم المخدرات من الزوار الذين يضعونها في داخل أجسامهم مغلفة ومحكمة إحكاما ضد الماء والبراز، ثم يتجهون للحمام في قاعة الزيارة ويخفونها فيه، ثم يقوم الحلو باستلامها من الحمام من المكان المتفق عليه ووضعها داخل فتحة الشرج، حتى يدخلها إلى العنابر بعد مروره وإجتيازه للتفتيش الذاتي الروتيني، بحيث يتعاطى جزءا منها ويتاجر ببعضها الآخر.

تلك الإخباريه جعلت السجانة في إنتظاره عند عودته محملا في "شنطته الخلفية" ومخزنا فيها البضاعة (الصنفؤفؤ). ثم قاموا بالإنقضاض عليه وأخذه مباشرة إلى غرفة العمليات، في العيادة، وألقوه على السرير على بطنه. وراح بعض السجانة يمسك بيديه ورجليه، بينما قام البعض الآخر بوضع الكفوف النايلون والكريم السائل عليها واستخراج المخدرات من شرج الحلو. ولم تكن المهمة بالسهلة أبدا، حيث سادت العملية الصراخ والبكاء والعويل من قبل الحلو، إلى جانب الإغماء والإعياء من قبل بعض السجانة لقباحة المنظر؛ بل أن احدهم قد تقيئ على ظهر الحلو؛ بالنهاية، تسببت هذه العملية بنزيف وخياطة 12 غرزة.

وعند سماع المساجين الآخرين لما حدث ليوسف الحلو، قال أحدهم معلقاً:

- كان الحلو داهيه! وكان حشيشه عجيبا خاصة ذاك ذو رائحة البراز! فلقد كان أقواهم مفعولا، بسبب اختلاطه بالبراز واللة أعلم. لذلك، كنت انصحه دائما "بالشخ" على البضاعة قبل البيع!.

كافيه شيشة: فرع السجّن

هل تعلم بأن هناك أربعة نافذات للكانتين في كل سجن من سجون ولاية فلوريدا؟ وأن دخل كل نافذة منها ما يقارب الألف دولار يوميا، أي أن دخل الأربعة نوافذ تعادل أربعة آلاف دولار يوميا للسجن الواحد. وكما ذكرت سابقا فهناك ما يقارب من الـ 100 سجن في ولاية فلوريدا وحدها. وما عليك سوى حساب ناتج 4 آلاف × 100= 400 ألف دولارا يوميا. وهو مدخول سجون فلوريدا عموما من الكانتين.

ولكن الأمر يصبح أكثر عجبا إذا ما علمت بأن ذلك المبلغ ليس عائدا إلى سجون الولاية، بل لشركة تجارية من شركات القطاع الخاص وتسمى 'كيفي"، وأصحابها هم عائلة بوش الأب وأبناءه. فقد حصلت شركة، 'كيفي" على مناقصة الولاية عندما كان حاكمها "جب بوش" في أوائل الألفين، وهو إبن وأخ الرؤساء السابقين للبيت الأبيض.

وماذا تبيع شركة 'كيفي" في الكانتين المذكور؟ كل شيء تقريبا من السندويشات البرغر الحارة، والمشروبات الغازية، والآيس كريم، والبطاطا المقلية، والشيكولاته بأنواعها المختلفة، إلى جانب أدوات النظافة الشخصية كالشامبو والصابون وغيرهما. أما بالنسبة إلى الأسعار، فهي أسعار فندقية، حار نار! وكأنك في فندق الماريوت في القاهرة.

وعندما إنتخبت فلوريدا حاكمها الجديد، "ريك سكوت"، كان أول ما قام بفعله الحاكم الجديد (فيما يخص سجون الولاية طبعاً) هو إعطاء مناقصة لشركة جديدة لتوفير أجهزة الـ mp3 للأغاني، وكل أغنية تقوم بتنزيلها من على الإنترنت تكلف الدولارين. فعليك الحساب. علما أن صاحب هذه الشركة الجديدة هي إبنة ريك سكوت حاكم ولاية فلوريدا الجديد.

فهل لنا من الطيب نصيب؟ إتفقنا أنا وفهيم إبراهيم المغربي بالتجارة في سجن مايو. فقمنا بالاتجار بسجائر اللف والقهوة (فرع جديد لكافية شيشة)، ولكن في السجون. حيث نقوم بشرائها بالعلب وبيعها قطاعي. أما بالنسبة لوسيلة الدفع، فهي المقايضة في أغلب الأحيان، مثل طوابع البريد (وهي العملة المتداولة بين المساجين) أو شوربة أندومي المربعة. فكانت التسعيرة كالتالي:

1 سيجارة لف مقابل طابع واحد

1 ملعقه قهوة النسكافيه مقابل طابع واحد

2 سيجارة لف مقابل 1 شوربة أندومي

2 ملعقة قهوة النسكافيه مقابل 1 شوربة أندومي

وهناك في العنبر ما يقارب الـ 86 شخصا والكثير منهم يدخن ويشرب القهوة. فقمت أنا وفهيم بتقسيم العمل على النحو التالي: يقوم فهيم بلف السيجارة، وأكون أنا خبير عيار ملعقة

القهوة. وبدأ عملنا التجاري وبدأت عملية جني الأرباح، وخاصة بعد توفير ميزة "الدفع عند الإستطاعة". فترى الحائط فوق رأسي مليئا بالأسماء والخطوط التي تدل على مبلغ الدين لكل زبون.

ولكن قامت سلطات السجون عموما بإصدار قرارا قد خرب بيتنا وقطع رزقنا وهو وقف بيع التبغ بجميع أنواعه سواء السجائر أو السويكه، فقمنا بتخزين العشرات من علب سجائر اللف "لبيعها في السوق السوداء". وبسبب قلة العرض زاد الطلب، وهي المقولة الرأسمالية التي قمنا برؤيتها أمام أعيننا، فارتفعت أسعار سجائر اللف بشكل فظيع فكانت تسعيرتنا كالتالي:

1 سيجارة لف مقابل 3 دولار (من المأكولات، مقايضة).

فترى المساجين يقفون في طوابير عند سريري لشراء التبغ، وكأننا في طابور التموين في الجمعية التعاونية. وبعد فترة من الزمان، قلت كمية المخزون من التبغ، فجاء فهيم إبراهيم العبقري بفكرة عظيمة:

– لم لا نخلط باقي التبغ بنشارة أقلام الرصاص؟

وبعد تردد، قلت له:

– تأكد من ألا يراك أحدا حتى لا تكون العواقب وخيمة.

– لا تخف، سأقوم بالعملية ليلا عندما ينام الجميع.

وهذا بالفعل ما حصل، فقد قمنا بخلط التبغ بنشارة أقلام الرصاص، وبيعه بسلام على الزبائن، حتى انتهت كل كمية التبغ التي كانت بحوزتنا. فجاء فهيم بفكرة أعظم من السابقة:

– لم لا نقوم بتجميع السجائر المتبقية التي يرميها السجانة في الطفايات بعد الإنتهاء من التدخين وإعادة تصنيعها؟

فقام فهيم بإقناع السجانة ليسمحوا له بتنظيف غرفة المراقبة حتى يتسنى له أخذ السجائر المتبقية في الطفايات وتخبئتها في جيوبه، ومن ثم نقوم بتفتيتها وإعاده لفها مستخدمين أوراق كتابهم المقدس ذو الصفحات الشمعية الملساء. فكان فهيم يقوم باللف قائلاً:

– هذا هو العهد الجديد، إليكم هذا مني بالسلام.

تخيل بيع كل سيجارة لف بثلاثة دولارات. ثم جاء قرار السلطات بمنع الجميع، بمن فيهم السجانة، من التدخين في داخل أروقة السجون، مما دفع السجانة لتخزين السويكة في الفم عوضاً عن السيجارة. والسويكة عبارة عن تبغ رطب ذو نكهة، يُخزن في جدار الفم لساعات، لكي يمكن مادة النيكوتين من النفاذ إلى جسم الشخص. فترى السجان وبيده كوبا من الفلين الأبيض يبصق فيه للتخلص من السويكه المستعملة. وعند الإنتهاء يقوم بإلقاء كوب الفلين الأبيض في سلة المهملات.

وهنا يأتي دور فهيم، حيث يقوم "بتنظيف" غرفة السجانة، وإخراج سلة المهملات منها واسترجاع ذلك الفلين وتخبئته في جيبه. ثم نشرع بالعمل، حيث أقوم أنا بتفتيت ذلك الذهب الأسود على ورقة جافة، وتجفيفه تحت الهواء الطلق، ومن ثم أقوم بلفه بورق الكتاب المقدس، فيصبح جاهزاً للعرض:

سيجارة لف واحدة مقابل 3 دولارات (من الطعام)

أي ما يعادل الدينار الواحد لسيجارة اللف الواحدة فائقة النحافة، والأقرب إلى عود المصاص النحيف! فهل من منافس؟ وقد صدقت المقولة: "الحاجه أم الإختراع". وبعد زمن ليس ببعيد، بدأنا نسمع عن حالات كثيرة من إلتهاب الكبد الوبائي، والتي بدأت بالتفشي بين المساجين، وخاصة بين الذين قاموا بتدخين بضاعتنا، السويكة الجافة المعاد تصنيعها واستعمالها من لعاب السجانة؟ فهل هناك علاقة؟ وجب القيام بعمل الدراسات اللازمة بغية التحقق من الأمر.

سألت فهيم إبراهيم عن نوعية الطعام التي كان أبواه يطعمانه عندما كان في المهد صبياً، فأجاب:

– الكثير من السمك المقلي، فنحن نطل على البحر.

فقلت لابد أنه ذلك السمك المقلي هو الذي أعطى هذا الرجل المغربي العبقرية للتفكير بهذه الأمور التجارية المربحة. فقال:

– ولله الحمد، أنا نبيه منذ الصغر.

ولكنني كنت دائم التعجب من ذلك "الأثر" الطويل المتواجد على خده الأيمن، فسألته أخيرا:

– فهيم، ماهذا الأثر على خدك الأيمن؟

فأجاب فهيم بعدم أريحية قائلاً:

– هذا جرح قديم، ناتج عن لعبي للعبة الرغبي عندما كنت صغيرا.

فقلت:

– لا أعتقد، يبدو لي أنك قد تعرضت لجرح في وجهك بآلة حادة كموس على سبيل المثال.

فقال متهربا من الإجابة:

– لا تقلب المواجع.

(82)

المحاربون الرومان

تُعد عنابر سجن مايو من أخطر العنابر في ولاية فلوريدا بأكملها، ولربما في أمريكا كلها وذلك لعدة أسباب:

السبب الأول: إن سجن مايو حديث جداً، فهو لم يبنى إلا في عام2011، وهذا يعني أن شركات المقاولات قد خلفت جميع أنواع القطع الحديدية في ساحتها الرملية. فعوضا عن تنظيف الأرضيات من تلك المخلفات المعدنية قبل البدء بنقل المساجين إلى هذا السجن، قامت شركات المقاولات بملء الأرضيات بالتراب ثم زرع العشب فوقه معتقدين بأنهم قد قاموا بحل المشكلة. ولكن ليس عليك سوى الحفر 10 سنتيميتر بالأرض لإستخراج العشرات من القطع المعدنية الحادة وغير الحادة وتحويلها إلى سكاكين وأدوات قتل أخرى. تخيل بينما نحن جلوس تحت المظلات الكبيرة المبنية من الأسفلت، نرى العشرات من المساجين يقومون بصنع السكاكين عن طريق حكها بأرضية المظلات الأسفلتية. وبعد ساعة من العمل المتواصل، يتوفر لديهم العشرات من السكاكين الحادة للإستعمال أو للبيع (فهناك بعض المساجين من يتخذها تجارة). سكاكين حادة يمكن ضرب عنق الجِمال بها!

السبب الثاني: يُعد مساجين سجن مايو من أخطر السجناء على الاطلاق، وذلك ليس راجعاً فقط لنوع الجرائم التى إقترفوها من قتل وسطو المسلح، وإقتحام، وخطف، وإغتصاب، وحتى الحرق، بل أيضا لإنتمائهم لعصابات خطيرة. فمجرد الوقوع معهم في مشادة كلامية، مثل "لم تنظر إلي؟"، حتى يبدأ باقي أفراد العصابة بالظهور من كل حدب وصوب مسلحين بالسكاكين والأقفال بالأحزمة، فيبدأون بالإنقضاض عليك كإنقضاض الضباع على فريستها، "واللي يحب النبي يضرب". فيتحول الموقف إلى مشهد من فيلم "أوجُه الموت"، حيث يقف أحدهم في المنتصف ويلتف البقية من حوله وتوسعه ضربا بكل ما في متناول اليد كقطعة حديد، أو صخرة، أو أحذية... إلخ، بينما الضحية في الوسط مُلقى على الأرض دون حراك، تسيل منه الدماء.

السبب الثالث: إن شرطة وسجاني سجن مايو لا يبالون بشيء على الإطلاق نهائيا، ويتعاملون في المواقف الجادة بقمة البرود، فتُراهم إن حمى الوطيس ووصلت "الدماء للركب" لا يلتفتون إلى المعركة الدائرة، بل ويستمرون بالحديث فيما بينهما وكأن الأمر لا يعنيهم، وإذا قاموا... قاموا كسالى (وعلى التصوير البطيء)، لا يودون لمس أي شيء من حولهم (وكأن السجين نجس تعف نفوسهم عن لمسه). وفي كثير من الأحيان تجدهم وراء ما يحدث من مشكلات وخلافات بين المساجين. ولولا عناية الله ومشيئته لمات كل من في سجون أمريكا خاصة هؤلاء الذين لا ينتمون إلى أي عصابة أو مجموعة دينية.

السبب الرابع: تصميم العنابر من الداخل هو أحد أهم الأسباب لتفشي العنف والخطر في سجن مايو. فالسجن ليس عبارة عن غرف، يكون فيها كل سجين في غرفة ويُقفل عليهم الأبواب إلى اليوم التالى؛ بل بالعكس، فمبناه أقرب إلى المهاجع العسكرية، والعنابر مفتوحة على بعضها،

وكل الأسرّة موضوعة بجانب بعضها البعض. تخيل بأنك محاط بتلك النوعية من البشر وهم مسلحون بكل أنواع الأسلحة، وأنك ستنام بينهم دون حواجز أو أبواب.

وهذا فعلاً ما حصل في إحدى الليالي، حين أُطفئت أنوار العنبر في تمام الساعة 11 ليلاً كالعادة، حيث تقلبت قليلاً.وما أن أغلقت عيني وإستسلمت للنوم حتى عم المكان صوت صرخة مخيفة، وكأن أحدهم قد طُعن أو تم تشريط وجهه وهو في فراشه. وقبل أن أتمكن من فتح عيني، إمتزج صوت الصراخ والعويل بأصوات احتكاك الأحذية الرياضية الناتجة عن ملامستها الأرض وارتباك المساجين. وما إن فتحت عيني، حتى رأيت العشرات من السجناء وهم يحملون السكاكين والأقفال الحديدية ملوحين بها تجاه بعضهم البعض في وضع إستعداد للقتال، والكل يركض يميناً ويساراً، يهاجمون بعضهم البعض تارة ويتراجعون لحماية أنفسهم وتجنب الصدمات والهجمات المضادة تارة أخرى. وأنا جالس على سريري العلوي أشاهد كل ما يحدث بهلع وبنظرة عصفور صغير خرج من بيضته للتو.

وإزداد الصراخ والزعيق وبدأ الدم بالتطاير في كل مكان، على الحوائط والفرش والسرائر وحتى المساجين الآخرين. كل هذا يحدث بينما السجان نائم في غرفة "المراقبه"، ورجليه ممتدتين للأعلى على الطاولة الأمامية وكرسيه للخلف، وضعية العنجهية الأمريكية. ولم يفق من سباته إلا بعد أن قام أحد الضحايا الذي امتلأ قميصه بالدماء بالضرب على الزجاج الأمامي لمكتبه محاولا الإستنجاد به.

وعندما استيقظ السجان ورأى ذلك الشخص المدمي من رأسه إلى قدمه، قام بالضغط على زر الطوارىء حتى تحضر القوات الخاصة. ثم قام بإشعال أضواء العنبر، فبدأ المساجين المتعاركين بالإختباء تحت الأسرّة كما تقوم الصراصير بالهرب والإختفاء تحت خزائن المطبخ عند إشعال الأضواء عليها. وأخيرا دخل الكثير من السجانة لإحتواء الموقف بعد إنتهائه أصلا. وإذا بالدماء في كل مكان، فكان المنظر أشبه بالمجزرة. أما أنا، فكان قلبي يخفق بشدة ويدق وكأنه طبلة "برهان"، وكانت أقدامي باردة جدا لشعوري بالخوف الشديد، فها أنا أرى الموت أمام ناظري!

صاح أحد السجانة:

– من فعل هذا؟

فتساءلت في نفسي: مابال هذا المعتوه؟ أيظن أن أحدهم سيقوم بالوقوف ويرفع يده ويقول متطوعا، "أنا"؟

– فأضاف المعتوه قائلا:

– حسناً، لا يريد أحد الاعتراف؟

فقام هو والآخرون بتفحص أيدي وقمصان جميع المساجين. فإن كانت هناك ولو قطرة دم، أو حتى جرح قديم يشبه الدم، أو حتى صدأ على قميصك، قاموا بوضع الأساور على يديك وإقتيادك إلى الحبس الإنفرادي. وفعلا وضع السجانة الأساور الفضية على بعض السجناء حتى

البريء منهم. ثم قام السجان الآخر بفحص أقفال أدراج السجناء محاولا إيجاد الأقفال التى استعملت في أثناء تلك المعركة الرومانية عن طريق كشف آثار الدماء عليها. ثم وصل إلى درج سريري فنظر فلم يجد قفلي الحديدي، فقال:

- أيها الأخرق! أين قفلك؟

عليك أن ترى علامات وجهي لتعلم مدى إندهاشي لسؤاله. فنظرت نحو درجي، فلم أجد قفلي الحديدي. لقد سرقه أحدهم وإستعمله بالطبع كسلاح روماني في تلك المجزرة. فقام السجانة بوضع الأساور الفضية على يدي معتقدا بأني شاركت في تلك المجزرة. فتم وضعي في الزنزانة الإنفرادية على ذمة التحقيق بتهمة "الإنتماء إلى عصابة" و "تحويل القفل المعدني والحزام إلى سلاح خطير". ياله من حظ تعيس! أو كما يقولون بالأسبانية، "أي تنغو سويرته!"

وقبل أن أنتهي من أن أقص عليك أحسن القصص، هل تعلم ما هو السبب وراء كل تلك المجزرة؟ رفض أحد السجناء دفع ما عليه من دين. وهل تعلم ما هو ذلك الدين؟

حبة واحدة من شوربة إندومي.

نظرية في العدوان

ها أنا من جديد في الحبس الإنفرادي، ولا أعلم ما هو رقم هذه الرحلة، السابعة أم التاسعة أو حتى العاشرة في هذا الإنفرادي اللعين. ولا أعلم المدة التي سوف أقضيها في هذا المكان اللعين، لربما هذه المرة لشهرين أو أكثر حتى يقوم هؤلاء السجانة المعتوهين "بالتحقيق" معي. ولكن، فعلا، كان وقتا كافيا للتأملات الفلسفية الميتافيزيقية اللولبية المنطقية الأرسطية السيلوجية السلوقية الرياضية. فبدأت أفكر بحالي وحال هؤلاء السجناء وحتى السجانة ومدى إنتشار العنف والإنتقام، والتحطيم، والكراهية والبغض. لم كل هذا العدوان؟

وبما أنني خريج قسم الفلسفة (وعلم النفس مساند)، قمت بالتأمل في سكون الليل عن موضوع العدوان، وهو موضوع يهم الشعوب أيضا وليس فقط السجناء. فإليك بعض تأملاتي التى أسوقها لك بسلام.

ما هو "العدوان" ولم يحدث وكيف؟ يمكننا تعريفه بأنه "هجوم طرف على آخر (دون داعي حقيقي ظاهر أو بعذر مختلق)". أما على المستوى الفردي، فهو "سلوك عدواني تحطيمي تجاه الآخر لسبب ما، من دون ذنب المجني عليه".ولكن لا يتضمن هذا التعريف عنف الإنسان تجاه الحيوان للأكل والعيش والبقاء، فهذا طبعاً يقع ضمن قوانين الطبيعة: " لكل فعل ردة فعل".

العدوان هو دافع داخلي فطري يقود سلوكنا العدواني تجاه جنسنا البشري. بمعنى آخر، سلوكنا العدواني تجاه البشر الآخرين هو نتيجة دوافع فطرية في داخل تركيبة الإنسان. فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يرتكب المجازر لنوعه البشري. إن العدوان المقصود هنا هو تحريك قوة عنيفة من شخص تجاه شخص آخر من دون أن يكون الشخص الآخر هو مصدر الإثاره. فعلى سبيل المثال لا الحصر، لم يقوم سجان برتبة "رقيب" بتحريك عدوانه تجاه مسجون لاحول له ولا قوه، بعد توبيخ الضابط الملازم الأول له؟ أو لم يقوم الضابط الملازم الأول بتحريك عدوانه تجاه سجين ما بعد حصول عراك بينه وبين زوجته في المنزل قبل حضوره للعمل، خاصة وأن السجين لا علاقه له بتلك الحادثة على الإطلاق؟ أو لم يقوم سجين بضرب سجين آخر في العنبر، بعد توبيخ السجانة له لسبب ليس للمسجون المسكين أي دخل فيه؟ هنا يبدو أن العامل المشترك بين هذه الأمثلة هو "تدوير" أو "توجيه" أو "إعادة توجيه" أو "تغير مسار" أحد الأطراف عدوانه من مصدر الغضب والإثارة نحو شيئا آخر أو شخص آخر، السجين المسكين أو الرقيب. ويفعل ذلك لعدة أسباب:

1- الضعف الجسدي للشخص العدواني: فهو لا يستطيع مواجهة مصدر الغضب لضعفه الجسماني أو قوة الطرف الآخر الجسدية.

2- الضعف المادي للشخص العدواني: فهو لا يستطيع مواجهة مصدر الغضب تخوفا من العواقب التي ستقع كالفصل من العمل أو طرد زوجته له من البيت.

3- الضعف النفسي للشخص العدواني: فهو لا يستطيع مواجهة مصدر الغضب لفقده الثقة في نفسه أو نتيجة لقولبة عقلية بأنه لن ينتصر.

4- ضعف الضحية: على الرغم من أنه لا دخل له في ما حدث للشخص العدواني، إلا أن ضعفه الجسماني قد دعى الآخرين لـ "تغير مسار" العدوان تجاهه كما قال المثل الكويتي "أبوي ما يقدر إلا على أمي"، أو مقولة دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكي السابق، "الضعف كان للعدوان داعيا".

5- عدم إدراك العدواني لما يفعله: فإدراك الموقف والإحتمالية بأنه سوف يسلط غضبه على الشخص الخطأ، لذلك نقول أحيانا "إبعد عن وشي الساعه دي! فأنا غاضب"، فلا تكون أمام فوهة المدفع.

6- عدم تقنين دوافع العدواني: عدم وجود قنوات للتنفيس وإخراج هذا العدوان نحو أمور إيجابيه. فالعدوان شعور فطري في داخلنا، لذلك يجب علينا إيجاد مخرج للتنفيس بصورة أو بأخرى.

إن مسألة العدوان منحوته في الطبيعة الإنسانية، فكل منا لديه ذلك البركان فحين يبدأ العدوان بالتراكم يكون البركان على استعداد للإنفجار. وفي معظم الأحيان، يكون في وجه الشخص الخطأ. فما هو الحل؟ يقترح العبدالله الفقير بعض الحلول لتغير مسار العدوان وتقنينه وتحويله إلى قوة إيجابية تدفع الإنسان إلى الأمام فلا تحطم الآخرين. وإليك بعضها:

1- توفير الملاعب والألعاب الحماسية لإستخراج الشحنات الكهربائية والطاقات المكبوتة، كما أن أغراض السكراب والخردة تعد طريقة جيدة للتنفيس عن الغضب والتوترات.

2- إقامة الدورات الرياضية التنافسية. فالتنافس والفوز والخسارة واللعب بقوانين اللعبة يعتبر مصدرا جيدا لتغيير مسار العدوان. والأمثلة على ذلك مباريات كرة القدم بين إيران وأمريكا، إسرائيل وفلسطين، وكوريا الشمالية والجنوبية، وإنجلترا و أيرلندا الشمالية... إلخ. هنا يخدم تقنين التنافس الجماعي في صورة مباريات رياضية بدلا عن الحروب والمجازر.

3- مكافحة عدم الثقة بين الأفراد والجماعات عن طريق التعارف والصداقات الشخصية. فإن كنت تعرف الفرد سوف تقوم بمعذرته عند الخطأ.

4- ممارسة الشعائر الدينية: بما فيها من أدعية وتراتيل وأناشيد وغيره، ويعتبر الدين مصدر عظيم لتنفيس العدوان وتغيير مساره وإخراج شحنات التوتر والغضب.

5- يمكن تغيير مسار العدوان بالاتجاه للرسم والفنون الجميلة بمختلف حقولها، مما يتيح للفرد وخاصة المسجون، تحويل طاقاته السلبية إلى أمور إيجابية، وإعادة الثقة بنفسه. وهنا تضرب عصفورين بحجر واحد: تغيير مسار الحماسة الناتجة عن العدوان والمصاحبة له وأيضا إعادة الثقة للأفراد. ومن خلال ملاحظاتي في سجون أمريكا المختلفه، وجدت بأن هناك علاقة تبادلية بين العدوان والعنف ونوعية السجن. فكلما إتسعت ساحات الملاعب وتوفرت الدورات الرياضية

والتنافس، وسمح للمساجين بممارسة طقوسهم الدينية، وسمح لهم بالإحتفاظ بأقلام الرصاص الملونة (فهي ممنوعه عموما)، كلما قلت نسبة العدوان والسلوك العدواني. لذلك يجب على الباحثين إعادة النظر في السجون وإعتبارها مراكز للتأهيل.

5- الاحتفاظ بحس الفكاهة والتفكير الإيجابي وتكوين العلاقات الطيبة والصداقات داخل أسوار السجن.

أما بالنسبة لي أنا شخصيا، فإني أدرك تلك المسألة لذلك أحاول تغيير مسار عدواني نحو أمور إيجابية مثل ممارسة الرياضة والتقرب إلى الله، وأخيرا الكتابة، كتابة هذه الصفحات، حتى لا ينفجر البركان في داخلي ويدمر ما حولي.

(84)

الأوس والخزرج

أخيرا، أطلقوا سراحي من الحبس الإنفرادي دون أي إدانة، على الرغم من أنهم إستغرقوا مدة الشهرين "للتحقيق". فالقانون المتعارف عليه بين السجناء هو عدم الإفصاح أو الإعتراف بهوية الجاني وإن كنت أنت نفسك الضحية، والسبب أنه "لا يعد من الرجولة الإفصاح". فلم يعترف المجني عليه للسلطات بأي شئ وانتهى الموضوع كما بدأ.

تم اخراجي من السجن الإنفرادي وفي أثناء ذهابي إلى العنبر"ف"، رآني بعض السجناء المسلمين فرغب بعضهم بمساعدتي في حمل أمتعتي، ولكني رفضت هذه المرة معتذرا لهم بأدب، حيث أدرك جيدا سيناريو الأحداث وما سيؤول إليه الموضوع مستقبلا خطوة بخطوة. وكما حدث في سجن القرن من قبل: مساعدة، فتعارف، فحديث، فتزكية، ثم الإمامة. وأنا والله لم أعد أريد تلك المسئولية والأسباب عديدة:

أولها: أنها مسئولية كبيرة تقع على عاتق الشخص يحاسبه الله عليها.

ثانيها: مشاكل السجناء كثيرة لا تنتهي وتأخذ من الإنسان الجهد الكثير للنظر فيها وحلها بنزاهة وعدل.

ثالثها: في حال الفصل في نزاعات قائمة بين السجناء المسلمين وإحدى العصابات، يجب إتخاذ القرار السليم وإلا سوف تتسبب بموت إنسان سواء كان مسلما أو غير مسلم أو حتى إيذاؤه، ولأجل ماذا؟ ساعة صفراء أو شوربة أندومي؟!

رابعها: تعبت من كثرة حبسي في الحبس الإنفرادي بسبب "تزعم" المسلمين. فبصراحة كفاني مرمطة في الحبس الإنفرادي ومواجهة أهوال الوحدة وخباياها.

ولكن ثمة شيئاً عظيما قد حصل في مطلع شهر رمضان المبارك قد غير كل الحسابات. كان ذلك الرمضان التاسع لي بعيدا عن أهلي، فبعث الله نعمته لي وأنا له ساجدا شكورا. اقترب شخصا إسمه سِدْ وقال لي:

- يقال أن رمضان غدا.

فأجبت بنعم متعجبا منه، فقال:

- أود الصيام معك

- وهل أنت مسلم؟

- لا ولكن أريد الإسلام الآن.

عجبا لهذا الرجل وسرعته في الدخول للإسلام. فقمت بتلقينه الشهادتين ثم طلبت منه الإستحمام ثم العودة من جديد لكي أعلمه الصلاة. لقد أصبح سد ذلك الرجل الأسود مسلما في أقل من خمسة دقائق. بينما ذهب سد للإستحمام، جاء رجلا أسودا آخر وإسمه تريجي وهو الآخر أراد الدخول في الإسلام والصوم معنا. فطلبت منه هو الآخر الإستحمام والعودة، فقمت بتلقينه هو الآخر الشهادتين كلمة تلو الأخرى بالعربية أولا ثم بالإنجليزية. فقلت محدثا نفسي، "عجباً! هذا أيضا دخل الإسلام بلمح البصر!"

ولكن من هولاء الأخوة؟ سِد هو زعيم عصابة "الكربت" وتريجي هو زعيم عصابة "الدماء"، وهما زعيمان على مستوى شمال ولاية فلوريدا. والعصابتان عدوين لدودين لبعضهما البعض، فهما في دوّامة تعارك منذ سنين عديدة. تحت كل من هذان الزعيمان المئات من أعضاء العصابة الذين على استعداد للثورة تحت رهن الإشارة. سِد محكوم حكما مؤبدا لقتله بعض الأشخاص سابقاً، أما تريجي فقد بقى من مدة حكمه خمسة سنوات.

بعد الإستحمام والطهارة، قمت بتعليمهما كيفية الصلاة في زاوية العنبر. ثم قمنا بأداء الصلاة جماعة وهما يقفان خلفي جنبا لجنب قدما لقدم وكتف لكتف. وبعد الإنتهاء من الصلاة، قاما بالمصافحة والعناق. فكيف لهذين العدوين اللدودين الوقوف صفا واحدا، وجنبا لجنب لأداء الصلاة، وثم السلام والعناق؟ كان الموقف غريبا وغير متوقعا بالنسبة لأتباعهما مما جعل الجميع ينظر إلى الموقف بدهشة وتعجب شديدين.

وفي ذلك الشهر المبارك ولمدة ثلاثين يوما متواصلة، كنا نقوم ليلاً ونهارا بالصلاة والإفطار والسحور معا. فتذكرت قصة الأوس والخزرج وكيف ألّف الله سبحانه وتعالى بين قلوبهم. فقلت سبحان الله، كيف يؤلف الله بين قلوب الناس بالإسلام. فهل ما قد درسناه في كتب تاريخنا الإسلامي المشرف يحدث أمام مرآى عيني؟ وبعد أن رآى باقي أفراد العصابتين بأنه قد تآلفت قلوب زعمائهم بفضل الله والإسلام، بدأ الكثير منهم يطلب نسخة من القرآن. وكالعادة، قامت زوجتي الطيبة بإرسال نسخاً عديدة لهم.

الحمد لله، لقد أكرمني الله وأنعم علي بنعمة الإسلام وكان لصفتي الصبر والتهذيب أثرهما الإيجابي في مسار الدعوة، مما أدى إلى لجوء البعض لي طالبا الهداية وهذا من فضل ربي. فتذكرت كلام الله وعيناي تفيضان بالدمع:

"وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" (النحل: 18)

فقمت بإلغاء خطة الإعتزال ولبيت مجيب النداء:

"لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ... لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ..."

منذ ذلك الوقت، في كل مرة أتجه فيها إلى ساحات الملاعب، أجد أحدهم، سواء منتميا إلى عصابة ما أو شخصا بسيطاً، يقترب مني محاولاً التعرف على الإسلام. وفي كل مرة، تجد أحدهم يعتنق الإسلام بعد بضعة أيام. سبحان الله، ها أنا في سجون أمريكا أرى العشرات

والعشرات ممن يعتنقون الإسلام على يدي، وكم قد إعتنق الإسلام على يدي قبل دخولي سجون أمريكا بينما كنت في جامعاتها ومحلاتها وحتى مقاهيها ونواديها الليلية وغيرها؟ صفر!

تخلى سِد عن منصبه كرئيس لتلك العصابة، وقام بإحضار أحد زعماء العصابات الأخرى "الحواريين السود" من أجل أن أقوم بتلقينه الشهادة. ففعلت، وتذكرت كلام الله:

"وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (فصلت: 33)

الأب الوايرلس

إن آخر مرة رأيت فيها إبنتاي حين كانتا صغارا جدا، حيث كانت الكبرى تبلغ الثلاثة أعوام والصغرى عام واحد فقط. وكان ذلك في العام 2006، واليوم فإبنتي الكبرى قد ناهزت 11 عاما، والصغرى أكملت 9 عاما. وها أنا أكتب هذا الفصل من الكتاب في يوم عيد الأضحى من عام 2015. لقد مرت علي عشرة أعياد أضحى في هذا المكان وباقي، والله أعلم، خمسة أعوام أخرى حتى أتمكن من رؤيتهما مجددا!

ولا يعلمان بأني في أمريكا مسجون، فهما يعتقدان أني مازلت أدرس في الجامعة، ولكني على إتصال مباشر ودائم بهما، أحادثهما عن طريق هاتف الولاية العمومي في داخل السجن، فأنا معهما دائما ولكن على الخط.

ولكن أسئلتهما قد ازدادت، وزاد معها شعوري بالحزن وقلة الحيلة. كيف لي أن أجيب على أسئلتهما البريئة وتساءلاتهما فيما يخص غربتي الطويلة، فتراني أحاول جاهدا عدم اظهار حزني وحقيقة وضعي في أمريكا:

- بابا ياسر! متى سوف تعود؟ ما هذه الدراسة التي لا تنتهي؟

- تعال في الإجازة على الأقل! ولم لا نستطيع نحن زيارتك؟

- بابا ياسر! أنا لم أرك منذ أن كنت أبلغ العام فمتى سوف أراك؟

وأسئلة أخرى مثل:

- بابا ياسر، ما نوع هاتفك النقال؟

- لم لا تشغل الكاميرا لنراك؟

- بابا ياسر! لم لا نستطيع نحن الإتصال بك؟ هل سنراك يوماً؟

أسئلة كثيرة ومتعددة ولكن الإجابة واحدة لا تتغير،"الله كريم". فماذا عساي أن أقول وبماذا أجيب؟! أنا أدرك جيدا مدى الضيق الذي تشعر به ابنتاي من كثرة سماعهما لهذه الإجابة المبهمة التي لا تعطيهما موعدًا محدداً يريح بالهما وييسر خواطرهما، ولكن بالفعل "الله كريم" وكرمه وجوده أكبر مما نظن، ولا أملك حاليا سوى الأمل بتحقيق حلم رؤية ابنتَي العزيزتين فلذتا كبدي، وثقتي بالله كبيرة.

كانت الفتاتان تستجيبان لأمهما عندما تطلب منهما الدعاء لي لكي أعود سالما؛ ولكن بعد طول المدة تسرب اليأس إلى نفوسهما وفقدت الفتاتان الأمل برجوعي، "لقد دعينا كثيرا، ولكن لم يعود بابا ياسر بعد!" . إلا أن فضول الفتاتان وبعدهما عني جعلهما تريدان معرفة كل شيء

عني: طولي، عرضي، شكلي، وحتى الأشياء المفضلة لدي مثل: رياضتي المفضلة، عطري المفضل... إلخ.

وعند زيارتهما لمنزل جدتهما (أمي)، تراهما تتوقفان عن اللعب وتبدآن بالانصات لكل كلمة يتحدث بها أهلي عني، فتحاول الفتاتان من خلال ما تسمعان من أحاديث جمع المعلومات وإستخلاص وإستنتاج أي معلومة عني، حتى لو كانت مجرد قصة عن طفولتي وشقاوتي عندما كنت صغيرا. وعندما أقوم بالتحدث مع أمي عبر الهاتف النقال الخاص بزوجتي، تجد الفتاتان تستمعان بتعجب لكلام أمي المليء بالدعاء والنصيحة والبكاء:

- إقرأ سورة الفيل عند مرورهم بجانبك... قل لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين... و حفظك الله من شرهم...

فتتعجبان كثيرا من كلام جدتهما ونصائحها: "شر من؟"، و "ما هو حاله؟"، و "مرور من بجانبه؟"... أسئلة كثيرة لا أجوبة لها الآن. ولكن يوما ما في المستقبل عند خروجي باذن الله سوف أتمكن من إخبارهما بكل شيء. حينئذن سوف تبلغ الفتاتان السادسة عشر والرابعة عشر من العمر، الذي قد يهيئهما لفهم واستيعاب الظروف التي مر بها أبيهم.

وعلى الرغم من شعوري الشديد بالألم لبعدي عن أسرتي وابنتاي إلا أن عزائي وجود هذا الهاتف وتلك الاتصالات التي تجعلني أشعر وكأنني أعيش معهم وأشاركهم—ولو عن بعد— أفراحهم وأحزانهم، والفضل يعود لله سبحانه وتعالى وأهلي. إن علاقتي بإبنتاي ممتازة جدا، فأنا أمارس معهما مشاعر الأبوة وإن كانت "وايرلس عبر الأثير". فنحن نتحدث كثيرا ونضحك كثيرا، وتستمتع الفتاتان بإلقاء الألغاز والنكات والطرائف علي، وأنا أجيب تارة وأتصنع عدم معرفتي الإجابة تارة أخرى، لأتيح لهما الشعور بالنصر والتغلب علي، وأنزل إلى مستواهما. فأقوم بالسير في ممرات العنبر روحا ومجيئا محاولا عصر مخي وذاكرتي وحتى سئل المساجين الآخرين لإيجاد ألغازا وطرائف يمكنني إستعمالها عند التحدث معهما في المرات القادمة، وهما تشاركاني المواضيع والأحداث التي تمر عليهما سواء في المدرسة أو مع صديقاتهما؛ كما تبثاني همومهما ومخاوفهما من صعوبة الإختبارات وكثرة الواجبات والمشاريع وغيره. وأنا للأسف الشديد لا أملك من الأحاديث والخبرات إلا أقساها وأعنفها، لذلك أشاركهما يومياتي بقصص تحمل القليل من الحقيقة والكثير مما نسجه خيالي محاولاً تجميل الواقع حتى تعتقدان أنني أقضي حياة طبيعية في أمريكا.

ولكن أحيانا تنقطع الخطوط فلا أستطيع التحدث معهن لشهر أو أكثر سواء بسبب وجود عطل في الهاتف، أوعدم توفر النقود، أو خلل في شبكة الإنترنت، أو حين تحاول الحكومة منع برنامج سكايب، أو حين لا يكون هناك تغطية. فشبكة إتصالي عبارة عن توصيلة معقدة لا يستطيع حتى "غراهام بيل" فك طلاسمها: هاتف نقال أمريكي، رقم هاتف أمريكي، برنامج كمبيوتر، رقم هاتف كويتي وأخيرا شركة الهواتف الأمنية لولاية فلوريدا والتي لا تسمح بالإتصال إلا في أوقات معينة وعلى أرقام معينة فقط. ولكن على الرغم من تلك التعقيدات والظروف القاسية سهلها الله سبحانه وتعالى (وسترها أيضا فعملية الاتصال ممنوعة من أولها إلى آخرها).

إن ما فرّح قلبي منذ أول أيام اعتقالي كانت مكالمة من زوجتي، حيث كانت ابنتاي تبلغان الرابعة والثانية من العمر فقط، حيث إنتهيت للتو من تعليم سورة الفاتحة لشريكي في الزنزانة رقم 3 في سجن المقاطعة وهو رجل أمريكي أسود، فقد إعتنق الإسلام مؤخرا. فذهبت للهاتف للتحدث مع زوجتي مستعملا هاتف العنبر. وبعد الحديث مع زوجتي، قالت لي أن بناتي لديهما مفاجأة. فقامت الواحدة تلو الأخرى وبصوتهما الطفولي الناعم الحنون بتسميع سورة الفاتحة. فلم أستطع سوى البكاء كالأطفال وأنا محاط بالسجناء الشرسين المحكوم عليهم لتهم قمة بالإجرام، وسجدت على الأرض داعيا الله سبحانه أن يسخر الآخرين لتعليم ابنتاي تعاليم دينهما كما سخرني لتعليم الدين للسجناء.

وحقا، ما خاب من توكل على الله. فمنذ تلك السنة وإلى يومنا هذا تفتح أبلة مريم في منطقة مبارك الكبير الباب لتعليم الأطفال الصغار القرآن الكريم خلال جميع فصول السنة، وتواظب ابنتاي على ناديها لحفظ القرآن وتلاوته، "نادي الأزاهير". حقا، أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

لعلها خيرة

ماذا تتوقع مني فعله في خلال هذه الظروف القاسية وهذه المحن؟ أغني أغنية محمد المسباح؟

♫على خدي احط ايدي و أحاسب روحي بروحي♫

♫واقول بايدي جرحت ايدي و زدت جروحي بنوحي♫

أم أغنية حسن الأسمر؟

♫أنا كنت و كنا و كان أنا كنت زمان سلطان!♫

♫والله يخزيك يا شيطان وديتني معاك على فين!♫

لا... لا هذا ولا ذاك! فما حل بي ليس بنهاية المطاف، وليس بنهاية رجل شجاع. فالحياة تسير للأمام ويجب علينا مسايرتها وعدم الوقوف والنظر إلى الوراء بحسرة وندم، فإن توقفت فسوف تتعطل ولا توبخ نفسك:

"يا ليتني فعلت كذا و كذا لما كان كذا و كذا"

ولا تنسى المثل الشعبي:

"يا عايش باللو والليت خسران"

لا ينبغي علينا إضاعة الوقت أينما كنا، في السجن، أم في المريخ. وجب علينا الإنتفاع بفضائل الله ونعمه علينا، ولا ينبغي علينا ملء حياتنا بالهلع والجزع والحزن. فالحزن العميق يعيق مسيرتنا في هذه الحياة! وإن كان لا ضرر في الحزن، ولكن ليس لدرجة الشلل وفقدان الأمل، ولا تيأس من رحمة الله إن الله بك بصيراً خبيرا، ولا تنسى كلام الله:

"وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (لقمان:17)

فإن ما أصابك قد أصاب العديد من قبلك، كسيدنا يوسف عليه السلام، فانظر كيف أكرمه الله بعد الصبر والحلم و الدعوة. ونعم الثواب.

في تاريخ الكويت الحديث، إنقسم الزمن إلى قسمين: "قبل الغزو" و "بعد الغزو" لشدة ما حل بالكويت على يد الطاغية صدام حسين. وفي أمريكا أيضا إنقسم الزمن إلى قسمين: "قبل 11/9/2001" و "بعد 11/9/ 2001"، وأيضا لصدمتهم بما حل بهم على يد أبو قعقاع (ابن لادن). كذلك هو حالي. فلقد إنقسم حالي إلى "قبل السجن" و "اثناء السجن". إليك مقارنة بسيطة بين "ياسر ما قبل السجن" و"ياسر اثناء السجن"، وأريد منك الحكم:

الانجاز	قبل	اثناء
بناء مكتبات إسلامية	0	4
هداية الآخرين للإسلام	0	+ 200
كتابة الكتب والمقالات	0	+ 16
عدد اللغات	عربي انجليزي+شويه فارسي!	كل ما سبق + أسبانيه، لغة الإشارة
إلتزام وتدين	¼	¾
خبرة في " العدالة " الأمريكية	0 من 10	10 من 10
خبرة في علم الإجرام	1 من 10	10 من 10
ختمة القرآن	0	35

فأيهما الأفضل من وجهة نظرك؟ المقارنة صعبة بين الإثنين فأنا قبل السجن إنسان محترم مثقف صاحب شهادة عليا، محبوب من قبل الجميع، خفيف الظل، محب للفكاهة، ومتفائل إلى أبعد الحدود، ومحظوظ إلى أبعد الحدود كذلك. أما ياسر بعد السجن، فأبسط ما يقال هو أنني أصبحت "خريج سجون" و ماذا الآن؟

لا أعلم و لكن كما قال جورج وسوف:

♫فات الكتير و مابقى الا القليل يا ناس♫

♫بكره الأمل و بعده العمل♫

سوف أتخرج من جامعة سجون أمريكا المركزية حاصلا على شهادة الدكتوراه في علم الإجرام في 31/10/2019! ثم ستقوم إدارة الهجرة الفيدرالية بعمل حفلة تخرج لي وإبعاد من أمريكا وللأبد (حفلة وداعية). ولكن مازلت حائرا بكيفية الإبعاد وبأي وسيلة نقل؟ فإني ممنوع من الطيران منذ 2006، فكيف يا ترى سيتم الإبعاد؟! مشيًا؟ أم سباحة؟

وعند إبعادي إلى الكويت، مسقط رأسي، لابد وأن السلطات بإنتظاري لعمل حفلة بمناسبة قدومي (حفلة استقبال)، حفلة أتوج فيها وألبس الأساور الفضية اللامعة، فأنا مطلوب للعدالة هناك أيضاً بسبب قروض البنوك، وديون بعثة جامعة الكويت. إن ما أفكر به بالطبع يُعد في علم الغيب، وسيناريو المستقبل يظل على الرغم من كل شيء في علم الله، لا يعلم بتفاصيله ومفاجآته أحد. أفلم تسمع كلام الله:

"وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (لقمان: 34)

(87)

يا محاسن الصدف

لكل سجين في سجون ولاية فلوريدا وظيفة داخلية مهما كانت إدانته وحكمه. والوظائف عديدة ومتنوعة. منها وظائف مرغوبة من قبل المساجين مثل "بياع البقالة" داخل السجن (غرفة الكانتين)، و"لماع" أحذية وبصطارات السجانة (حيث يحصل السجين على البقشيش)، و"أمين المكتبة" الذي ينعم بالمكيف البارد في عز الصيف ...إلخ. ولكن هناك أيضا وظائف غير مرغوبة، ومزرية في الواقع، مثل"المزارع" الذي يعتني بالأشجار والعشب الخارجي في ساحات السجن الخارجية (خارج العنابر). فهي تعد وظيفة متعبة وشاقة ولا يرغب أي من السجناء العمل بها، خاصة في فصل الصيف الحار في فلوريدا والذي يشبه حر الكويت.

أما بالنسبة للوظيفة الأخرى التي تعد غير مرغوبة ومتعبة نفسيا وجسديا بكل المقاييس فهي غسل حمامات المساجين وتنظيفها ومسحها. فلك أن تتخيل حالة تلك الحمامات القذرة والتي أشبه ما تكون بحمامات الاستراحات أو محطات البنزين في خطوط السفر السريعة في الكويت والسعودية: شعر وبول وبراز وقيئ وبكتيريا وجراثيم وممرضات عضويه أخرى لا يعلمها إلا الله القهار وعفن أخضر في كل زاوية من زوايا تلك الحمامات. وللأسف الشديد تم اختياري لشغل تلك الوظيفة المزرية، غسل الحمامات، حيث علي غسل الحمامات في صباح كل يوم بعد خروج المساجين لساحات الملاعب.

ولا يستطيع السجين رفض العمل المخصص له وأن يقول "لا" وذلك لسببين. السبب الأول هو أنه إن لم يعمل، يكتب في التقرير الشهري للسجين وذلك يؤثر بالطبع على بند "خروج مبكر من السجن لحسن سير وسلوك وأداء وظيفته". ففي كل مرة يكتب فيها تقريرا ضد السجين، يتأخر الخروج من السجن بعشرة أيام. أما السبب الثاني فهو إن قال "لا"، يحق للضابط إرساله إلى السجن الإنفرادي 15 يوما في كل مرة يرفض العمل فيها. ولكن، ولحسن الحظ، هناك طريقة واحدة لتجنب هذه الوظيفة المذلة وهذه القاذورات الكريهة، وهي تعد طريقة كويتية 100% "طريقة حط فلوسك بالشمس واجلس في الظلال!". فقد استطعت النفاذ من هذه الوظيفة الكريهة بتشغيل أحدهم بـ "الباطن" (أحد المساجين طبعا) ليعمل عملي، ولن تصدق ما يفعله عدد 1 كيس شوربة إندومي كراتب يدفع في اليوم الواحد!؟ حيث يقوم الموظف بالباطن بفرك وغسل وتنظيف ومسح الحمامات بأكملها، بل يجعلها تلمع كالمرآة من أجل كيس واحد من شوربة الأندومي يوميا. يا بلاش!

وهذا هو حالي يوميا، التهرب من وظيفة غسيل الحمامات في صباح كل يوم، والخروج مع باقي المساجين إلى ساحات الملاعب لمدة ساعة أو ساعتين يوميا من أجل التريض والترفيه عن النفس في ذلك المكان الموحش. وفي صباح أحد الأيام وكالعادة قمت بالخروج إلى الملاعب، بينما يقوم سجين آخر بتنظيف الحمامات بدلا عني، حيث صادف وجود مباراة كرة قدم بين

الفريق "العربي" الذي قمت بتكوينه مع مجموعة من المكسيكيين واللاتينيين الآخرين، ضد فريق الجمايكيين "السود من جزيرة جاميكا". وبينما كنا في أواخر الشوط الأول 4- صفر لصالحنا، بدأت مكبرات الصوت المتواجدة في كل زاوية من زوايا ساحات الملاعب بالنداء:

- السجين ياسر البحري! يجب التوجه إلى عنبر "ف-1" حالاً .

عندما سمعت إسمي في المكبرات، ارتعدت أوصالي لدرجة أن رجلي أصبحت كخيوط السباغتي وكأني من الرخويات؛ فرحت تاركا اللعبة ومتوجهاً إلى عنبر "ف-1"، وأخذت أكلم نفسي موبخها، "ليتني لم ألعب كرة القدم وأترك عملي في تنظيف الحمامات... ليتني وليتني..." فها أنا أواجه عقوبة تأخير اطلاق سراح عشرة أيام إضافية، أو حبس انفرادي 15 يوم أو كلاهما، على حسب مزاج الضابط.

وصلت أخيراً إلى البوابة الرئيسية التابعة إلى عنبر ف، حيث توجد ثلاثة أبواب فرعية: الباب المنتصف وهو الباب الخاص بالسجانة والشرطة والذي يؤدي إلى مكتبهم الواقع في منتصف المبنى، والباب الأيمن والذي يؤدي إلى عنبر ف-1؛ أما الباب الأيسر فيؤدي إلى عنبر ف-2. فوقفت دقائق عديدة انتظر الباب الخارجي لعنبر ف-1 ليُفتح (عن طريق جهاز التحكم المتواجد في داخل مكتب السجانة)، ولكني سمعت صوت فتح باب قادم من الباب المنتصف. لحظة، هذا الباب الخطأ؛ هذا باب الشرطة! رحت محدثاً نفسي متعجباً قليلاً وقلقا بعض الشيء أيضاً. فلم أتحرك من مكاني، وكأني القمع البرتقالي اللون الذي يستخدم في أطراف شوارع الكويت التي تكون تحت الإصلاح، أو كأني أحد حراس بريطانيا ذوي البدلة الحمراء الذين يحرسون قصر الملكة. أصبحت ببساطة كالتمثال.

وبعد هنيهة من الزمن، سمعت الصوت ذاته من قبل جهاز الإنتركم قائلاً : "لا تخف يا ياسر! ادخل من الباب الذي في المنتصف!" (باب مكتب السجانه). فقلت لنفسي:

- "ياسر؟ من هذه التي تناديني بإسمي الأول في سجون أمريكا؟

هذه ليست العادة، فالعادة هكذا ينادونني:

- أيها الأخرق! أيها السجين! يا حمار!

لقد إعتدنا على تلك العبارات حتى أصبحت لا تؤثر فينا على الإطلاق. وردنا عليها دائماً هو، " نعم سيدي!" أو "نعم سيدتي!". فتكرر الطلب مرة أخرى:

- ادخل يا ياسر.

فدخلت من الباب والخوف يتملكني لا أعرف ما هو حاصل أو ما سوف أواجه في الداخل. وهناك غرفة مغلقة وباب آخر يؤدي مباشرة إلى غرفة مكتب السجانة. وهذه الغرفة المغلقة التي لا نوافذ لها عبارة عن قسمين: قسم مخصص كحمام للسجانة؛ أما القسم الآخر فهو عبارة عن

أرفف عديدة، عليها منظفات متنوعة مثل الصابون، وفرش أسنان، ومعجون الأسنان، والمحارم الورقية... إلخ، ومقتنيات أخرى تعطى للمساجين عند الحاجة.

سرّاً، يطلق السجانة والشرطة على هذه الغرفة المغلقة بإسم "غرفة العمليات"، وهي باختصار غرفة تستخدم لضرب السجناء ضربا مبرحا، خاصة وأنها خالية من الكاميرات. ورائحتها تشبه رائحة مقبرة الصليبخات. رائحة الأموات. أما الحائط فهو ملطخ بالدم الأسود. وهنا بدأ المغص بالظهور من جديد وبدأت الأرجل بالاهتزاز دون توقف وضربات قلبي تخفق بسرعة شديدة. فهل هذا هو قدري اليوم؟ هل رفعت الأقلام وجفت الصحف؟ فبدأ لساني بترديد عبارة واحدة لا غيرها:

- استر يا ستار! استر يا ستار! ...

وكأني على وشك مقابلة ومواجهة الجن الأزرق. ولكن ظهر الصوت النسائي الناعم على الإنتركم الداخلي من جديد:

- ياسر... لقد تغيرت كثيرا.

فأجبت:

- نعم سيدتي.

ولكن ما زلت مرتعباً ومتشككاً قليلاً في ما قالته، "تغيرت"، ومن هي؟ عقبت المرأة:

- والله زمان! Long time no see

فرحت محدثا نفسي:

- زمان!؟ من هذه المرأة؟ هل تعرفني؟ ومن أين؟ فأنا في عاشر سنة لي في السجن، فلا أعرف أي امرأة غير هؤلاء السجانات الشرطيات؟!

فقالت:

- لابد أنك لا تتذكرني الآن بعد كل تلك السنين، ولكن دعني أعطيك إشارة.

فقالت:

- مدينة تلاهاسي.

نعم أنا من تالاهاسي وهناك كانت القهوة، كافيه شيشا، وهناك أيضا كانت دراستي وهناك وقعت في الفخ كما يقع الفأر في المصيدة، ولكني لا أعرفها. فقلت لها:

– ليس لدى أي فكرة يا سيدتي.

فقالت:

– دعني أعطيك إشارة أخرى. كافية شيشه!

كافية شيشة هو اسم محلي ولكن هناك المئات بل الآلاف من الزوار في تلك الأيام فقلت لها:

– لا فكرة لدي على الاطلاق... يا سيدتي.

فقالت:

– ألا تتذكر موظفة لديك قد قامت بطهي عشاء من المأكولات البحرية، وأحضرته لك في المقهى، ولكنه كان مليئا بالملح لدرجة أنك قمت بغسل الأكل في مطبخ المقهى حتى تستطيع أكله؟

– معقولة؟ لا، مستحيل! ريتشيل؟ أهذه أنتِ؟

فأجابت بحماس شديد:

– نعم!

ريتشيل هي الآن ضابط العنابر وأنا السجين بعد كل تلك السنين؟ ريتشيل!

(88)

الماضي البعيد

في 2005، كانت ريتشيل تبلغ 18 من العمر؛ بيضاء حوراء شقراء معسولة اللسان، ممشوقة القوام. حصلت على وظيفتها في المقهى بالصدفة، حيث كان صاحبها جندي أمريكي من المارينز قد عاد إلى أمريكا للراحة ستة شهور. وبينما هو في العراق تعرف على المقاهي الشعبية هناك ووقع في غرام الشيشة والشاي العراقي الأحمر! وعند عودته قام بإحضار صاحبته، "زوجة المستقبل"، إلى المقهى، كافيه شيشة، وطلب مني توظيفها. فقبلت على الفور. على الرغم من أنها جميلة ورقيقة، إلا أنها في الوقت نفسه كانت تعمل بجدية كبيرة، وتؤدي وظيفتها على أكمل وجه بنشاط وحيوية. بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت حينئذٍ طالبة سنة أولى في جامعة فلوريدا بتلاهاسي (وهو أيضا مسقط رأسها) تدرس علم الإجرام. وبعد تعرفها علينا نحن العرب من الطلبة المبتعثين، وقعت في غرام الثقافة العربية والكرم العربي الأصيل دون مبالغة. حتى أصبحت أكلتها المفضلة هي "البقلاوة" وشرابها المفضل " القهوة التركية السادة.

قدمت ريتشيل استقالتها من المقهى بعد فترة من الزمن ولكنها كانت على علاقة طيبة بالجميع حيث كانت تقوم بزيارة المحل بين الحين والآخر. وحتى أنها كانت متواجدة في قاعة المحكمة طوال محاكمتي. فرأيتها تخرج باكية إلى خارج القاعة عند اطلاق القاضية حكمها الجائر عليّ، تسلم علي ملوحة باليمنى وتمسح باليد اليسرى دموعها التي كانت تنهال بغزارة. وفي عام 2015، يوم رأيتها مجددا، بلغت ريتشيل 28 عام بالتمام والكمال، وتزوجت صديقها جندي المارينز ولديهما الآن ولدين صغيرين. اجتازت المرحلة الجامعية بمعدل عالي، فتخرجت من قسم علم الإجرام، وأصبحت ضابطة في سجون فلوريدا. وحديثا، قامت ريتشيل بطلب نقلها للعمل بسجن مايو لقربه من منزلها في مدينة تلاهاسي.

(89)

خلينا أصدقاء !

- يحزنني أن أراك بهذه الحالة السيئة!

كانت أول عبارة قالتها لي ريتشيل وجها لوجه في السجن. فاجبت مبتسما:

- لا بأس، لقد أعتدت على هذا الوضع بعد كل تلك السنوات.

قلت ذلك على الرغم من عدم اقتناعي به، فنظرات العطف التي رمقتني بها ريتشيل جعلتني أشعر بقساوة المكان وحقارة الوضع الذي أنا عليه في هذا السجن اللعين. حقا من يريد أن يراه أصدقاءه وأحبابه (او حتى موظفيه القدامى) بتلك الحالة المزرية في تلك البدلة (بدلة السجن). فاقتربت نحوي ثم مدت يدها اليمنى للسلام قائلة:

- لا بأس!

يا الله! كم أكره الشعور بالضعف والانكسار الذي أشعر به الآن وأنا أتحدث مع ريتشيل. شتان بين ما كنت عليه وما آلت إليه الظروف والأوضاع. حقا، لقائي بها جعلني أدرك مدى صعوبة حالتي التي يرثى لها في سجون أمريكا. فلولا ذلك اللقاء، لما أدركت بأني اليوم مجرد نكرة. فقد اعتدت على ذلك أيضا. ولكن إنه حكم القدر. فقالت ريتشل وهي مبتسمة:

- اذهب الآن إلى مقر عملك.

فأجبتها(بارتباك شديد):

- نعم سيدتي.

- لا تخف سوف أقوم بتغيير وظيفتك!

- شكرا ً.

ثم عاد الآخرون من ساحات الملاعب، واقترب وقت تعداد المساجين الدوري. فقلت لصاحبي الكوبي "بلصه" ما قد حصل لي للتو. فطار صاحبي الكوبي من الفرحة قائلاً:

- سنصبح أغنياء! قل لها أن تجلب لنا بعض المخدرات لنبيعها، والنص بالنص.

- اسكت يا جاهل! أي مخدرات وأي ممنوعات تتحدث عنها؟!

- إذن دعها تجلب لنا بعض السجائر ودعنا نفتح كافية شيشه فرع مايو من جديد.

– أنا لن أطلب منها عن أي شيء، وأتمنى ألا يعلم أحد بما حصل وإلا سوف تطرد ريتشيل من وظيفتها وهذا حرام فلديها ولدان.

فقال بلصه الكوبي:

– والله إنك طيب زيادة عن اللزوم... يجب عليك أن تستغل الفرصة!

فأجبته قائلا:

– قالت أنها سوف تغير وظيفتي!

– أرأيت؟ هذه بداية جيدة.

ولكني أجبته أنه قد تبقى لي تقريبا ثلاثة سنوات فقط ويطلق سراحي ولا أريد أي مشاكل مع القانون مما قد يؤثر علي أو يؤدي إلى تأخير خروجي من السجن.

وفعلا، بدأت تتحسن أوضاعي بالسجن، وشعرت بتعاطف ريتشيل ورأفتها بحالي. فأول ما قامت بفعله من أجلي هو تغيير وظيفتي من غسيل حمامات المساجين إلى غسيل حمامات السجانة. وصدق أو لا تصدق هي مرتبة أعلى وكأنها ترقية، فحمامات السجانة تبقى دائما نظيفة وذات رائحة جميلة تنبعث منها رائحة العطورات النسائية الزكية والمنظفات العطرة. وقد أتاح لي تنظيف الحمامات الخاصة بالسجانة والغرفة الخلفية المغلقة الخالية من النوافذ والكاميرات الفرصة للإلتقاء بريتشيل بشكل يومي والحصول على أطباق شهية من الطعام كانت تخصصها لي وتعطيني إياها بالخفاء. كان اسمي يردد عبر المكبرات بشكل يومي:

– السجين ياسر البحري! احضر إلى مكتب الشرطة حالاً!

وهذا يعني أنه قد حان وقت تنظيف حمامات الشرطة والغرفة الخلفية المغلقة وتنظيف سلات المهملات الخلفية التابعة للشرطة. وبعد انتهائي من التنظيف تقوم الضابط ريتشيل بإعطائي "المقسوم" وهو عبارة عن: بيتزا هت، صب وي، برجر كينج... وما لذ وطب؛ وأحيانا طبخ يديها، فأقوم أنا بأخذ الأكل واخفاءه في كيس قمامة أسود ثم إرجاعه معي إلى العنبر، وأستمتع بتناول الطعام اللذيذ الذي قدم لي بعد اطفاء أنوار العنبر للنوم مساء... وهكذا.

وأحياناً، كانت تطلب مني عدم الخروج إلى ساحات الملاعب والبقاء في العنبر للحديث معها، فتراها تجلب قصص كثيرة حدثت في كافيه شيشة، أو تتحدث عن واقع السجون الأمريكية بشئ من التذمر، أو تتحدث عن مضايقات حصلت لها من قبل بعض الزملاء من السجانة والشرطة وغيره... سألتها يوما:

– إذن لماذا تعملين في هذه الوظيفة ؟!

فأجابت:

– لقمة العيش.

تطورت العلاقة بيني وبين الضابط ريتشيل في حدود الأدب والاحترام، وأصبحت تجلب لي بين الحين والآخر علبة سجائر دون أي مقابل مادي، علما أن سعر العلبة في داخل السجون في فلوريدا هو 100 دولار والسبب أنها ممنوعة منعا باتا. فأخذت تهرب لي السجائر وأنا أقوم ببيعها على السجناء. وكانت بالفعل تجارة رائجة ومطلوبة، مما جعلني أتقاسم معها الربح من تلك التجارة. وأصبحت ريتشيل تجلب لي كرزاً كاملاً كل يوم تخفيها داخل شنطتها، ثم تمسك بالميكروفون فتنادي:

– السجين ياسر البحري ... احضر حالاً إلى غسيل حمامات الشرطة!

وما إن أنتهي من غسيل الحمامات حتى أتجه إلى ريتشيل وآخذ السجائر وأتجه إلى العنبر فورا ثم أعطية إلى بلصه الذي بدوره يبيعها على المساجين بمعرفته. ولم تقف تجارتنا عند السجائر فقط، بل تنوعت لتشمل بيع الهواتف الخلوية "نظام الكرت والدفع المسبق"، هاتفا واحدا في الأسبوع. فتحها علينا الله وتوسعت تجارتنا. هي تشتري الهاتف الخلوي بحجم الدومينو بـ 50 دولاراً وأنا أقوم ببيعة بـ 600 دولاراً، والربح يكون النص بالنص. وكانت عندما تعلم بوجود تفتيش شامل بكل العنابر تقوم بأخذ الهاتف الخلوي وتحتفظ به حتى ينتهي التفتيش لكي لا أخسره أو يضعوني في الحبس الإنفرادي. حققنا معا أرباحاً غير مسبوقة في عالم التجارة حتى وصل الخبر إلى علم مدير السجن فثار غضبه قائلا:

– أحضروا لي ياسر البحري!

(90)

الفلفل البارد

استيقظت في الصباح الباكر على أصوات المكبرات في داخل العنبر منادية:

- السجين ياسر البحري! احضر حالاً إلى مكتب الشرطة!

ولكن لم يكن نداء ريتشيل، بل صوت رجل بدى عليه الغضب، فتوجهت مباشرة إلى نافذة الشرطة المطلة على العنبر.

- نعم سيدي!

فقال الشرطي عن طريق النافذة:

- اذهب حالاً إلى مكتب مدير السجن.

فقلت له متخوفا بعض الشيء :

- لماذا؟ هل من مشكلة؟

- ليس بعد... اذهب الآن!

ثم ضغط على زر فتح باب العنبر للخروج.

- خير اللهم اجعله خيراً!

والله لقد ارتعدت أوصالي ولم أعرف المشي وكأني طفلا يحاول الوقوف فلا يستطيع. فصرخ الشرطي بوجهي قائلا:

- ما بالك؟! تحرك الآن! ليس لدينا اليوم كله لحضرتك!

- نعم سيدي.

فحاولت المشي فلم أستطع، فحاولت مرة أخرى فلم أستطع! وأخيراً، استطعت أن أجمع قواي فتحركت! خطوة بعد خطوة، حتى وصلت أخيراً وبعد عناء طويل (وكأني قد مشيت من الصباحية إلى الجهراء) إلى مكتب مدير السجن بأكمله، زعيمهم وكبيرهم، رئيس الحصن!

اسمه "كولد ببر" (بالعربية: "*فلفل بارد*"). طويل وضخم وعريض المنكبين وذو رأس كبير ولا تخلو عباراته من الكلمات البذيئة، ولا يتجرأ أحد أن يضع عينيه بعيني فلفل بارد الشبيهة

بعيون الحية الكوبرا لحدة نظراته وقساوتها. يحدق بالجميع بنظرات ثاقبة يصعب لأي سجين تحديها أو مجاراتها. قضى في الخدمة 15عام ومعروف عنه الاستبداد والقسوة وعدم الرأفة بالمساجين. ومن له الحق بحسابه وهو رئيس الحصن بأكمله؟! باختصار شديد "شرير يحب الشر شراني".

فقال لي الضابط في خارج مكتب مدير السجن:

– السجين ياسر؟

– نعم سيدي؟

وللتأكد، قام بسؤالي عن رقم السجين الخاص بي، فأجبته. ثم قال لي أنه يجب علي الانتظار، فانتظرت. ثم ظهر ثلاثة ضباط آخرين فراح الجميع يلتف حولي فقال أحدهم:

– ضع يديك إلى الوراء.

فراح واضعاً الأسورة الفضية عليها مقيداً يداي. فقلت لها مستفسراً:

– هل من مشكلة يا سيدي؟

فأجاب:

– لا أعلم. ولكن يجب تقييدك لكي لا تقوم بأي عنف أمام مدير السجن.

– وماذا بإمكان العبد لله الفقير فعله؟!

فأجاب:

– لا أعلم، ولكنك من تلك الجهة من العالم، فلربما تحاول أن تفجر نفسك!

عجباً! حتى مدير السجن ذلك الزعيم والذي يشبه "علي الكيماوي" يخاف من العرب. ذهبت إلى مدير السجن بأكمله، المدير فلفل بارد، ومعي عدد لا يستهان به من ضباط السجن الذين التفوا علي وطوقوني بشكل يعوق الحركة ويشلها بشكل تام، مما جعلني أبدو وكأني عمر المختار لحظة إدخاله إلى مكتب الجنرال غراتسياني الإيطالي. فقال مدير السجن فلفل بارد:

– أنت العربي الذي يتكلم عنه الجميع؟

ولم أعرف بم أجيب. إن قلت نعم، فهو تأكيداً على كنيتي بأني "العربي"؛ وإن قلت لا، فليس هناك أي "عربي" في هذا السجن المؤلف من 1500 سجين سواي. فلربما يلقني درسا لن أنساه تاركا ذكرى من نوع خاص على وجهي وخاصة وأنا مكبل اليدين ومحاط برجاله، ضباط السجن الكرام! فما العمل؟!

فالتزمت الصمت!

فقال بكل برود وعينيه محدقتان بي كعيني الحية السامة التي تتخذ وضع الاستعداد للإنقضاض على ضحيتها:

– اسمع يا بني! نحن نعلم بالعملية بأكملها من الألف إلى الياء، نعلم بأن الضابط ريتشيل تجلب لك الأغراض وأنت تقوم بالتصرف بها، أنت لا تعنيلي أي شئ، إن ما يهمني هنا هو التعاون من أجل الإيقاع بريتشيل، هذا كل ما نطلبه منك.

فصمت قليلاً فقلت محدثا نفسي:

– ماذا الآن يا بطل؟ لقد اكتشف سرك وها هو الآن موعد الإمتحان الصعب.

فأجبته محاولاً المراوغة:

– سيدي! لابد وأن هناك خطأ في الموضوع. فأنا لا أعلم ما تقول وليست لدي أي فكره عن الموضوع.

فراح يصرخ في وجهي قائلا:

– أتحمل أي شيء حتى الوقوع في النار ولكن لا أطيق أمراً واحداً، وهو أن يكذب حقير مثلك في وجهي وكأني معتوه غبي.

فحاولت الترقيع:

– معذرة يا سيدي! ولكن فعلاً لا أعرف ما تتحدث عنه؟

حاولت التماسك أمامه وإخفاء الرجفة والإرتعاش التي أصابت أطرافي من شدة الخوف والقلق وكأني أمام فرقة الموت، فرقة إطلاق الرصاص. إلا أنني فقدت السيطرة على مثانتي فتبولت على نفسي لا إراديا من شدة الخوف. فانقلب حال مدير السجن الى فلفل حار وبدأ يتوعد ويهدد قائلا:

– اسمع يا أخرق! أستطيع ابعادك وراء الشمس ولزمن طويل! أستطيع سحب كل أيام حسن السير والسلوك وأداء الوظيفة فتزيد مدة سجنك ثلاثة سنوات أخرى. يمكنني وضعك في الحبس الإنفرادي لعدة سنين! كما يمكنني اختلاق قضية جديدة ضدك، فتصبح الأربعة سنين المتبقية 40 سنة!

فراح مضيفاً، والنار تخرج من فمه وكأنه تنين غضِبْ:

– يمكنني فعل ذلك والمزيد، أنت لا تعرفني جيداً!

بلى والله أعرفكم جيدا َومعرفة تامة. أنتم الذين وضعتموني هنا كل تلك السنين ظلماً وعدواناً؛ وأنتم الذين وضعتموني في الإنفرادي تلك المرات العديدة؛ وأنتم الذين لفقتم قضية مختلقة لذلك الأسود المسكين فحكم عليه بـ 30 سنة إضافية داخل السجن؛ وأنتم سبب تدهور حالتي الصحية والنفسيةً وحتى تدهوري أخلاقياً في هذا المكان القذر؛ وتلذذتم بإذلالي من خلال غسل حماماتكم القذرة! كان هذا لسان حالي إلا أنني لم أتجرأ على قول أي من تلك العبارات على الرغم من صحتها المطلقة. فقلت عوضاً:

– فما هو المطلوب مني يا سيدي؟

فأجاب فلفل بارد، وقد بردت أعصابه، فرجع الى حالته الأولى:

– اسمع يا بني! لقد سألنا محل "الوسترن يونين" فأخبرنا عن كل الحوالات التي تمت باسم ريتشيل وباسمك. وسألنا حتى صاحب البقالة على خط شارع السجن، فأخبرنا عن السجائر التي قامت ريتشيل بشرائها فمن يدخن عشرين كرزاً أسبوعيا!؟

فقلت له:

– يبدو أنكم قمتم بعملكم على أكمل وجه فلا حاجه لي إذن!

فأجاب:

– لا... نحن نريد منك أمراً واحدا فقط وهو ارتداء أسلاك الميكروفون وكاميرا صغيرة جدا خلال عملية الإستلام في الغرف الخلفية المغلقة للإيقاع بريتشيل متلبسة.

فتذكرت قصة ضابطة سابقة أخرى قد أطيح بها بنفس الطريقة في سجن آخر وكانت تلقب بـ "ليدي غاغا" لشبهها الكبير بتلك المغنية الأمريكية. كانت "ليدي غاغا" تحضر هواتف خلوية وسجائر وبعض المخدرات خفية لصاحبها، سجين من أصول لاتينية من عصابة الملوك اللاتينية، ولم تفعل ذلك من أجل كسب المال. بل من أجل الخوض بتجربة المغامرة في سجون أمريكا خاصة أنها كانت على علاقة غرامية بذلك اللاتيني. وقد أراد مدير سجن القرن ابتزازها لاشباع رغباته المريضة، فطلب من صديقها اللاتيني التعاون معه لاسقاطها متلبسة، فخضع ذلك اللاتيني عضو عصابة الملوك اللاتينية لمطالب مدير السجن وقام بارتداء الأسلاك، ولم تكن النهاية سعيدة لـ ليدي غاغا.

إن ما يريده فلفل بارد اليوم هو استعمالي كطعم لريتشيل المسكينة، وقد يكون جمال ريتشيل، الذي يفوق بلا شك جمال تلك الضابطة ليدي غاغا بألف مرة، سبباً في تورطها مع المدير، فلفل بارد، المريض نفسيا! فلمدير سجن مايو غايات ومآرب أخرى. وقبل أن أكمل لك القصة، ماذا ستفعل إن كنت في مكاني في هذه اللحظة؟!

أما بالنسبة لي، وبعد تفكير شديد بكل تداعيات قراري، ضربت بتهديدات مدير السجن عرض الحائط، ورفضت بشدة أن أخون ريتشيل! فقلت لمدير السجن وبكل هدوء مدركاً عواقب قراري جيدا:

- لا سيدي! لن أفعل ذلك أبداً، فلا تضيع وقتك الثمين!

فثارت ثورة فلفل بارد فأصبح حاراً جداً جداً (آنقلب علينا "دقوس بو ديك") وراحت عيناه تشعان بالشرارة الحمراء وكاد عرق جبهته بالإنفجار فصاح قائلا:

- خذوه من أمامي وقوموا معه باللازم!

فانقض علي الضباط الملتفين حولي انقضاض الضباع على فريستهم كل يمسك بضلع من ضلوعي وطرف من أطرافي، فراحوا يجرونني بالأرض دون رحمة في طريقنا إلى مبنى الحبس الإنفرادي، ذلك الطريق الموحش المظلم المهجور، وفي عيونهم نية الشر، فتتخيل أحدهم يقول كما في الأفلام المصرية القديمة الأبيض والأسود:

- ده انت نهارك أسود!

والآخر:

- انت إيه إللي جابك هنا!؟

والآخر:

- حنوريك نجوم الليل في عز الظهر!

بينما الآخر:

- ما كان بالطيب أحسن!

كل تلك العبارات بما يعادلها باللغة الإنجليزية طبعاً

إلى جهنم وبئس المصير

وإلى المبنى الإنفرادي من جديد. ولعلي لم أقل لك سابقا بأنه ينقسم إلى قسمين: أحدهما يطلق عليه "ايه سي" والآخر "دي سي". أما الـ " ايه سي "، فهي عبارة تدل على "إنفرادي تحت التحقيق" وأما "دي سي"، فهي عبارة تدل على "إنفرادي تأديبي".

والفرق هو أنه في الأول، قد يتواجد معك سجين آخر في نفس الزنزانة مما يتيح لك مجال أكبر للترفيه والتسلية وتمضية الوقت. أيضا، قد يُسمح لك شراء بعض أغراض الكانتين عن طريق الإستمارة مرة كل أسبوعين. وأيضا، قد يُسمح له بقراءة الكتب والمجلات والجرائد، أما في الثاني، أي "دي سي"، فلا يحق للسجين أيا من ذلك. ولا يوجد سجين آخر بالزنزانة نفسها، فيكون الشخص محاطا بأربعة جدران فقط، مما يجعله يعاني من الوحدة القاتلة التي من شأنها أن تجلب كل الأفكار السلبية والظنون.

قام الضابط بإدخالي إلى القاعة الأمامية لمبنى الحبس الانفرادي لكي يقوموا بتسليمي إلى سجاني الإنفرادي والذين بدى عليهم التأهب والاستعداد عند رؤيتي وكأنه قد وُصي علي!

- خذ هذا الأخرق.

فقال أحد الضباط مضيفًا:

- قد وصى عليه الفلفل البارد.

فأجاب أحد سجاني الإنفرادي:

- نعم، وسوف نقوم بالواجب.

وأما أنا المسكين، فما زلت أنظر إلى الأرض لا أتجرأ على رفع عيوني للنظر في ناحية الشرطة حتى لا تسوء الأمور أكثر، وكأنني ذبيحة تنتظر حتفها على يد الجزار. ثم قام أحد السجانة بمحاولة تسجيل معلوماتي في سجل الدخول والخروج، فقاطعه السجان الآخر قائلاً:

- وفقا لأوامر فلفل بارد، لا حاجة لتسجيل معلوماته.

بمعنى آخر، رسميا ً، أنا لست تحت الحبس الإنفرادي. فإن حدث لي شيئا مهما كانت صرامته وشدته لن يستدل عليه أو يتم اثباته والسبب أنني: "لست مقيدا في السجلات". ها أنذا في مكان "الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود"، ولا يعلم أحد بحاله حتى الجن الأزرق. فقام السجانة بشدي من ذراعي إلى قسم الـ "دي سي"، الحبس الإنفرادي "بحق وحقيقي" وليس الـ "ايه سي"، الذي يعد رحمة بالنسبة لهذا السجن.

وعند وصولي إلى باب الزنزانة، قام السجانة بخلع الملابس من على جسدي. حاولت الإعتراض ولكن "حكم القوي". وأيضا لا تنسى بأني مقيد اليدين للخلف. ولم يبقوا علي ولا حتى خرقة لأغطي بها عورتي. فألقوا بي داخل زنزانة باردة قذرة ومظلمة، تخلو من الشبابيك وحتى الشفاط، كما ترمى كرة اليد في شباك الهدف. ثم أُقفل الباب، وطُلب مني الرجوع إلى الخلف حتى يقوموا بفك قيدي ورفع الأسورة الفضية من يدي، ففعلت. ثم أُقفل الشباك الخاص بتقديم الطعام الموجود على الباب.

فنظرت، وإذا بصدمة أخرى، فليس هناك وسادة ً للنوم، ولا شراشف ولا حتى بطانية. والمكان بارد جدا حيث تقترب درجة حرارة الزنزانة من الصفر. وليس هناك سوى سريراً معدنيا في طرف الزنزانة. ولتلك الحالة إسم وهو سجين "على الحديدة" وهو يعد نوع من أنواع العقاب التأديبي يستخدم ضد السجين الذي يحدث شغب أو يقوم بالإعتداء على أحد أفراد الشرطة وغيره، و ما إلى ذلك.

فها أنا كما خلقني ربي *على الحديدة* في زنزانة درجة حرارتها تقترب من الصفر. والله لا تستطيع الجلوس من شدة برودة السرير المعدني، ولا تستطيع الوقوف ساكناً من شدة برودة المكان. ليس لك سوى التحرك يمينا ويساراً جيئة وذهابا كالفأر الأبيض من فئران المختبرات في تجربة شريرة من قبل بعض من علماء النفس المجرمين. ليس لك سوى التبول كل عشرة دقائق من شدة برودة المكان. ولكن بالنسبة لي، كانت هناك مشكلة صغيرة جداً (على حجم البلوطة) وهي مرحاض الزنزانة كان مكبلاً هو الآخر فلا تستطيع استعماله.

ليس عليك سوى أن تتخيل الحالة السيئة والوضع المأساوي. تفرفر مثل الفأر في ثلاجة من الحجم الكبير، لا تستطيع الخروج أو الجلوس أو الوقوف ساكناً أو التمدد على السرير. وعلاوة على ذلك كله فأنت "سُلط مُلط" ولا تستطيع استعمال المرحاض لأنه مقيَد بالسلاسل. وبعد ساعة بالضبط، أصبحت رائحة الزنزانة لا تطاق بسبب كثرة تبولي في كل زاوية من زواياه. فالله يستر حين الحاجة للتغوط.

وللأسف لم يبق الحال كما هو عليه. فمن شدة البرودة والخوف والقلق من المجهول، بدأت الأمعاء الدقيقة والغليظة بالاسترخاء مرسلة إشاراتها إلى الدماغ (مركز التحكم) بأنه حان الآن وقت التخريج، وهو بدوره يرسل إشاراته إلى فتحة الشرج والتي وجب عليها "السمع والطاعة" والاسترخاء هي الأخرى. فرحت إلى أحد الزوايا واستسلمت لنداء الطبيعة، فليس هناك خياراً آخر بالطبع.

وبعد يومين بالضبط، فُتحت كوة الطعام المتواجدة في منتصف الباب، إشارة إلى أنه قد حان وقت الطعام، وياله من توقيت دقيق فقد كنت على وشك أن أمضي صريعاً من شدة الجوع والعطش. قام أحد السجانة بدفع الطعام من خلال الفتحة فوقع الطعام على الأرض. ناهيك عن قذراة الأرض ونجاستها! عندما نظرت في الطعام، لم أجد أي شيء مما كان يقدم عادة في

الإنفرادي مثل رز، وخبزة، وفول، وسلطة، وفاكهة (نصف برتقالة أو تفاحة). لقد كان عبارة عن قطعة كاملة خشنة وصلبة ومعروفه باسم "اللووف!"

اللووف وما أدراك ما اللووف!؟

هو طعام ولكنه أقرب إلى كونه جذع شجرة صغيرة، ولونه بني غامق وعليه ألوان منفرة هنا وهناك مثل الأخضر والأسود والأصفر. يصل حجمه لحجم ذراع اليد وعرضه كعرض فخذ إنسان. ولكن ماهو بالضبط؟ هو عبارة عن خلطة من أطعمة مختلفة قديمة أو بقايا أطعمة، توضع في خلاط كهربائي، وتُضرب حتى تصبح سائلة كالعجينة، ثم تُسوى في قوالب مستطيلة، وتُخبز في الفرن الحراري فتصبح أشبه بقطعة كعكة مستطيلة قد أفسدت طبختها!

أما عن الفئة التي تقدم لهم، فهم عادة هؤلاء المساجين المشاغبين الذين يسيئون الأدب في التعامل مع الطعام فيقومون بحذفه على وجه الشرطة أو المساجين الآخرين من باب التمرد. فيقدم لهم "اللووف" لعدة أيام كإجراء احترازي وتأديبي في نفس الوقت دون حرمانهم من الأكل. فيا للإنسانية الأمريكية! يا عيني عليهم! هي إذن وجبة غنية بالبروتينات والفيتامينات والألياف، ولكن فقط إن تمكنت من تجاهل طعمها المر الشبيه بطعم إطارات عجلات السيارة! أو قطعة إسفنجية أصابها الجفاف نتيجة تعرضها للشمس لعدة شهور! وهي أشبه بالخبز الذي كان يُقدم للأسرى الكويتيين في سجون الطاغية صدام حسين الذي لا تستطيع عظه من شدة صلابته، وإن قمت بحذفه على الأرض، يرتد في الهواء وكأنه كرة السلة الأمريكية.

ولكن على الرغم من تلك الظروف القاسية ورغم تلك المحن، حمدت الله تعالى وشكرته وسألته أن يلهمني الصبر على هذا البلاء. فماذا فعلت بحق السماء حتى أعاقب هكذا! تُهمتي هي عدم الغدر وعدم خيانة تلك المرأة التي تعاطفت معي وجعلتني أشعر بأنني إنسان ولست حيوان ونكره. فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان!؟ فتيممت ماسحاً يدي على رقعة حائط قد بدا نظيفا نوعاً ما وكبرت الله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريكاً في المُلك، وقمت بالصلاة. وبعد إنتهائي من صلاتي، نظرت إلى الأعلى، فوجدت فلفل بارد يطل علي ويراقبني من خلال نافذة الباب الزجاجية الصغيرة. فقال مبتسماً ابتسامة خبيثة:

- هل كل شيء على ما يرام ؟

فأجبت:

- لا ... لا يا سيدي.

فقال:

- اسمع يا بني، ما زالت الكرة في ملعبك. تعاون معنا وسوف أطلق سراحك اليوم.

فقلت له :

– لا أستطيع! وكيف لي أن أضع شخصاً بريئاً في السجن؟! وأنا بريء هنا في سجونكم!

فابتسم من جديد فقال:

– نعم! نعم! كلكم أبرياء هنا ونحن المجرمون.

قالها مستهزئا، غير مصدق ببراءتي، التي لا يعلم بها إلا الله. ولم يذق طعم الظلم ويعاني ويلاته كما عانيت كل تلك السنين! فما أدراه بمرارة الظلم للإنسان البرئ!

وأضاف قائلا:

– لم لا تتعاون معنا وترحم نفسك؟

– ثم ماذا؟ تعاقب ريتشل بخمسة سنوات سجن؟!

– على أحدكما أن يعاقب،. فلم لا تكون ريتشيل؟ لم تريد أنت الألم؟!

– لا أريد الألم لأي منا، لا أنا ولا للضابطة ريتشيل!

فنفذ صبر فلفل بارد وبدأ النار يخرج من فمه وانقلب علينا "شطه حارة مرة" تارة اخرى فقال مهددا ومتوعداً:

– الذنب ذنبك أيها الإرهابي.

– إرهابي!؟ ليش الغلط؟! (رحت أكلم نفسي طبعا)

ولكن هيهات هيهات! ليتها انتهت عند ذلك، فلقد قرورا تحويلي إلى المرحلة الثانية من اللعبة القذرة لكسر إرادتي.

(92)

انظر! الصرصور على ظهره

وفي صباح اليوم التالي مباشرة، فُتحت نافذة الطعام مرة أخرى، وراح أحد السجانة ينادي:

– السجين ياسر البحري! اقترب من النافذة وارجع إلى الخلف وضع يديك بالقرب من النافذة لكي أقوم بتقييده..

ماذا؟ وأي حيلة تدبرونها لي؟ فسألته قائلا:

– لماذا ياسيدي؟

فأجاب قائلا:

– لا شأن لك بذلك، فقط نفذ الأوامر!

– لحظة من فضلك!

طلبت منه مضيفاً:

– تريد أن تقيد يدي خلف ظهري في هذه الساعة المبكرة من الصباح وفي هذه المقبرة وتطلب مني عدم التعجب والتساؤل؟!

فأجاب قائلا:

– لا تخف... اقترب.

– لا... وألف لا.... فلست أخرقا إلى هذه الدرجة ياسيدي.. فأنا أعرف كل ألاعيبكم جيدا!

في الواقع، كنت أتوقع أن يقوموا بتقييدي لشل مقاومتي ويقوموا بضربي ضربا مبرحا. أو لربما يقوموا بإدخال أحد المساجين السود الضخام لضربي عوضاً عن الشرطة مقابل ثمن بخس (سيجارة واحدة عادة)، أو حتى يقوموا بإدخال الكلاب لنهش جسدي. فأصريت:

– لا ياسيدي! لن أفعل!

بعد رفضي الانصياع للأوامر، اضطر الشرطي أن يقفل الكوة الصغيرة ويتركني! وخيَم الصمت والسكون على المكان من جديد. فأصبحت وحدي مجددا وكأني داخل نعش في مغسلة للأموات. دقائق قليلة ثم فُتحت الكوة من جديد، ولكن لم يكن هناك أي صوت أوحركة وكأنني أعيش أحداث فيلم الرعب "جمعة 13" ، أو "هالووين". فبدأت أتمتم قائلا:

- استر يا ستار!

ولكن ليس هناك أي حيلة أستطيع عملها لتجنب ما سوف يحدث في أي لحظة الآن! ليس هناك وسادة أستعملها لصد الهجمات مثلا، أو شراشف لأتلثم وأغطي بها وجهي. بل ليس على جسدي أي ملابس تغطيه أو تستره... لا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم! عشت لحظات قلق وترقب أبحلق باتجاه الكوة الموجودة بالباب متجنبا حتى الرمش بعيني، كي لا يغدر بي فجأةً، فأخذت عينيَ بالإحمرار والحرقة من شدة مقاومتي إغلاقهما.

وفجأة، قام أحد السجانة بحذف كرة صغيرة سوداء لامعه على الأرض. "ماهذه ؟" إن كنت جديداً في اللعبة، تراك تبحلق فيها حتى تنفش في وجهك مطلقةً دخاناً كثيفًا ورائحةً بغيضةً لا تستحملها فتتقئ من شدتها. أما إن كنت مثلي، قد مررت بتلك اللعبة مراراً، فسوف تتدارك الأمر فتحاول الإمساك بتلك الكرة وحذفها إلى النافذة مجددا قبل أن يتم إغلاقها. وذلك يتطلب ردة فعل سريعة. لعلك الآن تدرك أهمية عدم إغلاق العينين ومراقبة المكان. ففعلت. واستطعت بعون الله تعالى حذف الكرة إلى الخارج من حيث أتت قبل إغلاق النافذة الصغيرة! ولكنها لم تؤثر فيهم فهم مقنعين بأقنعة الكيماوي.

في هذه المرحلة، لا كذب، إنتابني إحساس لا يضاهى و لا أستطيع وصفه ولكنه أقرب إلي الحماسة والنشوة والمتعة والإنجاز... كلها ممزوجة ببعضها البعض. فها أنا قد اجتزت المرحلة التالية من اللعبة دون إصابات، وكأني في لعبة سوبر ماريو. ولكن كما يقول الأخوه المصريين، يافرحة ماتمت. فقد فُتحت النافذة من جديد. وهذه المرة أدخلت رأس عبوة الكيماوي الحارق للجلد والمسيل للدموع، والخانق للحنجرة والمؤذي للصدور. وهي تشبه عبوة المطافئ وترش رغوة متعددة الألوان على جميع أجزاء الجسد، ولمدة تزيد على الدقيقتين وهي كفيلة لخوار قوى فيل صغير.

فانهرت وخارت قواي، وأصبحت كالصرصور الذي قد وقع على ظهره فيلتف ويلتف بينما تقوم روحه بالخروج من جسده. وعلى خلاف المرات العديدة السابقة التى حللت فيها ضيفا في الإنفرادي، وصلت الرغوة إلى أعضائي التناسلية فشعرت وكأن ماء البطارية قد سكب عليها فراحت تحترق. ولكن رحمة الله واسعة، فعندما وصلت الحرقة والألم إلى مرحلة لا أستطيع تحملها وفوق طاقتي، أطفئ المحرك وحدث لي "شت داون" (shot down) كامل وأغمي علي.

فتحت عيني بعد عناء شديد من شدة الحرقة والتعب والإعياء، فوجدت نفسي تحت "دش" الماء البارد في الحمام وبجانبي مجموعة من الشرطة، وفي الجوار تقف بانتظاري ممرضة لكي تفحص وترى معدل ضغط الدم ونبضات القلب، وبعد الإنتهاء والفحص قالت:

- طبيعي!

فصرخت هذه المرة بأعلى صوتي محاولاً الاستنجاد، بسبب علمي المسبق بمعني كلمة "طبيعي" وهو إشارة خضراء للاستمرار بتعذيبي. فقلت:

– لا والله، لست بطبيعي. فإني لا أرى. لقد عميت! ولا أشعر بأوصالي فقد تخدرت تماما! أما ضغط دمي، فلابد أنه قد اجتاز المئتين.

ولكن دون جدوى. فقد سُحبت من جديد وكأني جريح في معركة حربية، ورجلي تتدلى من ورائي. ثم أُدخلت إلى الزنزانة، أعاني من حروق في جميع أجزاء جسدي، ولكن ميزتها الوحيدة أنها أبقتني دافئا في تلك الغرفة الشديدة البرودة. ألقي بي على الأرض، بطني للأسفل وظهري للأعلى ووجهي يتجه إلى أعلى اليمين وأكاد أموت من قلة الأكسجين. فظهر فلفل بارد من جديد على باب الزنزانة، وتعلو وجهه ابتسامة صفراء مريضة فقال:

– هل أنت جاهز؟

فنظرت نحوه بعين واحدة حيث عجزت عن فتح الأخرى فقلت له مستفسرا:

– جاهز لماذا؟

– أن ترتدي الكاميرا والأسلاك؟

– لا ياسيدي، لن أرتدي شيئا.

فقال:

– حسنا! قد أعذر من أنذر.

ماذا؟ ألم تنتهي لعبته القذرة بعد؟! هل هناك المزيد؟ فماذا يريد هذا الأمريكي المعتوه أكثر من ذلك؟ ولماذا تبدو المسألة وكأنها مسأله شخصية؟! لماذا كل هذا الإصرار؟؟ إنها بالنسبة لي مسألة مبدأ. أنا لست بالجرذ الواشي (الفتّان). لن أقبل أن أكون طعما للآخرين. فلم أفعلها عند طلب الـ FBI و الـ ATF سابقا. ولن أفعلها الآن. أما المسألة بالنسبة لهذا المعتوه المريض الخالي من الرحمة فالأمر مختلف تماما، أظنه يتلذذ بتعذيبي بشكل "سادي" وكأنني قرد في مختبر وضع في قفص ذو أرضية معدنية يتحكم في حرارتها تدريجيا من قبل عالم نفس مجرم بحيث يقوم برفع درجة الحرارة لقياس مدى تحمل واستجابة ذلك القرد المسكين.

ريتشيل تقدم استقالتها

تُركت وشأني في زنزانة الحبس ليوم أو نصف يوم. لا أعرف حقاً، فلم تتمكن ذاكرتي ولا قواي العقلية من اللحاق بالوقت ومعرفة التوقيت بالضبط، وهل هو نهار أم ليل. ثم فُتح باب الزنزانة ولكن هذه المرة من دون تقييد يدي. حيث قاموا بفتح الباب دون أي شروط أو عوائق، ولكني لم أخرج من الزنزانة، ولم أطل برأسي خارجها من شدة اليأس وعدم الشعور بالأمان، فلعلها حيلة لإطلاق النار علي والتخلص مني غدراً بزعم "محاولة الهرب" أو "محاولة الاعتداء على رجل أمن" مثلا، وهي أمور يُسمح فيها للسجانة باستعمال المسدس وحتى الرشاش.

لا... وألف لا... لن تكون هذه نهايتي. فقمت بالتراجع إلى الخلف محاولاً الاختباء بأحد زوايا الزنزانة مفكراً ومتخوفاً من القادم المجهول فيا ترى ماذا بعد؟ هل هو الرش بالغازات من جديد؟ أم إدخال رجل أسود ضخما لضربي مقابل ثمن بخس(سيجارة يدخنها) أم إدخال الكلاب المسعورة لنهشي. ولكني لا أسمع نباحها الذي عادة ما يسبقها بدقائق!؟ ولكن لا هذا ولا ذاك. فقد ظهر رجل ضخم نوعا ما يرتدي لبس السجانة الأبيضَ، خلا وجهه من أي تعبير على الإطلاق، فوقف أمام الباب المفتوح من الخارج وطلب مني التوجه معه وبأنه لاحجة لتقييدي. فقلت له:

– هكذا؟ ألن تقيد يداي؟

فأجاب:

– لا داعي، لا أخاف منك.

فأجبته:

– أما أنا فعلى عكسك تماما! فإني أخاف منك وأرهبك جداً.

ولم أكن مستهزءا على الإطلاق، فهي مسألة حياة وموت. بالنهاية أنا بيد من لا يخاف الله! فخرجت معه أسير بجانبه في أروقة الحبس الإنفرادي متجهاً إلى مكتب المدير فلفل بارد.

وما إن دخلت المكتب حتى قال لي فلفل بارد:

– لقد قدمت الضابطة ريتشيل استقالتها بالأمس.

فقلت له:

– هل هذا معناه أنكم سوف تتركوني وشأني بعد اليوم وتطلقون سراحي من هذا الجحيم الإنفرادي؟

فأجاب:

– لا، حاليا قمنا بالتنسيق مع شرطة مدينة مايو لإحتمال رفع قضية عليك بتهمة "إحضار ممنوعات وادخالها في سجن الولاية".

وهذا معناه إن قامت المحكمة بإدانتي فزيادة خمسة سنوات سجن بالإضافة إلى الأربعة سنوات المتبقية لي أصلا. فسألته:

– وماذا بعد؟

فأجاب:

– لقد سحبنا كل أيام حسن السير والسلوك وأداء الوظيفة فطالت مدة سجنك.

وهذا معناه أنه قد أضيفت ثلاث سنوات على الأربعة المتبقية! 4+5+3=12 وفقاً لمدرسي الحساب أيام المرحلة الإبتدائية.

فسألته:

– هل هناك المزيد؟

فأجاب:

– حالياً ليس في بالي أي شيء إضافي، ولكن سأكون أول من يبلغك بآخر التطورات.

فراح يبتسم ابتسامته الحقيرة الخبيثة. فسألته مرة أخرى:

– ومتى سوف أخرج من الانفرادي؟

– لن تخرج ما دمت حياً. إما الإضراب عن الطعام حتى الموت، وإما الضرب حتى الموت... وإما الانتحار! وفي كل تلك الحالات، لن تخرج إلا على النقالة.

فتذكرت كلام الله:

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7)

(البروج : 1–7)

وقبل أن ارحل، وجه لى سؤالاً أخيراً:

- أيها العربي! ما رأيك في أمريكا؟

نظرت إليه والألم يعتصرني وشعرت بانعدام التوازن وكأنني سأفقد الوعي، فلم أجب على سؤاله ولم أرد ولا بكلمة واحدة. ثم خرجت من مكتبه بصحبة الشرطي، واتجهت إلى غرفة الإنفرادي مجدداً. تركوني فيها لعدة أيام دون تعذيب قررت خلالها أن أكتب هذه المذكرات حتى لا تضيع قصتي وينساني الناس وليعلموا ما حل بي. ولا أدري حتى لحظة كتابتي هذه الصفحات ما هو المصير الذي ينتظرني وماذا تخفي لي الأقدار...

ياسر البحري

[ملاحظة الناشر: استطاع ياسرالبحري كتابة الجزء الثاني لهذا الكتاب واسمه "الف ليلة حبس انفرادي".]

ملحق الصور



لغة الإشاره



كافيه شيشه (القهوه): تالاهاسي، فلوريدا، 2006



جانب من الزبائن في إحدى ليالي كافيه شيشا 2006



صوره جماعيه للطلبه الخليجيين والعرب المبتعثين 2006



أسرة الطالب الكويتي السجين في فلوريدا شكرت الوطن على وقفتها وفجرت مفاجأة:

ابننا ظل سنتين بدون محاكمة وحبيس الزنازين على ذمة القضية وحكم عليه في السنة الثالثة

اتهامات الفتاة كيدية وإجراءات المحكمة والسجن تعسفية والتهمة في البداية كانت اغتصاباً ثم تحولت

ولدنا مشهود له بالاستقامة وبالالتزام الديني ولحظة الواقعة كانت معه

كتب عبدالله التجار:

نحن اقترضنا واستلفنا لغاية الآن 400 ألف دولار لدفعها للمحامين والسفارة لم تساهم ولم ترسل دبلوماسياً لمتابعة السجين

هذه القضية أدت إلى فصل شقيقنا من جامعة الكويت وجامعة فلوريدا وهدمت مستقبله الأسري والعملي المتمثل باستثماره مقهى شعبياً في فلوريدا

الهيئة القضائية لم تستمع لشهود أخينا ورفضت الإفراج عنه بضمان منع سفره وحجز جوازه ورهن المقهى الذي يملكه

السفارات الخليجية تتحرك فوراً إن وقع أي من مواطنيها في مشكلة.. وسفارتنا في واشنطن عمك أصمخ!

اتهموه في السجن بصناعة سلاح ثم الانضمام إلى العصابات ثم الانتماء للجهاد الإسلامي ليتم وضعه في الحبس الانفرادي

الخارجية لم تتحرك نهائياً والسفارة دورها سلبي مقارنة بما فعلته سفارتنا باليمن

مقاله نشرتها صحيفة الوطن الكويتيه تتحدث عن القضيه

بتاريخ 15/11/2009

التسلسل الزمني للأحداث

عن المؤلف ياسر البحري

- يناير 1998: يحصل على درجة البكالوريوس في الفلسفة من جامعة الكويت.

- يناير 1999: يفوز ببعثة دراسية من جامعة الكويت للذهاب للولايات المتحدة لاستكمال دراسته للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في الفلسفة السياسية.

- مايو 2000: ينال شهادة الماجستير، "بتميز"، في الفلسفة السياسية من كلية بوسطن في ولاية ماساشوستس الأمريكية.

- أغسطس 2001: يقبل في برنامج الدكتوراه في جامعة ولاية فلوريدا لعمل الأبحاث في تخصصه، الفلسفة السياسية.

- 2005: يفتتح في فلوريدا كافيه على الطراز العربي ليكون نقطة تجمع للجاليات العربية ونقطة تلاقي وتعارف ودي وثقافي بين الطلاب العرب والأمريكان.

- 2006: يصبح رسميا مرشحا للدكتوراه في جامعة ولاية فلوريدا، ولا يتبقى من مشواره الدراسي سوى بضعة شهور.

- فبراير 2007: يلقى القبض عليه ويوضع في السجن في فلوريدا بعد اتهامه بهتانا وعدوانا باعتداء جنسي لم يقم به، حيث يستمر حبسه سنتان "تحت ذمة التحقيق".

- 2008: بينما هو في الحبس، " تحت ذمة التحقيق"، يقوم بكتابة كتابه الأول باللغة الإنجليزية عن مقارنة الأديان وعنوانه هو:

Jesus Resuscitated (لم ينشر حتى عام 2014).

- سبتمبر 2008: يحكم عليه بـ 15 عاما يقضيها في سجون فلوريدا (فيطبقها حتى سنة 2019 ويخرج بحسن سير وسلوك).

- 2010: بينما في السجن، يقوم بإنهاء أطروحة الدكتوراه (900 صفحة) وكانت عن الفلسفة السياسية للفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز.

- 2011: يقوم بكتابة بضعة كتب باللغة الإنجليزية عن مقارنة الأديان مثل:

Meet God's Sons (And Daughters)

Who Do People Say I am?

The First Suicide Attack Ever

-ديسمبر 2011: يقوم بالترجمة للعربية كتاب عن علم الدماغ والاعصاب للعالم ديفيد إيغلزمان، واسمه:

Incognito: The Secret Lives of the Brain

- 2012: يكتب نصا مسرحيا باسم، "غوانتانامو بيه"، فيه يحاول التركيز على براءة بعض المعتقلين المسلمين في ذلك المعتقل الشرس (في 2015، حول ذلك النص الى رواية بعنوان "أنس في بلاد العناكب").

2013 -: يقوم بكتابة كتاب آخر بالإنجليزية عن مقارنة الأديان تحت عنوان Pious Frauds، وهو كتاب عن من ومتى وكيف حرف الكتاب المقدس، The Bible .

2014 -: يكتب في اللغة الإنجليزية كتابه الأول في أدب السجون تحت عنوان:

The House of Cons: Games Inmates Play

وفي نفس السنة، يقوم بكتابة نص مسرحي باللغة العربية بعنوان، "سطار بكس".

2015 -: قام بكتابة كتاب، "خلف الاسلاك الشائكة"، فيه يحكي عن القضايا الملفقة له ومعاناته في قصور العدل الأمريكية وسجونها (لم ينشر حتى نوفمبر 2017).

2016 -: يكتب بالعربية كتاب اكاديمي وعنوانه، "إسلاموفوبيا في أمريكا"، وفيه يشرح عن كيفية بدأ حملة شرسة في الولايات المتحدة تقوم بتحريض الامريكان على بغض وكره العرب والمسلمين أينما وجدوا.

-ديسمبر 2016: يقوم بكتابة الجزء الثاني لقصته المأساوية وصراعه مع "العدل" الأمريكي وسجون العم سام، تحت عنوان، "ألف ليلة حبس انفرادي".

2017 -: كتب بالعربية كتابه الاكاديمي الضخم وعنوانه، "لبيك يا إسرائيل"، وهو كتاب يشرح عن كيفية قيام بعض يهود أمريكا الأثرياء بالتأثير سلبا على سياسة أمريكا الخارجية تجاه الفلسطينيين والعرب لصالح إسرائيل.

وفي نفس السنة، يقوم بكتابة كتابين بالإنجليزية في أدب السجون:

Blue Crescents: Islamic Advices to Incarcerated Muslims

100 Prison Skills

– 2018: يقوم بكتابة كتب بالإنجليزية عن أدب السجون تحت عناوين:

Gooking Out: The K-2 Epidemic in U.S. Prisons

100 Prison Recipes

100 Prison Workouts

– 2019: يقوم بكتابة كتاب آخر عن ادب السجون باسم:

We Are No Angels: Games Correctional Officers Play

في نفس السنة، يقوم بالكتابة باللغة العربية كتب ونصوص مسرحية ونصوص سينمائية: "شباب الازمة"، و"للكلاب حظوظ"، و"عيال مدريد"، و"الحواج"، و"عودة محارب".

–نوفمبر 2019: كتب آخر كتاب له بينما في سجون أمريكا تحت عنوان، "عصابة الـ MS-13". في نفس الشهر، يعود الى وطنه، مسقط رأسه، الكويت، بعد تطبيقه مدة 12 سنة و8 شهور من أصل حكم 15 سنة، لحسن سير وسلوك.

أيضاً بقلم ياسر البحري

(بينما كان في سجون أمريكا)

(2019-2007)

خلف الأسلاك الشائكة

ألف ليلة حبس انفرادي

أنس في بلاد العناكب

من يقول الناس أنى أنا؟ (ألوهية المسيح)

وللكلاب حظوظ

شباب الأزمة

إسلاموفوبيا في أمريكا

لبيك يا إسرائيل

عصابة الـ MS-13 اللاتينية

غوانتنامو بيه (نص مسرحي)

عيال مدريد (نص مسرحي)

سطار بوكس (نص مسرحي)

الحواج (نص مسرحي)

حفله انفرادي محفوفه (نص مسرحي)

عودة محارب (نص سينمائي)

كتب بالإنجليزية

Jesus Resuscitated (Who Saved the Life of Jesus and Why You Don't Know About it?)

Pious Frauds (Who Changed the Bible and Why?)

Meet God's Sons (And Daughters)

Who Do People Say I am?

The First Suicide Attack Ever!

The House of Cons (Games Inmates Play)

Gooking Out (The K-2 Epidemic in US Prisons)

100 Prison Skills (Survival Edition)

100 Prison Recipes (Chefs Edition)

100 Prison Workouts

We Are No Angels (Games Correctional Officers Play)

Blue Crescents (Islamic Advices to Incarcerated Muslims)

Thomas Hobbes (A geometrician in the Public Realm)

تكرم بزيارة صفحته على الإنترنت

/https://yaseralbahri.com